ذخائر العرب
(٧٣)

عوارف المعارف

للإمام العارف شهاب الدين أبي حفص عمر السُّهروردى
٥٣٩ هـ - ٦٣٢ هـ

الجزء الثانى

بتحقيـق
الامام الدكتور عبد الحليم محمود و الدكتور محمود بن الشريف



دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين..

اللهم صل صلاة كاملة، وسلّم سلامًا تامًا، على سيدنا محمد النبى الذى تنحل به العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتُنال به الرغائب، وحسن الخواتيم، ويستسقى الغمام بوجهه الكريم، وعلى آله وصحبه فى كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثانى من كتب «عوارف المعارف» لشهاب الدين أبى حفص عمر السهروردى - وهو كتاب جمع فأوعى من المعارف الصوفية، التى تستشرف لها النفوس الطيبة الباحثة عن معالم الحق والفضيلة حيثما كانت. وأنّى وجدت.

ومما يجدر معرفته أن هذا الجزء يخرج إلى القارئ محققًا، بعد أن أضيف لإخراجه نسخة خطية جيدة، قوبل بها أثناء التحقيق لنصه، وهى نسخة يرجع تاريخ نسخها لعام ٦١٣هـ - أهديت إلينا من العلامة الفاضل المحدث الشيخ محمد يوسف البنورى، وقد أهداها إلينا أثناء زيارتنا لأرض باكستان الكريمة، شكر الله له، وجزاه خير الجزاء إنه سميع قريب مجيب. ونذكر القارئ الكريم، بأننا قد صدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب بمقدمات ثلاث عن:

المؤلف

والتصوف

ونماذج صوفية

وهى كافية ليرجع إليها القارئ، ويستنير بها أمام تلك المعارف الصوفية ليواصل ويتابع قراءته لهذا الكتاب وبالله التوفيق.

عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر «سابقًا»

الباب الثانى والعشرون

فى القول فى السماع قبولاً وإيثارًا

قال الله تعالى: ﴿فَبشّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يستمِعُون القَوْل فيَتَّبِعُون أحْسَنَه أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وأولئِكَ هُمْ أولو الأَلْبابِ﴾[١]. قيل: أحسنه: أى أهداه وأرشده. وقال عزّ وجلّ: ﴿وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِل إلى الرَّسُولِ ترى أعْيُنَهمُ تفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٢].

هذا السماعُ هو السماعُ الحقُّ، الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكومٌ لصاحبه بالهداية واللُّب، وهذا سماعٌ تَردُ حرارتُه على بَرْد اليقين فتفيض العين بالدمع؛ لأنه تارة يثير حزنًا، والحزن حار، وتارة يثير شوقًا والشوق حار، وتارة يثير ندمًا والندم حار، فإذا أثار السماعُ هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرْد اليقين أبْكى وأدْمع؛ لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرًا ماءً؛ فإذا آلمَ السماعُ بالقلب تارة يخِفُّ إلمامه، فيظهر أثره فى الجسد ويقشعرُّ منه الجلد قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُود الَّذِينَ يَخْشَوْن ربَّهُمْ﴾[٣].

وتارةً يعظم وقعه، ويتصوّب[٤] أثرُه إلى فوق نحو الدماغ كالمخبر للعقل بعِظم وقع المتجدّد الحادث، فتتدفق منه العين بالدمع وتارةً يتصوّب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجًا يكاد تضيق عنه نطاق القالب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب وهذه كلها أحوالٌ يجدها أربابها من أصحاب الحال، وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المجال.

روى أن عمر رضى الله تعالى عنه، كان ربّما مرّ بآية فى ورده، فتخنقُه العبرة، ويسقط، ويلزم البيتَ اليومَ واليومين حتى يُعاد ويُحْسَبَ مريضًا؛ فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم.

روى زيد بن أسلم قال: قرأ أبىٌّ بن كعب عند رسول الله ﷺ فَرَقُّوا، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) آية ١٨ من سورة الزمر.
(٢) آية رقم ٨٣ من سورة المائدة.
(٣) آية رقم ٢٣ من سورة الزمر.
(٤) يتنزل.

« اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى»[١].

وردت أم كلثوم قالت: قال رسول الله ﷺ :

«إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها»[٢]. وورد أيضًا :

«إذا اقشعر الجلد من خشية الله حَرَّمه الله تعالى على النار»[٣].

وهذه جملة لا تنكر، ولا اختلاف فيها، إنما الاختلاف فى استماع الأشعار بالألحان.

وقد كثرت الأقوال فى ذلك وتباينت الأحوال:

فمن مُنكر يُلحقه بالفسق، ومن مُولع به يشهد بأنه واضح الحقّ، ويتجاذبان فى طرفى الإفراط والتفريط.

قيل لأبى الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد، وسرى السقطى، وذو النون يسمعون؟

فقال: كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خيرٌ منّى؟ فقد كان جعفر الطيّار يسمع، وإنما المنكَر: اللهو واللعب فى السماع وهذا قول صحيح.

أخبرنا الشيخ طاهر بى أبى الفضل، عن أبيه الحافظ المقدسى قال: أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال: حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال: حدثنا عمرو بن الحارث قال: حدثنا الأوزاعى، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله تعالى عنها:

أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين ورسول الله ﷺ مُسجىً بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبو بكر؛ فإنها أيام عيد»[٤].

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا أسْأَمُ[٥]..

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس بسند صحيح.

(٢) رواه الطبرانى عن العباس بسند ضعيف ورواه أبو الشيخ فى الثواب والبيهقى واللفظ له. ومعنى تحاتت: تساقطت.

(٣) وردت أحاديث صحيحة فى عدم دخول النار لمن بكى من خشية الله.

(٤) الصحيحين

(٥) الصحيحين.

وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكىّ، رحمه الله تعالى، ما يدلّ على تجويزه، ونُقِل عن كثير من السلف: صحابىّ، وتابعىّ، وغيرهم.

وقول الشيخ أبى طالب المكىّ يعتبر لوفور علمه وكمال حاله وعلمه بأحوال السلف، ومكان درعه وتقواه وتحريّه الأصوبّ والأولى؛ وقال: فى السماع: حرامٌ، وحلالٌ، وشبهةٌ؛ فمن سمعه بنفْس مُشاهدةٍ شهوةً وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفةِ مُباحٍ من جارية أو زوجة كان شبهةً لدخول اللهو فيه، ومن سمعه بقلب يشاهد معانى تَدلّه على الدليل وتُشهده طرقات الجليل فهو مباحٌ. وهذا قول الشيخ أبى طالب المكىّ وهو الصحيح.

فإذن لا يطلق القول بمنعه وتحريمه، والإنكار على من يسمع كفعل القرّاء المتزهّدين المبالغين فى الإنكار، ولا يُفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المُسْتَهترين[1] به المهملين شروطَه وآدابه المقيمين على الإصرار.

ونفصّل الأمر فيه تفصيلاً، ونوضّح الماهية فيه تحريماً وتحليلاً؛ فأما الدفّ، والشبابة[2]، وإن كان فيهما فى مذهب الشافعىّ فسحة، فالأَوْلى تركهما، والأخذ بالأحوط والخروجُ من الخلاف.

وأما غير ذلك، فإن كان من القصائد فى ذكر الجنّة والنار، والتشويق إلى دار القرار، ووصفِ نِعم الملك الجبّار، وذكر العباذات والترغيب فى الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار، ومن ذلك القبيل، قصائد: الغزاة، والحجاج فى وصف الغزو والحج؛ مما يثير كامنَ العزم من الغازى، وساكنَ الشوق من الحاجّ.

وأمّا ما كان من ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانةِ الاجتماعُ لمثل ذلك.

وأمّا ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصدّ مما يقْربُ حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلوّن أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين؛ فمن سمع ذلك وحَدثَ عنده ندمٌ على ما فات أو تجدّد عنده عزمٌ لما هو آت فكيف ينكون سماعه[3]؟، وقد قيل: إن بعض الواجدين كان يقتات السماع ويتقوّى به على الطىّ والوصال، ويثير

(١) وفى نسخة: المستهترين، يقال فلان مستهتر بالشىء، أى: مولع به.

(٢) نوع من الزمار.

(٣) وفى نسخة: فكيف ينكر سماعه.

عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوعِ؛ فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه، كأن يسمع الحادى يقول مثلا:

أتــوب إليـك يا رحمــن إنّـى أسـأت وقـد تضـاعفت الذنـوب

فأمّـا مـِن هـوَى ليلـى وحُبّـى زيارتَهـا فإنّـى لا أتـوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات فى أمر الحق إلى الممات، يكون فى سماعه هذا ذاكرًا لله تعالى.

كما قال بعض أصحابنا: كنا نعرف مواجيد أصحابنا فى ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وقال الجنيد[١]: تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة؛ لأنهم يتحاورون فى مقامات الصدّيقين والنبيين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقًا.

وسئل رويم عن وَجْدِ الصوفية عند السماع، فقال: يتنبهون للمعانى التى تَقْرُب عن غيرهم، فتُشير إليهم إلىّ.. إلىّ.. فيتنعمون بذلك من الفرح، ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاءً، فمنهم من يمزّق ثيابه، ومنهم من يبكى، ومنهم من يصيح.

أخبرنا أبو زرعة، إجازة، عن ابن خلف، إجازة، عن السلمى قال: سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول:

المستمع بين استتار وتجلٍ؛ فالاستتار يورث التلهّب، والتجلّى يورث المزيد، فالاستتار يتولّد منه حركات المريدين، وهو محل الضعف والعجز، والتجلّى يتولّد منه السكون للواصلين، وهو محلّ الاستقامة والتمكين. وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلاّ الذبول تحت موارد الهيبة.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى: سمعت جدّى يقول:

المستمع ينبغى أن يستمع بقلب حيٍّ ونفس مَيْتَةٍ، ومن كان قلبه ميتًا ونفسه حيّةً لا يحل له السماع.

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز، مولده ووفاته ببغداد سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وعرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخزَّ: قال أحد معاصريه: ما رأت عيناى مثله؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحاته، والمتكلمون لمعانيه وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد، وقال ابن الأثير فى وصفه: إمام الدنيا فى زمانه، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ في الْخلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[1] الصوت الحسن.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«لله أشدُّ أذَنا[2] بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قَيْنَةٍ[3] إلى قينته»، نُقل عن الجنيد قال: رأيت إبليس في النوم، فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشيء أو تنالُ منهم شيئًا؟

فقال: إنه يعسر على شأنهم ويعظم عليّ أن أصيب منهم شيئًا إلاّ في وقتين، قلت: أيّ وقت؟

قال: وقت السماع وعند النظر فإنّي أسترقُّ منهم فيه وأدخل عليهم به.

قال: فحكيت رؤياى لبعض المشايخ، فقال: لو رأيتُه قلتُ له يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر أتربح أنت عليه شيئًا أو تظفر منه بشيء؟ فقلت: صدقت.

وردت عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت:

«كانت عندى جارية تُسْمِعُنى، فدخل رسول الله ﷺ وهي على حالها، ثم دخل عمر ففرّت؛ فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله؟ فحدّثه حديث الجارية، فقال: لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله ﷺ، فأسمعته».

وذكر الشيخ أبو طالب المكّى قال:

كان لعطاء جاريتان تُلَحّنان، وكان إخوانه يستمعون إليهما، وقال: أدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يُسمعن التلحين أعدّهن للصوفية.

وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب، وعندى اجتناب ذلك هو الصواب.

وهو لا يَسْلم إلاّ بشرط طهارة القلب، وغضّ البصر، والوفاء بشرط قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾[4].

وما هذا القول من الشيخ أبى طالب المكىّ إلاّ مستغرَب عجيب، والتنزّه عن مثل ذلك هو الصحيح.

---

(١) آية رقم ١ من سورة فاطر.

(٢) أذنا: استماعًا.

(٣) القينة: الأمةُ مغنية كانت أو غير مغنية والحديث رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى في الشعب عن فضالة بن عبيد بسند صحيح.

(٤) الآية ١٩ من سورة غافر.

وفي الحديث: في مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه وبتلاوة الزبور، حتى كان يجتمع الإنسُ والجنُّ والطير لسماع صوته، وكان يُحمل من مجلسه آلاف من الجنائز[١].

وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعري:

«لقد أعطى مزمارًا من مزامير آل داود»[٢].

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن من الشعر لحكمة»[٣].

ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن، وقوم يُنْشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر؟ فقال: «من هذا مرّة، ومن هذا مرّة».

وأنشد النابغة[٤] عند رسول الله ﷺ أبياته التي فيها:

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم يكن له بَوادِرُ تَحمي صفوَه أنْ يُكَدَّرا

ولا خير في أمرٍ إذا لم يكن له حكيمٌ إذا ما أوْردَ الأمرَ أصدرا

فقال له رسول الله ﷺ : «أحسنت يا أبا ليلى لا يَفْضِض الله فاك»[٥].

فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس نفرًا وكان رسول الله ﷺ يضع لحسّان[٦] منبرًا في المسجد، فيقوم على المنبر قائمًا يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ[٧].

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٢) البخاري من حديث أبي بن كعب.

(٣) أحمد وأبو داود.

(٤) هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله الجعدي العامري: شاعر مغلق، صحابي، من المعمرين. اشتهر في الجاهلية، وسمي «النابغة» لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم وأدرك صفّين فشهدها مع علي. وقد مات بأصبهان ٥٠هـ/ ٦٧٠م بعد أن جاوز المائة. [انظر الإعلام للزركلي ج١ ص٢١٩، والإصابة٣: ٥٣٧، وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ٢٠٩].

(٥) البزار وفيه يعلى بن الأشد وهو ضعيف.

(٦) هو حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري: الصحابي، شاعر النبي صلى الله عليه وسلم، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وعمي قبل وفاته. قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة وشاعر اليمانيين في الإسلام، وكان شديد الهجاء فحل الشعراء توفي بالمدينة سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م.

(٧) رواه البخاري تعليقًا وأبو داود والترمذي والحاكم متصلاً من حديث عائشة قال الترمذي حسن صحيح.

ويقول النبى ﷺ: «إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ»[١].

ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال: فقلت له: ما تقول فى السماع الذى يختلف فيه أصحابنا؟

فقال: هو الصفاء الزُّلال لا يثبت عليه إلاّ أقدام العلماء.

ونقل عن ممشاد الدينورى قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئًا؟

فقال: ما أنكره، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن.

فقلت: يا رسول الله إنهم يؤذونى وينبسطون، فقال: احتملهم يا أبا علىّ هم أصحابك. فكان ممشاد يفتخر ويقول: كنَّانى رسول الله ﷺ، وأمّا وجه الإنكار فيه فهو أن يُرى جماعةٌ من المريدين دخلوا فى مبادئ الإرادة ونفوسهم ما تمرّنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ويعلمون ما لهم وعليهم مشتغلين به.

حُكى أنَّ ذا النون لمّا دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوّال، فاستأذنوه أن يقول شيئًا، فأذن له، فأنشد القوّال:

صغيرٌ هَواك عذَّبنى ... فكيف به إذا احتنكا[٢]
وأنت جمعت من قلبى ... هَوًى قد كان مُشتركا
أما ترْثى لمكتئب ... إذا ضحك الخلىُّ بكى

فطاب وقته وقام وتواجد، وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم، فنظر إليه ذو النون فقال: اتق الله الذى يراك حين تقوم، فجلس الرجل، وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال، غيرُ صالح للقيام متواجدًا، فيقوم أحدهم من غير تدبرّ بصيرةٍ وعلمٍ فى قيامه؛ وذلك إذا سمع إيقاعًا موزونًا بسمعٍ يؤدى إلى طبعٍ موزون، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون،

---

(١) فى الصحيحين أن عائشة قالت إن حسانًا كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى البخارى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله هل سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: يا حسان أجب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أيده بروح القدس قال نعم – والحديث كله رواه أبو داود رقم ٥٠١٥.

(٢) قوى واستحكم.

وينسبل[١] حجاب نفسه المنبسطِ بانبساط الطبعِ الموزون على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبعِ فيقوم يرقص رقصًا موزونًا ممزوجًا بتصنّع، وهو محرّم عند أهل الحق، ويَحسب ذلك طيبةً للقلب، وما رأى وجة القلب وطيبته[٢] لله تعالى. ولعمرى، وهو طيبةُ القلب، ولكن قلب مُلَوَّن بلون النفس، ميّال إلى الهوى، موافق للردى، لا يهتدى إلى حسن النيّة فى الحركات ولا يعرف شروط صحة الإرادات، ولمثل هذا الراقص قيل: الرقصُ نقصٌ؛ لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنيّة صالحة، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شوبُ حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرّب إلى بعض الحاضرين من غير نيّة، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم وغير ذلك من الحركات التى لا يعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوّف إلاّ مجرّد زىٍّ وصورة، أو يكون القوّال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشرافٌ على الجمع وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد، فيكون ذلك عَيْنَ الفسق المجمعِ على تحريمه، فأهل المواخير[٣] حينئذٍ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره وحركاته؛ لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه، ويُريه عبادةً لمن لا يعلم ذلك، أفَترى أحدًا من أهلِ الديانات يرضى بهذا ولا ينكره؟!! فمن هذا الوجه توجَّه للمنكِر الإنكارُ، وكان حقيقًا بالاعتذار، فكم من حركاتٍ موجبةٍ للمقت، وكم من نهضات تُذهب رونق الوقت، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب يمنعه عن مثل هذه الحركات، ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح.

وقد يُرقصُ[٤] بعضَ الصادقين إيقاعٌ ووزنٌ من غير إظهار وجد وحال، ووجْه نيّته فى ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء فى الحركة، فيتحرك بحركة موزونة غير مدّعٍ بها حالاً ووجدًا، يجعل حركته فى طرف الباطل؟ لأنها وإن لم تكن محرّمة فى حكم الشرع كلها غيرُ محللة بحكم الحال؛ لما فيها من اللهو، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التى تجرى عليه من الضحك والمداعبة وملاعبة الأهل والولد، ويدخل ذلك فى باب الترويح للقلب.

---

(١) ينسبل: ينفتح.

(٢) وفى نسخة أخرى: وطيبته بالله تعالى.

(٣) مخر الذئب الشاة إذا شق بطنها؛ والماخور: بيت الريبة، وهو أيضًا الرجل الذى يلى ذلك البيت ويَعود إليه وفى حديث زياد حين قدم البصرة أميرًا عليها، ما هذه المواخير؟ الشراب عليه حرام حتى تسوى بالأرض هدمًا وإحراقًا، هى جمع ماخور، وهو مجلس الريبة، ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوتُ الخمارين.

(٤) وفى نسخة: وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن.

وربّما صار ذلك عبادةً بحسن النيّة إذا نوى به استجمام[١] النفس، كما نقل عن أبى الدرداء أنه قال:

إنّى لأستجمُّ نفسى بشىء من الباطل ليكون ذلك عونًا لى على الحق.

ولموضع الترويح كرهت الصلاة فى أوقات ليستريح عُمّال الله، وترتفق[٢] النفوس ببعض مآربها من : ترك العمل وتَسْتَطْيب أوطان المُهَل.

والآدمى بتركيبه المختلف، وترتيب خَلقه المتنوِّع بتنوع أصول خِلقته - وقد سبق شرحه فى غير هذا الباب - لا تفى قواه بالصبر على الحق الصرف، فيكون التفسّح فى أمثال ما ذكرناه من المباح الذى ينزع إلى لهو مًّا باطلاً يستعان به على الحق؛ فإن المباح وإن لم يكن باطلاً فى صيغة الشرع - لأن حدَّ المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه - ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال.

ورأيت فى بعض كلام سهل بن عبد الله[٣] يقول فى وصفه للصادق.

الصادق يكون جهله فريدًا لعلمه، وباطله فريدًا لحقّه، ودنياه مزيدًا لآخرته؛ ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ النساءُ، ليكون ذلك خطّ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظَها، الموفَّر[٤] عليها حقوقها لموضع طهارتها وقد سها؛ فيكون ما هو نصيب للباطل الصرف فى حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودةِ بعزيمة الحال فى حقّه ﷺ مُتَّسِمًا بسمة العبادات.

وقد ورد فى فضيلة النكاح ما يدلّ على أنه عبادة، ومن ذلك من طريق القياس اشتمالُه على المصالح الدينية والدنيوية على ما أطنب فى شرحه الفقهاء فى مسألة التخلّى لنوافل العبادات؛ فإذن يخرج هذا الراقص بهذه النيّة المتبرئ من دعوى الحال فى ذلك من إنكار المنكِر، فيكون رقصه لا عليه ولا له، وربما كان رقصه بحسن النية فى الترويح يصير عبادةً، سيما إن أضمر فى نفسه فرحًا بربّه ونظر إلى شمول رحمته وعطفه.

---

(١) استرواح.

(٢) الرفق ضد العنف ورفقت به وارتفقت بمعنى واحد.

(٣) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى أحد أئمة الصوفية حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وفقه العبادة وهو ابن عشر فيحسن الإجابة، وكان صاحب كرامات، توفى سنة : ٢٨٣هـ، ومن أقواله: ما أعطى أحد شيئًا أفضل من علم يستزيد به افتقارًا إلى الله.

(٤) المعجّل .

ولكن لا يليق الرقص بالشيخ، ومن يُقْتَدى بـه، لما فيه من مشابهة اللهو، واللهو لا يليق بمنصبهم ويباين حالَ المتمكن مثلُ ذلك.

وأما وجه منع الإنكار فى السماع؛ فهو أن المنكِر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة :

إمّا جاهل بالسنن والآثار، وإما مغتّر بما أتيح له من أعمال الأخيار، وإما جامد الطبع لا ذوق له فَيُصرُّ على الإنكار، وكلّ واحد من هؤلاء الثلاثة يُقَابَل بما سوف يُقْبَل :

أما الجاهل بالسنن والآثار فيُعرَّف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها، وبالأخبار، والآثار الواردة فى ذلك، وفى حركة بعض المتحركين يُعَرَّفُ رُخْصةَ رسول الله ﷺ للحبشة في الرقص. ونظرِ عائشة رضى الله عنها إليهم مع رسول الله ﷺ .

هذا إذا سلمت الحركةُ من المكاره التى ذكرناها .

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال لعليّ رضى الله عنه : «أنت منى وأنا منك» فَحجَل[1]. وقال لجعفر «أشبهتَ خَلقى وخُلقى» فَحجل. وقال لزيد «أنت أخونا ومولانا» فَحَجِل، وكان حَجل جعفر فى قصة ابنة حمزة لمّا اختصم فيها على وجعفرُ وزيد[2].

وأما المنِكر المغرور بما أُتيح له من أعمال الأخيار، فيقال له : تَقَرُّبك إلى الله بالعبادة لنيتك لا لشُغْل جوارحك بها، ولولا نيةُ قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر، فإنما الأعمال بالنيات ولكل أمرىء ما نوى، والنيّة لنظرك إلى ربك خوْفًا أو رجاء، فالسامع من الشعر بيتًا يأخذ منهً معنى يُذّكِّره ربّه إمّا فرحًا أو حزنًا، أو انكسارًا أو افتقارًا كيف يقلّب فى أنواع ذلك ذاكرًا لربّه، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت فتفكر فى قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر وتسخيره خلقَه ومنشأَ الصوت وتأديته إلى الأسماع كان فى جميع ذلك الفكر مسبِّحًا مقدّسًا؛ فإذا سمع صوت آدمىّ وحَضَره مثلُ ذلك الفِكر وامتلأَ باطنُه ذكرًا وفكرًا كيف يُنْكَر ذلك؟!

حَكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفًا فى جامع «جُدَّة» على البحر، فرأيت يومًا طائفة يقولون فى جانب منه شيئًا، فأنكرت ذلك بقلبى وقلت: فى بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر! ! فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام تلك الليلة وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جانبه أبو بكر، وإذا أبو بكر يقول شيئًا من القول والنبى ﷺ يستمع إليه

---

(١) حجل الطائر والغلام وقف على رجل واحدٍ ، والمراد هنا الوثوب والرقص.

(٢) حديث اختصم على وجعفر وزيد بن حارثة فى ابنه حمزة الخ.. رواه أبو داود من حديث على بسند حس.

ويضع يده على صدره الكريم كالواجد بذلك، فقلت فى نفسي: ما كان ينبغي لى أن أنكر على أؤلئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وأبـو بكـر إلى جنبـه يقـول، فالتفتَ إلىّ رسولُ الله ﷺ وهو يقول : هذا حقٌّ بحق، أو حق من حَقّ.

بلى، إذا كان ذلك الصوت من أمْرد[1] يُخشى بالنظر إليـه الفتنـةُ، أو مـن امـرأةٍ غـير مَحرم وإن وجد من الأذكار والأفكار ما ذكرنا — يَحرُم سماعه؟ لخوف الفتنـة، لا لمجـرد الصوت، ولكن يجعل سماع الصوت حريمَ الفتنة ولكل حرامٍ حريمٌ ينسـحب عليـه حكـم المنع لوجه المصلحة: كالقبلة للشاب الصائم؛ حيث جعلت حريمَ حرام الوقاع، وكالخلوة بالأجنبية، وغير ذلك.

فعلى هذا قد تقتضى المصلحةُ المنعَ من السماع إذا عُلم حال السامع ما يؤدّيه إليه سماعُه، فَيُجعل المنعُ حريـمَ الحـرام، هكـذا، وقـد يُنْكِـر السـماعَ جـامدُ الطبـع عديـم الـذوق، فيقـال له: العِنّين لايعلم لذّة الوقاع، والمكفـوف ليـس لـه بالجمـال البـارع استمتاعٌ، وغـيرُ المصـاب لا يتكلّم بالاسترجاع[2]، فماذا تُنْكِر من محبّ باطنه بالشوق[3] والمحبة؟! ويرى انحباس روحه الطيارة فى مضيق النفس قفص الأمّارة يمر بروحه نسيم أُنس الأوطان، وتلوح له طوالع جنود العرفان، وهو بوجود النفس فى دار الغربة يتجرّع كأس الهجران، يئن تحت أعباء المجـاهدة ولاتُحمل عنه سوانح[4] المشاهدة ولمّا قطـع منـازل النفس بكـثرة الأعمـال لايَقْـرب مـن كعبـة الوصال ولايُكْشَف له المسْبَل من الحجاب[5]، فيتروّح بتَنفس الصعداء[6] ويرتاح باللائح من شدّة البرحاء[7]، ويقول مخاطبًا للنفس والشيطان وهما المانعان[8]:

أبَا جَبَلَيْ نَعْمان[9] بالله خَلِّيـــا ... نَســيمَ الصَّبَا يخلُص إلىّ نسيمُها
فإن الصَّبَا ريحٌ إذا ما تنسَّـــمتْ ... على قلب محزون تجلّت همومها
أجدْ بَردها ، أو تَشْفِ منى حرارة ... على كبدٍ لم يبق إلاّ صميمهــا[10]
ألا إنَّ أدوائى بليــلى قديمـــةٌ ... وأقْتَلُ داءِ العاشـقين قَديمُهـــا

---

(١) الأمرد : الشاب الذى لم تنبت لحيته.
(٢) استرجع عند المصيبة إذ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٣) إلى الحضرة الإلهية .
(٤) يقول : سنح لى الطير إذا مرّ من مياسرك إلى ميامنك .
(٥) وفى نسخة (المسبل من الحجال) والحجال جمع حجل وهو بيت العروس.
(٦) وفى نسخة (فيستروح بتنفس الصعداء) أن تنفسٌ ممدود
(٧) الشدائد.
(٨) المانعان من مشاهدة الجمال .
(٩) نعمان (بفتح النون) واد فى طريق الطائف.
(١٠) صميم الشيء خالصه.

ولعل المنكر يقول : هل المحبَّة إلاّ امتثال الأمر؟ وهل يُعرف غيرُ هذا، وهل هناك إلاّ الخوف من الله تعالى؟ ويُنكِر المحبّةَ الخاصّة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقرّبين.

ولمّا تقرر فى فهمه القاصر أن المحبة تستدعى مَثالاً وخيالاً، وأجناسًا وأشكالاً أنكرمحبة القوم، ولم يعلم أن القوم بلغوا فى رُتب الإيمان إلى أتمّ من المحسوس، وجادوا من فرط الكشف والعِيان بالأرواح والنفوس.

روى أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ .

أنه ذكر غلامًا كان فى بنى إسرائيل على جبل فقال لأمه: مَن خلق السماءَ؟ قالت: الله. قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله، قال: من خلق الجبال؟ قالت: الله. قال: من خلق الغيم؟ قالت: الله، فقال: إنّى أسمع لله شأنًا، ورمى بنفسه من الجبل فتقطّع.

فالجمال الأزلى الإلهى منكشف للأرواح غيرُ مُكَيَّف للعقل ولا مُفَسَّر للفهم؟ لأن العقل موكَّلٌ بعالَمِ الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود، ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلّى فى طى الغيب المنكشف للأرواح بلا ريب، وهذه الرتبةُ من مطالعة الجمال رتبةٌ خاصة، وأعمُّ منها من رتب المحبّة الخاصة، دون العامة، مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال، والاستقلال بالمنح والنوال، والصفات المنقسمة إلى ما ظهر منها فى الآباد ولازمت الذات فى الآزال.

فللكمال جمال لايُدرك بالحواس، ولا يستنبط بالقياس، وفى مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبّين خُصّوا بتجلّى الصفات، ولهم بحسب ذلك: ذوق، وشوق، ووجد، وسماع.

والأولون منحو قِسطًا من تجلّى الذات فكان وجدهم على قدر الوجود، وسماعهم على حدّ الشهود.

وحكى بعض المشايخ قال:

رأينا جماعة ممن يمشون على الماء والهواء، يسمعون السماع، ويَجدون به، ويتولّهون[1] عنده.

---

(١) يتحيّرون.

وقال بعضهم: كنّا على الساحل، فسمع بعض إخواننا، فجعل يتقلّب على الماء يمرّ ويجيء حتى رجع إلى مكانه.

ونقل أن بعضهم كان يتقلّب على النار عند السماع ولا يحسُّ بها.

ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع، فأخذ شمعةً فجعلها فى عينه. قال الناقل: قَرُبْتُ من عينه أنْظُر فرأيت نارًا، أو نورًا يخرج من عينه يَردّ نار الشمعة.

وحكى عن بعضهم: أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض فى الهواء أذرعًا يمرّ ويجيء فيه.

وقال الشيخ أبو طالب المكىّ، رحمه الله تعالى، فى كتابه:

«إن أنكرنا السماعَ مجملاً مطلقًا من غير قيد مُفصِّل يكون إنكارًا على سبعين صديقًا، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقربُ إلى قلوب القرّاء والمتعبّدين، إلاَّ أنا لا نفعل ذلك؟ لأننا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لم يسمعوا».

وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسُنن والآثار، مع اجتهاده وتحرّيه الصوابَ، ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار، ونوضّح لهم الفرقَ بين سماعٍ يُؤْثِر وبين سماع يُنْكَر. وسمع الشبلىُّ قائلاً يقول:

أسائلُ عن سَلمى، فهل مِن مُخْبِرٍ يكون لـه عِلْمٌ بها أين تنزل

فزعق الشبلى، وقال: لا والله ما فى الدارين عنه مُخْبر.

وقيل: الوجد سرُّ صفات الباطن، كما أن الطاعةَ سرُّ صفات الظاهر، وصفاتُ الظاهر الحركةُ والسكون، وصفاتُ الباطن الأحوال والأخلاق.

وقال أبو نصر السرّاج: أهل السماع على ثلاث طبقات:

فقوم يرجعون فى سماعهم إلى مخاطَبات الحقّ لهم فيما يسمعون.

وقومٌ يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم، فهم مرتبطون بالعلم ومطالَبون بالصدق فيما يشيرون إليه من ذلك.

وقوم هم الفقراء المجرّدون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوّث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون بطيبة قلوبهم ويليق بهم السماعُ؛ فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة.

وكلّ قلبٍ ملوّث بحبّ الدنيا فسماعُه طبعٍ وتكلّف.

وسئل بعضهم عن التكلّف في السماع، فقال: هو على ضربين:

تكلّف في المستِمع لطَلَب جاهٍ أو منفعة دنيوية، وذلك تلبيس وخيانة،

وتكلّف فيه لطلب الحقيقة؛ كمن يطلب الوجد بالتواجد، وهو بمنزلة التباكى المندوبِ إليه.

وقول القائل: إنّ هذه الهيئة من الاجتماع بدعة!!

يقال له: إنما البدعة المحذورة الممنوع منها بدعةٌ تُزاحم سنةً مأمورًا بها، وما لم يكن هكذا فلا بأس به.

وهذا كالقيام للداخل لم يكن[1]، فكان فى عادة العرب ترك ذلك، حتى نقل: أن رسول الله ﷺ كان يدخل ولا يقام له.

وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتُمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا بأس به؛ لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور،فيكون ذلك من قبيل العِشرة وحسن الصحبة، ويكون بدعة لا بأس بها؛ لأنها لم تزاحم سنةً مأثورة..

---

(١) يعنى لم يكن القيام فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم.

الباب الثالث والعشرون

فى القول فى السماع ردًا وإنكارًا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق فيه بأهل الصدق، وحيث كثُرت الفتنة بطريقه وزالت العصمة فيه.

وتصدّى للحرص عليه أقوام قلّت أعمالُهم، وفسدت أحوالهم، وأكثروا الاجتماعَ للسماع، وربما يُتَّخذ للاجتماع طعامٌ تطلب النفوسُ الاجتماعَ لذلك، لا رغبةً للقلوب فى السماع كما كان من سير الصادقين، فيصير السماع معلولاً تركن إليه النفوس طلبًا للشهوات، واستحلاءً لمواطن اللهو والغفلات، وينقطع بذلك على المريد طلبُ المزيد، ويكون بطريقه تضييع الأوقات وقلّة الحظّ من العبادات، وتكون الرغبةُ فى الاجتماع طلبًا لتناول الشهوة واسترواحًا لأُولى الطرب واللهو والعِشرة، ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردودٌ عند أهل الصدق.

فكان يقال: لا يصح السماع إلاّ لعارف مكين، ولا يُباح لمريدٍ مبتدئ.

وقال الجنيد، رحمه الله تعالى،: إذا رأيتَ المريدَ يطلب السماعَ فاعلم أنَّ فيه بقيةً للبطالة.

وقيل إن الجنيد ترك السماع، فقيل له: كنتَ تسمع فلم تمتنع؟ فقال: مع من؟ قيل له: تسمع أنت لنفسك؟ فقال: ممن؟

لأنهم كانوا لا يسمعون إلاّ من أهلٍ مع أهلٍ، فلمَّا فُقِد الإخوانُ تُرِك.

فما أختاروا السماع حيث اختاروه إلاّ بشرطٍ وقيودٍ وآداب؛ يذكرون به الآخرة، ويرغبون به في الجنة، ويحذّرون من النار، ويزداد به طلبهم، ويَحْسُن به أحوالهم يتفق لهم ذلك اتفاقًا فى بعض الأحايين، لا أن يجعلوه دأبًا وديدنًا[1] حتى يتركوا لأجله الأوراد.

وقد نقل عن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، أنه قال فى كتاب «القضاء»: «الغِناء لهو مكروه يشبه الباطل».

وقال: من استكثر منه فهو سفيه تُردُّ شهادته.

---

(١) عادة وطبعًا.

واتفق أصحاب الشافعي على أن المرأة غيرَ المحرَم لا يجوز الاستماعُ إليها سواء أكانت حرّة أو مملوكةً أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب.

ونقل عن الشافعي، رضى الله تعالى عنه، أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب، ويقول: وضَعَه الزنادقة ليشْغَلوا به عن القرآن.

وقال: لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأىّ وجه كان.

وعند مالك، رضى الله تعالى عنه،

إذا اشترى جاريةَ فوجدها مُغنيةً فله أن يَرُدَّها بهذا العيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة وهكذا مذهبُ الإمام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه.

وسماع الغناء من الذنوب، وما أباحه إلاّ نفر قليل من الفقهاء؛ ومن أباحه من الفقهاء أيضًا لم ير إعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهوَ الْحَدِيثِ﴾[1]

قال عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه: هو الغناء والاستماعُ إليه.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾[2] أى: مغنّون.

رواه عِكرمة، عن عبد الله بن عباس[3]، رضى الله تعالى عنهما، وهو الغناء بلغة حِمْيرَ، يقول أهل اليمن: سَمِد فلان؛ إذا غنّى.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾[4] قال مجاهد: الغناء والمزامير.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان إبليس أول من ناح وأول من غنى».

وروى عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه: أن النبى ﷺ قال:

«إنما نهيت عن صوتين فاجرين: صوتٌ عند نعمة، وصوت عند مصيبة».

وقد رُوىَ عن عثمان، رضى الله تعالى عنه أنه قال:

«ما غَنيّت، ولا تمنّيت، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ.

وروى عن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب».

---

(١) آية رقم ٦ من سورة لقمان.

(٢) آية رقم ٦١ من سورة النجم.

(٣) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٤) آية رقم ٦٤ من سورة الإسراء.

وروى أن ابن عمر رضى الله تعالى عنـه : مرّ علـى قـوم وهـم مُحرمُـون، وفيـهم رجـل يتغنّى، فقال:

«ألاَ لا سمع الله لكم، ألاَ لا سمع الله لكم».

وروى أن إنسانًا سأل القاسم بن محمد عن الغناء، فقال: أنهاك عنه، وأكرهه لك

قال: أحرام هو؟

قال: انظر يا ابن أخى إذا ميّز الله الحق والباطل فى أيّهما تَجعل الغناء؟

وقال الفضيل بن عياض[١]: الغناء رُقْيَة الزنا.

وعن الضحاك: الغناء مفسدة للقلب مسخطة للربّ

وقال بعضهم: إياكم والغناء، فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمـر ويفعل ما يفعل السُكْر.

وهذا الذى ذكره هذا القـائل صحيـح، لأن الطبـع المـوزون يُفيـق بالغنـاء والأوزان[٢]، ويستحسنُ صاحبُ الطبـع عنـد السـماع مـا لم يكـن يستحسـنه مـن الفرقعـة بالأصابع، والتصفيق، والرقص، وتصدر منه أفعال تدلّ على سخافة العقل.

وروى عن الحسن أنه قال: «ليس الدفّ من سنّة المسلمين».

والذى نقل عن رسول لله ﷺ : «أنه سمع الشعر»، لا يدلّ على إباحة الغنـاء، فـإن الشعر كلام منظوم، وغيره كلام منثور، فحسَنُه حَسَن وقبيحُـه قبيـح، وإنمـا يصـير غنـاءً بالألحان.

وإن أنصف المنصف وتفكّـر فـى اجتمـاع أهـل الزمـان، وقعـود المغنّـى بدفّـه والمشبّب بشبّابته، وتصوّر فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئـة بحضـرة رسـول الله ﷺ، وهل استحضروا قوّلا وقعـدوا مجتمعـين لاسـتماعه لا شـك بأنـه ينكـر ذلـك مـن حـال[٣] رسول الله ﷺ وأصحابه؟! ولو كان فى ذلك فضيلة «تُطلب مـا أهملوهـا فمـن يشـير بأنـه

---

(١) هو: أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى، ولد بخراسان، ومات بمكة سنة: سبع وثمانين ومائة (٨٠٣م) كان إمامًا ربانيًا، شديد الخوف دائم الفكر، ومن كلامه: (جعل الله الشرَّ كله فى بيت وجعـل مفتاحـه حبّ الدنيا، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها). وقال: (يهابك الخلق على قـدر هيبتـك لله) [انظر فـى ترجمته الرسالة القشيرية جـ ١ صـ ١٧، وطبقات الصوفية، وتذكرة الحفاظ، والأعلام للزركلى].

(٢) الأوزان: الأشعار.

(٣) وفى نسخة (لا شك بأن تنكر ذلك من حال بخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم) والمعنى على قوله «من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم» أى أخذ من حاله واستدلالاً به حيث كان لا يفعل ذلك

فضيلة تُطلب، ويُجتمع لها، لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك.

وكثيرًا ما يغلط الناس في هذا، وكلما احتُجَّ عليهم بالسلف الماضين.. يحتجون بالمتأخرين!!

وكان السلف أقربَ إلى عهد رسول الله ﷺ، وهديُهم أشبه بهدى رسول الله ﷺ.

وكثير من الفقراء يتسمَّح عند قُرّاء[1] القرآن بأشياء من غير غلبة.

قال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجدّتي أسماء بنت أبى بكر الصدّيق، رضى الله عنهما.

كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟

قالت: كانوا كما وصفهم الله تعالى: تدمع أعينهم وتقشعرّ جلودهم.

قال: قلت: إن أناسًا اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خَرَّ أحدهم مغشيًا عليه!! قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروى أن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، مرّ برجل من أهل العراق يتساقط، قال: ما لهذا؟ قالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط، فقال ابن عمر رضى الله عنهما: إنّا لنخشى الله وما نسقط!! إن الشيطان يدخل فى جَوْف أحدهم، ما هكذا كان يَصنع أصحاب رسول الله ﷺ؟.

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء القرآن، فقال:

بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيْت باسطًا رجليه ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وليس هذا القول منهم إنكارًا على الإطلاق؟ إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين، ولكن للتصنُّع المتوهَّم فى حقّ الأكثرين، فقد يكون ذلك من البعض تصنُّعًا ورياءً، ويكون من البعض لقصور علمٍ، ومخامرة جهل ممزوج بهوى يُلِمُّ بأحدهم يسيرٌ من الوجد فيُتبعه بزياداتٍ يجهل أن ذلك يضرُّ بدينه، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس، ولكن النفس تسترق السمع استراقًا خفيًا يُخرج الوجدَ عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه. وهذا يباين الصدق.

---

(١) وفى نسخة عند قراءة القرآن.

نُقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه، فشقّ رجل منهم قميصه، فقيل لموسى عليه السلام:

قل لصاحب القميص لا يَشُقّ قميصه ويشرح قلبه.

وأمّا إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد فقد توجهت الفتنة، وتعيّن على أهل الديانات إنكار ذلك.

قال بقيةُ بن الوليد: كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل.

وقال عطاء: كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها.

وقال بعض التابعين: ما أنا أخوف على الشاب التائب من السَبُع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه.

وقال بعض التابعين أيضًا: اللوطيّةُ على ثلاثة أصناف:

صنف ينظرون؛ وصنف يصافحون؛ وصنف يعملون ذلك العمل.

فقد تعيّن على طائفة الصوفية اجتنابُ مثل هذه الجماعات، واتّقاء مواضع التهم؛ فإنّ أمر التصوف صدقٌ كله، وجدٌ كلّه، يقول بعضهم:

التصوف كلّه جدٌ فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

فهذه الآثار دلّت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه.

والبابُ الأول بما فيه دلّ على جوازه بشروطه وتنزيهه عن المكاره التى ذكرناها.

وقد فصّلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك.

وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون، ومع ذلك لا يُنكرون على من يسمع بنيّة حسنة ويراعى الأدبَ فيه.

الباب الرابع والعشرون

فى القول فى السماع ترفعًا واستغناءً

اعلم أن الوجد يُشعر بسابقةِ فَقْدٍ، فمن لمَ يفْقِد لم يجد؛ وإنما كان الفقدُ لمزاحمة وجودِ العبد بوجود صفاته وبقاياه؛ فلو تمحّض عبدٌ لتمحَّض حُرّا[١]، ومن تَمحَّضَ حُرّا أفْلت من شَرَك[٢] الوجد؛ فشَرك الوجد يصطاد البقايا، ووجودُ البقايا لتخلّف شيء من العطايا.

قال الحصريُّ، رحمه الله تعالى: «ما أدونَ[٣] حال من يحتاج إلى مُزْعجٍ يُزْعجه»؛ فالوجد بالسماع فى حقّ المُحقّ كالوجد بالسماع فى حقّ المبطل: من حيثُ النظرُ إلى انزعاجه، وتأثّر الباطن به، وظهورُ أثره على الظاهر، وتغييرُه للعبد من حال إلى حال.

وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل: إن المبطل يجدُ لوجود هوى النفس، والمحقُّ يجدُ، لوجود إرادة القلب؛ ولهذا قيل: السماعُ لا يُحدِث فى القلب شيئًا، إنما يُحّرك ما فى القلب، فمن يتعلّق[٤] باطنه بغير الله يُحركه السماع فَيجدُ بالهوى، ومن يتعلّق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب؛ فالمبطل محجوب بحجاب النفس، والمحقُّ محجوب بحجاب القلب وحجابُ النفس حجاب أرْضىّ ظلمانىّ، وحجابُ القلب حجاب سماوىّ نورانىٌّ، ومن لم يَفْقد بدوام التحقُّق بالشهود ولا يتعثّر بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد، ومن هذه المطالعة قال بعضهم: «أنا رَدْمٌ[٥] كلّه لا ينفذ فىّ قول».

ومرّ مِمْشاد الدينورىُّ[٦]، رحمه الله، بقوم فيهم قوّال، فلما رأوه أمسكوا فقال: ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فوالله لو جُمِعتْ ملاهى الدنيا فى أذنى ما شَغَل هَمّى ولا شفى بعضَ ما بى».

فالوجدُ صراخُ الروُح المبتلَى بالنفس تارةً فى حقّ المبطل، وبالقلب تارةً فى حقّ المحق.

فمثارُ الوجدِ الرّوحُ الروحانى فى حقّ المحقّ والمبطل.

---

(١) وفى نسخة: فلو تمحّض عبدًا تمحّض حرًّا.

(٢) الشَرَك (بفتح الراء) = الحبالة والفخ

(٣) من الدناءة

(٤) وفى نسخة: فمن مُتعلّق

(٥) الردم = الصلب من الجدار والتعثّر = السقوط والزلل.

(٦) من كبار رجال التصوف كان عالمًا عابدًا زاهدًا صحب ابن الجلاء، ومات سنة ٢٩٩ هـ، ومن أقواله: إنما ورث الحكماء الحكمة بالصمت والتفكر.

ويكون الوجدُ تارةً من فهم المعانى يظهر، وتارةً من مجرد النغمات والألحان، فما كان من قبيل المعانى تُشارك النفسُ الروحَ فى السماع فى حقّ المبطل ويُشارك القلبُ الروح فى حقِّ المحقّ.

وما كان من قبيل مجرّد النغمات تتجرّدُ الروحُ للسماع، ولكن فى حقّ المبطل تَسْتَرِقُ النفسُ السمعَ، وفى حق المحقّ يسترقُ القلبُ السمعَ.

ووجه استلذاذِ الروح النغمات: أنَّ العالَم الروحانيَّ مجمعُ الحسن والجمال، ووجودُ التناسُب فى الأكوان مستحسنٌ قولاً وفعلاً، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروحُ النغماتِ اللذيذةَ والألحانَ المتناسبةَ تأثّر به؛ لوجود الجنسية، ثم يتقيدّ ذلك بالشرع لمصالح عالَم الحكمة، ورعايةُ الحدودِ للعبد عَيْنُ المصلحة عاجلاً وآجلاً.

ووجهٌ آخر: إنما يستلذُّ الروحُ النغماتِ؛ لأنَّ النغماتِ بها نُطْقُ النفس مع الروح بالإيماء الخفيّ إشارةً ورمزًا بين المتعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشقٌ أصلى ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح، والميلُ والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقعٌ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1] وفى قوله تعالى: ﴿منها﴾ إشعارٌ بتلازمٍ وتلاصُقٍ موجبٍ للائتلاف والتعاشق، فالنغماتُ يستلذها الروحُ؛ لأنها مناغاة[2] بين المتعاشقين وكما أنّ فى عالم الحكمة كُونّت حوّاء من آدم، ففى عالم القُدرة كُونت النفس من الروح الروحانى، فهذا التألفُ من هذا الأصل؛ وذلك أن النفس روح حيوانى تجنست بالقرب من الروح الروحانى، وتجنُّسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحانيّ فصارت نفسًا.

فإذن تكوّن النفس من الروح الروحانيّ فى عالم القدرة كتكوّن حوّاء من آدم فى عالم الحكمة، فهذا التآلف والتعاشق ونسبةُ الأنوثة والذكورة من ها هنا ظهر، وبهذا الطريق استطابت الروحُ النغماتِ؛ لأنها مراسلات بين المتعاشقين ومكالمة بينهما، وقد قال القائل:

تَكَلَّم منا فى الوجوه عُيونُنا ... فنحن سكوتٌ والهوى يتكلَّم[3]

---

(١) آية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) المراد بالمناغاة هنا المكالمة والمناجاة وفى اللغة معناها ملاعبة الحبيب.

(٣) وقبل ذلك البيت: تُشير فادرى ما تقول بطرفها ... وأطرق طَرْفى عند ذاك فَتَعْلَمُ

فإذا استلذّ الروحُ النغمةَ وَجَدت النفسُ المعلولةُ بالهوى وتحرّكت بما فيها من الصفات الحدوث العارض، ووجَد القلبُ المعلول بالإرادة، وتحرّك بما فيه لوجد العارض في الروح:

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرضٌ لسماء قلبه، وقلبُ المحقِّ أرضٌ لسماء روحه، فالبالغُ مَبلغ الرجال، والمتجوهر المتجرّدُ من أعراض الأحوال خَلع فَعْلَيْ النفس والقلب بالوادى المقدّس، وفى مقعدِ صدق عند مليك مقتدر استقرّ وعرّس[1]، وأحرق بنور العِيان أجرام الألحان، ولم تُصغِ روحُهُ إلى مناغاة عاشقِه؛ لشغله بمطالعة آثار محبوبه، والهائم المشتاق لا يسعه كَشفَ ظُلامة[2] العشاق، ومَنْ هذا حالُه لا يُحرّكه السماع رأسًا، وإذا كانت الألحان لا تَلْحَق هذه الروح مع لطافة مناجاتِها، وخفيّ لُطفى مناغاتها كيف يَلْحقه السماعُ بطريق فهم المعانى وهو أكثف.

ومن يَضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمّل ثقل أعباء العبارات؟!

وأقرب من هذا عبارةً تَقْرُبُ إلى الأفهام: الوجدُ واردٌ يرد من الحق سبحانه وتعالى، ومن يُريد اللّهَ لا يقنع بما هو من عند الله، ومن صار فى محلّ القرب متحققًا به لا يُلهيه ولا يُحركه ما ورد من عند الله؛ فالوارد من عند الله مُشعرٌ ببُعْد، والقريبُ واجدٌ، فما يصنع بالوارد، والوجدُ نارٌ، والقلبُ الواجد رَبّه نُورٌ، والنور ألطف من النار، والكثيفُ غير مسيطر[3] على اللطيف فما دام الرجل البالغُ مستمرًا على جادة استقامته غَيرَ منحرفٍ عن وجه[4] معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجدُ بالسماع، فإن دخل عليه فتورٌ، أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبتلى المحسن[5] يتألف المحن من تفاريق صُور الابتلاء: أى يدخل عليه وجودٌ يدركه الواجد لعود عند الابتلاء إلى حجاب القلب، فمن هو مع الحق إذا ذَلّ وقع على القلب، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على نفس.

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع، فقيل له: أين حالك من هذا؟ فقال: دخل عليّ داخلٌ أوردنى هذا المورد.

---

(١) التعريس: النزول فى السفر آخر الليل.

(٢) الظلامة والظليمة والمظلمة: ما تطلبه عند الظالم، وهو اسم ما أخذ منك.

(٣) أى غير غالب.

(٤) وفى نسخة: عن وجهة معبوده.

(٥) وفى نسخة يتولد المحن.

قال بعض أصحاب سهل: صحبت سهلاً سنين ما رأيته تغيرّ عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن، فلما كان فى آخر عمره قرىء عنده ﴿ فالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾[١] فارتعد، وكاد يسقط، فسألته عن ذلك؟ قال: نعم لحقنى ضعف، وسمع مرّة ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾[٢] فاضطرب، فسأله ابن سالم، وكان صاحبهُ قال: قد ضَعُفْت؛ فقيل له: إن كان هذا من الضعف فما القوة؟ قال: القوة أن [الكامل][٣] لايرِد عليه واردٌ إلاّ يُبتلعه بقوّة حاله فلا يغيرّه الوارد.

ومن هذا من القبيل قولُ أبى بكر، رضى الله تعالى عنه: هكذا كنا حتى قست القلوب، لمّا رأى الباكى يبكى عند قراءة القرآن.

وقوله: «قست» أى: تصلبت، وأدمنت سماع القرآن وألِفَتْ أنواره فما استغربته حتى تتغيّر. والواجدُ[٤]؛ المستغربُ لهذا قال بعضهم: «حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة» إشارةٌ منه إلى استمرار حال الشهود، فهكذا فى السماع كقبل السماع.

وقد قال الجنيد: «لا يَضُرّ نُقْصان الوجد مع فضل العلم، وفضلُ العلم أتمٌ من فضل الوجد».

وبلغنا عن الشيخ حماد، رحمه الله، كان يقول: البكاء من بقية الوجود[٥]. وكلّ هذا يقرّب البعضَ من البعض فى المعنى لمن عَرف الإشارة فيه، وفَهِم، وهو عزيزُ الفهم، عزيز الوجود.

واعلم أن للباكين عند السماع مواجيدَ مختلفةً، فمنهم من يبكى خوفًا، وفيهم من يبكى شوقًا، ومنهم من يبكى فرحًا، كما قال القائل:

طَفح السرورُ عَلّى حتى أننى ... مِن فَرْط ما قد سَرّنى أبكانى

قال الشيخ أبو بكر الكتّانى[٦]، رحمه الله تعالى، : «سماع العوامِّ على متابعة الطبع، وسماعُ المريدين رغبةٌ ورهبةٌ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء، وسماع العارفين

---

(١) أية رقم ١٥ من سورة الحديد.

(٢) أية رقم ٢٦ من سورة الفرقان.

(٣) كلمة الكامل التى بين القوسين زائدة فى بعض النسخ.

(٤) وفى نسخة كالمستغرب.

(٥) وفى نسخة الوجد.

(٦) هو: محمد بن على بن جعفر وكنيته «أبو بكر» كان أحد الأئمة فى التصوف، بغدادى الأصل، صحب الجنيد والخراز والنورى وجاور بمكة إلى أن مات سنة ٣٢٢هـ. وحكى عن أبى محمد المرتعش أنه كان يقول (الكتانى سراج الحرم).

على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعِيان. ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام».

وقال أيضًا: الموارد[١] تَرِد فتصادف شكلاً أو موافقة، فأىُّ واردٍ شكلا مازجه؟ وأىّ وارد صادف موافقًا ساكنة». وهذه كلها مواجيد أهل السماع. وماذكرناه حالُ من ارتفع عن السماع.

وهذا الاختلاف ينزل على اختلاف أقسام البكاء التى ذكرناها، من: الخوف، والشوق، والفرح.

وأعلاها بكاءُ الفرح بمثابة قادم يقدُم على أهله بعد طول غربته فعند رؤية الأهل يبكى من قوّة الفرح وكثرته.

وفى البكاء رتبةٌ أخرى، أعزّ من هذه، يَعزُّ ذكرها ويكبرُ نَشْرها؛ لقصور الأفهام عن إدراكها، فربّما يُقَابَل ذكرها بالإنكار ويخفى[٢] بالاستكبار، ولكن يعرفها من وجدها قَدَمًا ووصولاً، أو فهمها نظرًا كثيرًا ومَثولاً[٣]. وهو بكاء الوجدان غيرُ بكاء الفرح، وحدوثُ ذلك فى بعض مواطن حقّ اليقين، ومن حقّ اليقين فى الدنيا إلمامات يسيرة، فيوجد البكاء فى بعض مواطنه؛ لوجود تغاير وتباين بين المحدَث والقديم، فيكون البكاء رشحًا هو وصف الحدثان لوهج[٤] سطوة عظمة الرحمن. ويقرب من ذلك مثلاً فى الشاهد قَطْرُ الغمام بتلاقى مختلف الأجرام، وهذا، وإن عَزّ، مُشعرٌ تقدح ببقيةٍ العبد فى صِرفِ الغناء، نعم، قد يتحقق العبد فى الغناء متجرّدًا عن الآثار منغمسًا فى الأنوار، ثم يُرقّى منه إلى مقام البقاء، ويُرَدُّ، إليه الوجودُ مُطَهرًا، فتعود إليه أقسامُ البكاء خوفًا وشوقًا وفرحًا وَوجْدانًا بمشاكلة صورها ومباينة حقيقتها بفرق لطيف يدركه أربابه، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضًا قِسمٌ، وذلك القسم مقدورٌ له، مقهورٌ معه، يأخذه إذا أراد ويردّه إذا أراد.

يكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت، واستنارت، وباينت طبيعتها، واكتسبت طمأنينتها، وأكسبها الروحُ معنىً منه؛ فيكون سماعُه نوعَ تمتع للنفس كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات، لا أن يأخذ السماعُ منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثرٌ، فتكون النفس فى ذلك بمثابة الطفل فى حجر الوالد يُفرِّحه فى بعض أوقاته ببعض مآربه.

---

(١) وفى نسخة: الوارد يرد فيصادق.

(٢) وفى نسخة: ويُجفى.

(٣) مَثَل بين يديه مثولاً أى انتصف قائمًا.

(٤) الوهج: الحرارة.

ومن هذا القبيل ما نقل: أن أبا محمد الراشنى كان يُشْغل أصحابه بالسماع وينعزل عنهم ناحيةً يصلّى فيها؛ فقد تَطرْق النغماتُ مثلَ هذا المصلى فتتدلَى إليها النفس متنعّمة بذلك؛ فيزداد موارد الروح من الأُنس صفاءً عند ذلك لبعد النفس عن الروح فى تمتعها؛ فإنها مع طمأنينتها بوصفٍ من الأجنبية بوضْعِها وجلبَّتها، وفى بُعدها توفير أقسام الروح من الفتوح، ويكون طُروقُ الألحان سَمْتَه فى الصلاة غيرَ حائل بينه وبين حقيقة المناجاة، وفهمِ تنزيل الكلمات وتصل الأقسام إلى محالّها غيرً مُزَاحِمةٍ، ولا مُزاحَمة، وذلك كلّه لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن المنّان؛ ولهذا قيل: السماع لقوم كالدواء، ولقوم كالغذاء، ولقوم كالمروحة.

ومن عَوْد أقسام البكاء ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأُبىّ: اقرأ، فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: أحب أن أسمعه من غيرى فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمة بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1] فإذا عيناه تَهْمُلان»[2].

وروى أن رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه، ثم وضع شفتيه عليه طويلاً يبكى، وقال: يا عمر هاهنا تُسْكَب العبرات[3].

والمتمكّن يعود إليه أقسامُ البكاء، وفى ذلك فضيلةٌ سألها النبى ﷺ فقال: «اللهم ارزقنى عينين هَطّالتين».

ويكون البكاء فى الله، ويكون لله، ويكون بالله — وهو الأتَمُّ — لعوده إليه بوجودٍ مستأنف موهوبٍ له من الكريم المنّان فى مقام البقاء.

---

(١) آية رقم ٤١ من سورة النساء.

(٢) الهملان: فيض الدمع والحديث رواه البخارى من حديث عبد الله بن مسعود وكذلك الترمذى.

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح وأقره الذهبى.

الباب الخامس والعشرون

فى القول فى السّماع تأدبًا واعتناءً[(١)]

ويتضمّن هذا الباب آداب السماع، وحكم التخريق، وإشاراتِ المشايخ فى ذلك، وما فى ذلك من المأثور والمحذور.

مَبْنَى التصوفِ على الصدق في سائر الأحوال، وهـو جِدٌّ كلُّـه، لا ينبغـى للصـادق أن يتعمد الحضور في مجمع يكون فيه سماعٌ إلاّ بعد أن يُخْلصَ النية لله تعالى، ويتوقّـع بـه مزيدًا في إرادته وطلبه، ويحذر من ميل النفس لشـيءٍ مـن هواهـا، ثـمُ يقـدِّم الاستخارة للحضور ويسأل الله تعالى إذا عزم البركةَ فيه. وإذا حضر يَلْـزم الصدقَ، والوقـارَ بسكون الأطراف، قال أبو بكر الكتّانى، رحمه الله: «المستمعُ يجب أن يكون فـى السماع غـيرُ مستروح إليه يُهيّج منه السماعُ وجدًا أو شوقا أو غلبةً، أو واردًا[(٢)]. فالوارد عليه يغنيه عن كلّ حركة وسكون، فيتّقى الصادُق استدعاء الوجد ويجتنـب الحركـةَ فيـه مـهما أمكـن، لاسيما بحضرة الشيوخ.

حكى أن شاباً كان يصحب الجنيد، رحمه الله تعالى، وكلّما سمـع شـيئًا زعـق وتغـيرّ، فقال له يومًا: إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبنى، فكـان بعـد ذلـك يضبـط نفسـه، وربّما كان من كلّ شعرةٍ منه تقطر قطرة عَرق، فلما كان يومًا من الأيام زعق زعقـة فخـرج روحه.

فليس من الصدق إظهارُ الوجد من غير وجد نازل، أو ادّعاء الحال من غـير حـاصل، وذلك عن النفاق.

وقيل: كان النصراباذى[(٣)]، رحمه الله تعالى، كثير الولع بالسماع، فعوتبَ فـى ذلـك، فقال: نعم، هو خيرٌ من أن نقعد ونغتاب، فقال له أبـو عمـرو بـن نجيـد[(٤)]، وغـيره مـن

---

(١) اهتمامًا.

(٢) وفى نسخة (.. وجدا أو شوقًا أو غلبةَ الواردِ عليه يغنيه عن..) إلخ.

(٣) كان شيخ خراسان فى وقته، جـاور بمكـة سنة: ست وثلاثين وثلاثمائة. ومـات بـها سنة: سبع وستين وثلاثمائة، وكان عالمًا بالحديث كثير الرواية. ومن كلامـه: «أصلا التصـوّف: ملازمـة الكتـاب والسنّة وتـرك الأهـواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتـأويلات» ومـن كلامه أيضًا: (الأشياء أدلّة منه ولا دليل عليه سواه).

[انظر فى ترجمته الجزء الأول من الرسالة القشيرية صـ ١٨٠ نشر: دار المعارف – طبعة جديدة].

(٤) هو: أبو عمرو إسماعيل بن نجيد. توفيّ بمكة سنة: ست وستين وثلاثمائـة مـن الهجـرة، صحـب أبـا عثمـان الحيرى ولقى الجنيد، وأخذ الحديث عن أحمد بن حنبل . وأسند الحديث ورواه: وكـان ثقـة، وسـئل عـن التوكـل=

إخوانه: هيهات يا أبا القاسم!! زَلَّةٌ فى السماع شرٌ من كذا.. وكذا سنةً نغتاب النـاس، وذلك أن زلّة السماع إشارةٌ إلى الله تعالى، وترويج للحال بصريح المحال، وفى ذلك ذنوبٌ متعددة، منها: أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئًا، ومـا وهـب لـه!! والكـذب على الله تعالى من أقبح الزلاّت.

ومنها: أن يَغُرّ بعض الحاضرين فيحسنَ بـه الظـنَّ، والاغـترار[1] خيانـة، وقـال عليـه الصلاة والصلام: «من غشنا فليس منا»[2].

ومنها: أنه إذا كان مبطلاً ويُرى بعين الصلاح، فسوف يظهر منه بعد ذلـك مـا يفسـد عقيدةَ المعتقد فيه فتنفسد عقيدتُه فى غيره ممن يظنّ به الخيرَ من أمثاله. فيكـون متسـببًا إلى فساد العقيدة فى أهل الصلاح، ويدخل بذلك ضررٌ على الرجل الحسن الظنّ من فساد عقيدته؛ فينقطع عنه مدد الصالحين، ويتشعّب مـن هـذا آفـاتٌ كثـيرةٌ يعـثر عليـها مـن يبحث عنها.

ومنها: أنه يُحوج الحاضرين إلى موافقته فى قيامه وقعوده، فيكون متكلِّفًا مكلَّفا للناس بباطله، ويكون فى الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مُبْطِـلٌ ويحمـل علـى نفسـه الموافقـةَ للجمع مداريًا ويكثر شرح الذنوب فى ذلك. فليتـق الله ربَّـه، ولا يتحـرك إلاّ إذا صـارت حركته كحركة المرتعش الذى لا يجد سبيلاً إلى الإمساك، وكالعاطس الذى لا يقدر أن يردّ العطسة، وتكون حركته بمثابة النَّفَس الذى يتنفس تدعـوه إلى التنفّس داعيةَ الطبع قهرًا.

قال السرىّ: شرط الواجد فى زعقته أن يبلُغ إلى حد لو ضُرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع».

وقد يقع هذا البعض الواجدّين نادرًا، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغَيْبة، ولكن زعقته تَخْرج كالتنفّس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار.

فهذا الضبط: من رعاية الحركات، وردّ الزعقات وهو فى تمزيق الثياب آكدُ؛ فإن ذلك يكون إتلافَ المال وإنفاق المُحال، وهكـذا رَمْـيُ الخرقـة إلى الحـادى لا ينبغـى أن يُفعـل إلاّ إذا حضرته نيّةٌ يجتنب فيها التكلّف والمراءاة.

=فقال: أدناه حسنٌ الظن بالله تعالى والتوكلّ الذى يرضى بحكم الله تعالى فيه) (يرجع فـى ترجمتـه إلى صـ ١٧١ من الجزء الأول من الرسالة القشيرية – نشر دار المعارف).

(١) وفى نسخة: والإغرار.

(٢) الترمذى عن أبى هريرة بسند صحيح.

وإذا حَسُنت النيّةُ فلا بأس بإلقاء الخرقة إلى الحادى؛ فقد روى عن كعب بن زهير[١]، أنه دخل على رسول الله ﷺ المسجد، وأنشده أبياته التى أوّلها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول . . . .

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إن الرسول لنورٌ يستضاء به مهنّد من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله ﷺ: مَن أنت؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، أنا كعب بن زهير: فرمى رسول الله ﷺ بردةً كانت عليه، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير: بعنا بُردةَ رسول الله ﷺ بعشرة آلاف. فوجّه إليه: ما كنت لأُوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا[٢]، فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفًا وأخذ البردة، وهى البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليومَ أعاد الله بركتها على أيامه الزاهرة.

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها، ورعايتها حُسنُ الأدب فى الصحبة والمعاشرة، وكثيرٌ من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك، ولكن كلّ شىء استحسنوه وتواطئوا عليه ولا ينكره الشرع لاوجه للإنكار فيه؛ فمن ذلك: أن أحدهم إذا تحرك فى السماع فوقعت منه خِرقة، أو نازلة وَجدٌ فرمى عمامته إلى الحادى، فالمستحسَنُ عندهم موافقةُ الحاضرين له فى كشف الرأس إذا كان ذلك من مُتقدّم وشيخ.

وإن كان ذلك من الشبان فى حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان فى ذلك.

وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فى ترك الموافقة للشبان، فإذا سكتوا عن السماع يُردّ الواجد إلى خرقته ويوافقه الحاضرون برفع العمائم ثم رّدها على الرءوس فى الحال للموافقة.

والخرقَة إذا رُميت إلى الحادى هى للحادى إذا قُصد إعطاؤه إيّاها، وإن لم يقصد إعطاءَها للحادى فقد قال بعضهم: هى للحادِى؛ لأن المحرّك هو ومنه صدر الموجب لرمى الخرقة.

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبى سلمى المازنى: شاعر من أهل نجد اشتهر فى الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبى صلى الله عليه وسلم فهدر الرسول عليه السلام دمه فجاءه كعب مستسلمًا مستأمنًا، وأنشده لاميته المشهورة التى مطلعها (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) فعفا عنه النبى صلى اله عليه وسلم وخلع عليه بردته، وهو من أعرق الناس شعرًا؛ فأبوه زهير بن أبى سلمى وأخوه بجير، وابناء عقبة والقوام كلهم شعراء وتوفى سنة: ٣٦ هـ / ٦٤٥م. انظر ترجمته فى صـ ٨١١ جـ ٣ من كتاب الأعلام للزركلى.

(٢) رواه ابن سحاق بسنده وفيه القصيدة بطولها بدون ذكر البردة.

وقال بعضهم: هى للجمع، والحادى واحد منهم؛ لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع فإن بركة الجمع فى إحداث الوجد، وإحداث لوجد لا تتقاصر عن قول القائل، فيكون الحادى واحدًا منهم فى ذلك.

روى أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «من وقف بمكان كذا فله كذا، ومن قتل كذا فله كذا، ومن أسر فله كذا» فتسارع الشبان، وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبانُ أن يُجعل ذلك لهم، فقال الشيوخ، كنا لكم ظهرًا وردءًا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾[1] فقسم النبى ﷺ بينهم بالسوِّية.

وقيل: إذا كان القوّال من القوم يجعل كواحد منهم، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمةٌ يُؤثر به، وما كان من خِرق الفقراء يقسّم بينهم.

وقيل: إن كان القوّال أجيرًا فليس له منها شيء، وإذا كان متبرّعًا يؤثر بذلك.

وكلّ هذا إذا لم يكن هناك شيخٌ يَحكم، فأمّا إذا كان هناك شيخ يهاب ويُمتثل أمره فالشيخ يحكم فى ذلك بما يرى، فقد تختلف الأحوال فى ذلك، وللشيخ اجتهادٌ، فيفعل ما يرى، فلا اعتراض لأحدٍ عليه.

وإن فَداها بعضُ المحبيّن أو بعض الحاضرين فرضى القوّالُ والقومُ بما رَضُوا به وعاد كلّ واحدٍ منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك، وإذا أصرّ واحدٌ على الإيثار بما خرج منه لنيّةٍ له فى ذلك يُؤْثَر بخرقته الحادى.

وأمّا تمزيق الخرقة المجروحة التى مزّقها واجدٌ صادق، عن غلبةٍ، سَلَبت اختيارَه كغلبة النَفسَ، فمن يتعمدّ إمساكه فنيتُّهُم فى تفرقتها وتمزيقها التبرّكُ بالخرقة؛ لأن الوجدَ أثرٌ من آثار فضل الحق، وتمزيُق الخرقة أثر من آثار الوجد، فصارت الخرقة متأثرةً بأثر ربّانى من حقّها أن تُفدَى بالنفوس وتُترك على الرءوس إكرامًا وإعزازًا.

تُضَوِّعُ أرواحُ[2] نَجدٍ من ثيابهم يومَ القُدوم لقُرب العهدِ بالدار

كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث، ويتبّرك به ويقول: (حديث عهد بِربه)؛ فالخرقة المزّقة حديثة العهد، فحكم المجروحة أن تفرّق على الحاضرين، وحكم ما يتبعها من الخِرق الصحاح أن يَحكم فيها الشيخ إن خَصّص بشىء منها بعض الفقراء فله ذلك، وإن

(١) الأنفال الآية: ١

(٢) ضاع المسك وتضوّع، أى: تحرك فانتشرت رائحته.

خَرَّقها خِرقًا فله ذلك، ولا يقال هذا تفريط وسرف؛ فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها في موضعها عن الحاجات كالكبيرة.

وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، أنه قال: أهْدِي لرسول الله ﷺ حُلّةُ حرير، فأرسل بها إليّ، فخرجت فيها، فقال لي: «ما كنتُ لأكْرَه لنفسي شيئًا أرضاه لك، فشققها بين النساء خُمُرًا». وفي رواية: أتيتُه فقلت: ما أصنع بها، أألبسها؟ قال: لا، ولكن اجعلها خُمرًا بين الفواطم، أراد، فاطمةَ بنت أسد، وفاطمةَ بنت رسول الله ﷺ، وفاطمةَ بنت حمزة. وفي هذه الرواية أن الهدية كانت حُلّة مكفُوفَةً بحرير، وهذا وجهٌ في السنّة لتمزيق الثوب وجعله خِرقًا.

حُكي أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا في دعوةٍ، فوقعت الخرقة، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبا محمد الجويني وشيخُ الصوفية الشيخ أبا القاسم القشيري[1]؛ فقُسمت الخرقة على عادتهم، فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرًّا: هذا سرف وإضاعة للمال!! فسمع أبو القاسم القشيري. ولم يقل شيئًا حتى فرغ من القسمة، ثم استدعى الخادم وقال له: انظر في الجمع من معه سجادةُ خِرَق اثنتي بها، فجاءه بسجادة، ثم أحضر رجلاً من أهل الخبرة، فقال: هذه السجادة بكَم تُشترى في المزاد؟ قال: بدينار، قال: ولو كانت قطعة واحدة كم تساوي؟ قال: نصف دينار ثم التفت إلى الشيخ أبي محمد وقال: هذا لا يُسمى إضاعةَ المال.

والخرقة المزّقة تقسَم على جميع الحاضرين، مَن كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظنّ بالقوم معتقدًا التبرّك بالخرقة.

روى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا «نهاوند» وأمدّهم أهل الكوفة، وعلى أهل الكوفة «عَمار بن ياسر[2]» فظهروا، وأراد أهل البصرة أن لا يُقْسموا لأهل الكوفة من

---

(١) هو: الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي ولد سنة ٣٧٩هـ ومات سنة ٤٦٥هـ. وهو عربي من قبيلة (قشير بن كعب) وهو صاحب الرسالة القشيرية التي ألفها سنة: ٤٣٧هـ. انظر ترجمته منفصلة في صدر كتاب الرسالة القشيرية الجزء الأول تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف: نشر دار المعارف – القاهرة.

(٢) هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر الكناني، صحابّي من الولاة الشجعان ذوي الرأي وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به، هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبيعة الرضوان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقبة بـ «الطيّب المطيّب»، وهو أول من بني مسجدًا في الإسلام (بناه في المدينة وسماه قباء) وولاه عمر الكوفة، فأقام زمنًا وعزله عنها، وشهد «الجمل» و «صفين» مع عليّ. له في الصحيحين ٦٢ حديثًا (يرجع في ترجمته إلى صـ ٧٩٨ جـ٢ من كتاب الأعلام للزركلي).

الغنيمة شيئًا، فقال رجل من بنى تميم لقمار: أيها الأجدع تريد أن تشاركنا فى غنائمنا!! فكتب إلى عمر بذلك. فكتب عمر، رضى الله عنه: «إن الغنيمة لمن شهد الواقعة». وذهب بعضهم إلى أن المجروح من الخرق يقسّم على الجمع، وما كان من ذلك صحيحًا يُعطى للقوّال، واستدل بما روى عن أبى قتادة، قال: لما وضعت الحرب أوزارها[1] يوم حنين وفرغنا من القوم قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وهذا له وجه فى الخرقة الصحيحة.

فأمّا المجروحة فحكمها إسهام الحاضرين والقسمةُ لهم.

ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرًا قُسم له رضخٌ روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: لمّا قدمنا على رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر بثلاث، فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتّح غيرنا.

ويَكرْه للقوم حضور غير الجنس عندهم فى السماع كمتزهّد لا ذوق له من ذلك فيُنكر ما لا يُنكر، أو صاحب دنيا يُحوج إلى المداراة والتكلّف أو متكلف للوجد يشوّش الوقت على الحاضرين بتواجده.

أخبرنا أبو زرعة طاهر، عن والده أبى الفضل الحافظ المقدسى، قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن الملك المظفرى بسرخس قال: أخبرنا أبو على الفضل بن منصور بن نصر الكاغدى السمرقندى، إجازة، قال: حدثنا الهيثم بن كليب، قالك أخبرنا أبو بكر عمّار بن إسحق قال: حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله، إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام، ففرح رسول الله ﷺ، فقال: «هل فيكم من ينشدنا؟» فقال بدوىٌّ: نعم يا رسول الله، فقال: هات، فأنشد الأعرابى:

قد لسعت حَيَّةُ الهوى كبدى فلا طبيبٌ لها ولا راقى
إلاّ الحبيبُ الذى شُغفتُ به فعنده رُقيتى وترياقى.

فتواجد رسول الله ﷺ، وتواجد الأصحابُ معه حتى سقط رادؤه عن منكبه، فلما فرغوا أوى كلّ واحد منهم إلى مكانه قال معاوية بن أبى سفيان: ما أحسنَ لقبكم

(١) الأوزار: السلاح، والوزر ما يحمله الإنسان فيسمى السلاح أوزارًا لذلك، ولأنها مثقل على لابسها ولفظ الحديث متفق عليه بلفظ (من قتل كافرا فلى سلبه).

يا رسول الله. فقال: ‹‹مَهْ يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب›› ثم قُسِّم رداءُ رسول الله ﷺ على حاضرهم بأربعمائة قطعة.

فهذا الحديث أوردنا مسندًا كما سمعناه ووجدناه، وقد تكلّم فى صحته أصحابُ الحديث.

وما وجدنا شيئًا نقل عن رسول الله ﷺ يشاكل وَجْد أهل الزمان وسماعَهم واجتماعهم وهيئتهم إلاّ هذا، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهلِ الزمان فى سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها إن صحَّ، والله أعلم.

ويخالج سِّرى أنه غير صحيح، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبى ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا فى هذا الحديث. ويأبى القلبُ قبولَه. والله أعلم بذلك.

الباب السادس والعشرون

فى خاصيَّة الأربعينيّة التى يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوبُ القوم من «الأربَعين» شيئًا مخصوصًا لا يطلبونه فى غيرها، ولكن لمّا طرقتهم[١] مخالفاتُ حُكِم الأوقات أحَبُّوا تقييدَ الوقت بالأربَعين؛ رجاءً أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم، فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الأربعين. على أن «الأربعين»خُصّت بالذكر فى قول رسول الله ﷺ: «مَن أخْلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه»[٢] وقد خصّ الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتُّل، قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِين لَيْلَةً﴾[٣] وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل — وهم بمصر — أن الله تعالى إذا أهلك عَدوَّهم واستنقذهم من أيديهم بكتابٍ من عند الله تعالى فيه تبيانُ الحلال والحرام والحدود والأحكام، فلما فعل الله تعالى ذلك وأهلك فرعون سأل موسى ربَّه الكتابَ، فأمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يومًا — وهو ذو العقدة — فلما تمّت ثلاثون ليلة أنكر خُلُوفَ فَمِه، فَتسوَّك بعود خَرْنُوبٍ، فقالت له الملائكة: كُنَّا نَشَمُّ من فيك رائحةَ المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة، وقال له: «أما علمت أن خُلوف فم الصائم أطيبُ عندى من ريح المسك».

ولم يكن صوم موسى عليه السلام تركَ الطعام بالنهار وأكلةَ بالليل، بل طوى الأربعين من غير أكل، فَدلّ على أن خُلوَّ المعدة من الطعام أصلٌ كبيرٌ فى الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعدًا به لمكالمة الله تعالى.

والعلوم اللدنيَّةُ فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضربٌ من المكالمة، ومن انقطع إلى الله أربعين يومًا مخلِصًا متعاهدًا نفسَه بخفَّة المعدة يفتح الله عليه العلوم اللدنية، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك.

غير أنّ تعيين الأربعين من المدة فى قول رسول الله ﷺ، وفى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك، فالتحديد والتقييد بالأربعين من المدة لحكمة فيه.

---

(١) الطروق: الإتيان ليلاً.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى أيوب بسند ضعيف.

(٣) آية رقم ١٤٢ من سورة الأعراف.

ولا يَطَّلع أحد على حقيقة ذلك إلاّ الأنبياء إذا عرّفهم الحقُّ ذلك، أو من يَخُصُّه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء ويلوح فى سرّ ذلك معنى، والله أعلم:

وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قَدرٌ التخمير بهذا القدر من العدد، كما ورد «خمرّ طينةَ آدم بيده أربعين صباحًا» فكأنَّ آدم لما كان مستصَلحًا لعمارة الدارين، وأراد الله منه عمارةَ الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كوّنه من التراب تركيبًا يناسب عَالَم الحكمة والشهادة، وهى هذه الدار الدنيا.

وما كانت عمارة الدنيا تتأتى منه وهو غيرُ مخلوق من أجزاء أرضيةٍ سفلية بحسب قانون الحكمة.

فمن التراب كَوَّنه، وأربعين صباحًا خمر طينته؛ ليُبعِدَ بالتخمير أربعين صباحًا بأربعين حجابًا من الحضرة الإلهية كلُ حجابٍ هو معنىً مودعٌ فيه يَصلُح به لعمارة الدنيا، ويتعوَّق به[1] عن الحضرة الإلهية ومواطنِ القرب؛ إذ لو لم يتعوّق بهذا الحجاب ما عُمرت[2] الدنيا.

فَتأَصَّلَ البعدُ عن مقام الغرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافةِ الله تعالى فى الأرض.فبالتبتُّل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه، والانتزاع عن التوجّه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودعٌ فيه. وعلى قدر زوال كلّ حجاب ينجذب ويتخذ منزلاً فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها.

فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبّت إليه العلوم والمعارف انصبابًا.

ثم العلومُ والمعارف هى أعيانٌ انقلبت أنوارًا باتّصال إكسير نُور العظمة الإلهية بها، فانقلبت أعيانُ حديث النفس علومًا إلهامية، وتصدّت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة، فلولا وجودُ النفس وحديثُها ما ظهرت العلوم الإلهامية؛ لأن حديث النفس وعاءٌ وجوديٌ لقبول الأنوار، وما للقلب فى ذاته لقبول العلم شيءٌ.

وقول رسول الله ﷺ (ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) إشارةٌ إلى القلب، باعتبار أنّ للقلب وجهًا إلى النفس باعتبار توجُهه إلى عالم الشهادة، وله وجهٌ إلى الروح باعتبار توجهه إلى-عالم الغيب، فيستمد القلبُ العلومَ المكنونة فى النفس ويخرجها إلى اللسان الذى هو ترجماته، فظهورُ العلوم من القلب لأنها متأصّلة فيه، فللقلب والروح مراتب، من قُرب الملِهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإفهام.

---

(١) نعوق: تأخر وانصرف.

(٢) وفى نسخة: ما انعمرت.

فالعبدُ بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معدن نفسه جواهرَ العلوم.

وقد ورد في الخبر: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[١].

ففي كلّ يوم بإخلاصه في العمل لله يكشفُ طبقةً من الأطباق الترابية الجبلّية المبعدةِ عن الله تعالى إلى أن ينكشف باستكمال الأربعين أربعون طبقةً، في كلّ يوم طبقة من أطباق حجابه.

وآيةُ صحة ذلك للعبد وعلامةِ تأثُره بالأربعين ووفائِه بشروط الإخلاص أن يزهَد بعد الأربعين في الدنيا، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود؛ لأن الزهد الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة، ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تَبيَّن أنه قد أخلّ بالشروط ولم يخلص لله تعالى، ومن لم يخلص لله ما عبد الله؛ لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّين﴾[٢]. أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل إجازة قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف إجازة قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: أخبرنا أبو منصور الضبعي قال: حدثنا محمد بن أشرس قال: حدثنا حفص بن عبد الله قال: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عاصم، عن زَر عن صفوان بن عَسَّال رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة يجيء الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الربّ عزّ وجل، فيقول الربّ للإخلاص. انطلق أنت وأهلُك إلى الجنة، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار».

وبهذا الإسناد قال السلمي: سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت إبراهيم الشقيقي وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف، وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن على الهيجمي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال:

---

(١) متفق علية من حديث طويل في آخره قال: فعن معادن العرب تسألوني إلخ..

(٢) آية رقم ٥ من سورة البينة.

سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ سألت النبى ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت ربّ العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: «هو سرّ من سرّى أودعته قلب من أحببت من عبادى».

فمن الناس من يدخل الخلوة على مُراغَمة النفس؛ إذا لنفس بطبعها كارهة للخلوة، ميّالة إلى مخالطة الخلق؛ فإذا أزعجها عن مقارّ عادتها وحبسها على طاعة الله تعالى يُعْقِبُ كلّ مرارة تدخل عليها حلاوةً فى القلب.

قال ذو النون، رحمه الله تعالى: «لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من الخلوة، ومن أحبّ الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق».

وقال الشبلى[1]، رحمه الله تعالى، لرجل استوصاه: «الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت».

وقال يحيى بن معاذ[2]، رحمه الله تعالى: الوحدة مُنْيَةُ الصدّيقين.

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعيةٌ الخلوة، وتنجذب النفس إلى ذلك، وهذا أتمّ وأكملُ وأدلّ على كمال الاستعداد.

وقد روى من حال رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاءً، قال: أخبرنا الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن أحمد المقرى، قال: أخبرنا جعفر بن الحكاك الملكّى قال: أخبرنا أبو عبد الله الصفانى قال: أخبرنا أبو عبد الله البغوى قال: أخبرنا إسحق الديرى، قال: أخبرنا عبد الرازق عن معمر، قال: أخبرنا الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: «أوّلُ ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى: الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يأتى حراءً فيتحنث فيه الليالى ذواتَ العدد، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه[3] الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ؟ فأخذنى فغطّنى، حتى بلغ منىّ الجهد. ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية

---

(١) هو: أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى. بغدادى المولد والنشأة، توفى سنة: ٣٣٤هـ، وتفقّه على مذهب الإمام مالك وصحب الجنيد وولد سنة ٢٤٧هـ وكان إمام زمانه علمًا وورعًا ومعرفة.

(٢) هو: أبو زكريا يحيى بن معاذ الرزاى. نسيج وحده فى وقته مات بنيسابور سنة ٢٨٥هـ وعاش بمدينة بلخ. ومن أقواله: الفوت أشد من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق.

(٣) وروى حتى فاجأه ولفظ الحديث جاءه.

حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾... حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال: زمّلونى.. زمّلونى.. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: مالى؟ — وأخبرها الخبر — فقال: قد خشيت على عقلى، فقالت: كلا، أبشر، فوالله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتُقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة، رضى الله عنها، حتى أتت به «ورقة بن نوفل» وكان امرءًا تنصّر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[١]، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِى — فقالت له خديجة: يا عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره الخبر رسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذى أُنزل على موسى، ياليتنى فيها جذعًا[٢]، ليتنى أكون حيًا إذا يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أَوَ مُخرجىّ هم؟ قال ورقة: نعم، إنه لم يأت أحد قط بما جئت إلاّ عودى وأوذى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[٣] وحدّث جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يحدّث عن فترة الوحى فقال فى حديثه: «فبينما أنا أمشى سمعت صوتًا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بـ«حراء» جالس على كرسىّ بين السماء والأرض، فَجُئثْتُ[٤] منه رعبا، فرجعت فقلت: زملونى، زملونى، فدثرونى» فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٥].

وقد نقل أن رسول الله ﷺ ذهب مرارًا كى يُردى نفسه من شواهد الجبال، فكلّما وافى ذروة جبل كى يلقى نفسه منه تبّدى له جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، إنّك لرسول الله حقًا. فيسكن لذلك جأشه، وإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك[٦].

---

(١) وفى نسخة. وكان يكتب الكتاب العربى، وكتب بالعربية من الإنجيل.. إلخ) ونص الحديث كما فى الأصل.

(٢) جذعا: شابا قويا مستويا.

(٣) رواه البخارى وغيره.

(٤) اهتززت واضطربت.

(٥) البخارى بنحوه ورواه غيره.

(٦) وحول الرأى الذى يزعم أن محمدً صلى الله عليه وسلم حاول الانتحار حينما انقطع الوحى عنه فترة، يقول الدكتور محمود بن الشريف صاحب كتاب الرسول فى القرآن صـ ١١ «مرت فترة زمنية بعد نزول تلك الأوامر الإلهية=

فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله ﷺ هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين؛ فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضًا من الله إيّاهم عمّا تركوا لأجله.

ثم خلوة القوم مستمرة.

وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادئ بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح[1] مواهبه السنيّة.

=السالفة كانت بمثابة إعداد وتهيئة لأجواء تفرخ فيها الدعوة وتنتج، وتنتقل من طور إلى طور.. من طور السرية إلى طور الجهر والعلانية.. فى تلك الفترة الإعدادية لم ينزل الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَالضحى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبك وَما قلى﴾ حقًا إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان ينتظر مدد الإله وعون الرب ووحى السماء ليأخذ بيده وبيد أصحابه فى تلك الفترة الأولى من عمر الدعوة، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقلق بهذه الصورة التى صوره بها بعض المؤرخين من المغالين وممن نهج نهجهم.. لم يقلق بتلك الكيفية التى زعموا بها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عليها من الأنزعاج والسير على غير هدى فى شعاب مكة حتى لقد تغالى البعض فزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم شعر بأنه لم يعد معضدًا بإلهام الله!!!

وأنه من شدة شوقه إلى الوحى فكرّ فى أن يقذف بنفسه من ارتفاع شاهق وأن ينتحر!! وما كان للداعية الذى صنعه الله أن يلجأ ما يخالف تعاليم الله وإلى ما يغضب الله من إزهاق روح أو وأد نفس. على أن الذى يتتبع مسار آيات سورة الضحى يرى بعد تأمل وإمعان أنها من قبيل الإرشادات الإلهية والإشارات والبشارات، ومن قبيل التثبيت والتطمين للرسول صلى الله عليه وسلم فالرسول عليه السلام لم يلح أن ينزل الوحى عليه، فما الوحى إلا من عند الله وبإرادة الله».

(١) سنوح: ظهور

الباب السابع والعشرون.

فى ذكر فتوح الأربعينية

وقد غَلِطَ فى طريق الخلوة الأربعينية قومٌ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، ودخل عليهم الشيطانُ، وفتح عليهم بابًا من الغرور، ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم: من تأدية حقّ الخلوة بالإخلاص وسمعوا أن المشايخ و الصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع، وكوشفوا بغرائب وعجائب، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك، وهذا عين الاعتلال، ومحض الضلال.

وإنما القوم اختاروا الخلوةَ والوحدةَ لسلامة الدين، وتفقدُ[١] أحوال النفس، وإخلاص العمل لله تعالى:

نقل عن أبى عمرو الأنماطيّ أنه قال: لن يصفو للعاقل فَهْمُ الأَخِير إلاّ بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول. والمواطن التى ينبغى أن يَعرف منها أيزداد هو أم ينتقص؟ فعليه أن يطلب مواضع الخلوة؛ لكى لا يعارضه شاغل، فيفسد عليه ما يريد.

أنبأنا طاهر بن أبى الفضل، إجازة، عن أبى بكر بن خلف، إجازة، قال: أنبأنا أبو عبد الرحمن، قال: سمعت أبا تميم المغربى، يقول: من اختار الخلوة على الصحبة فينبغى أن يكون خاليًا من جميع الأذكار إلاّ ذكر ربّه عز وجل، وخاليًا من جميع المراداتِ إلاّ مراد ربّه، وخاليًا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية.

أخبرنا أبو زُرعة، إجازة، قال: أخبرنا أبوبكر، إجازة، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت منصورًا يقول: سمعت محمد بن حامد يقول: جاء رجل إلى زيارة أبى بكر الورّاق، وقال له: أوصنى. فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقِلّة، ووجدت شرّهما فى الكثرة والاختلاط.

فمن دخل الخلوة معتلاً فى دخوله دخل عليه الشيطانُ وسوّل له أنواع الطغيان، وامتلأ من الغرور والمحال وظنّ أنه على حُسْن حال وقد دخلت الفتنةُ على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجموا[٢] نفوسهم بالعزلة عن الخلق[٣]،

---

(١) التفقدّ: البحث.

(٢) الاستجمام: الراحة أى أراحوا.

(٣) وفى نسخة عن الخلوة.

ومَنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والفلاسفة والبراهمة، والوحدة فى جمع الهمّ لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقا، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب، والزهدَ فى الدنيا. وحلاوة الذكر، والمعاملةَ لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاءً فى النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون — خذلهم الله تعالى — وكلّما أكثر من ذلك بَعُد عن الله.

ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية[1]، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود.

ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غيرُ ممنوع من النصارى والبراهمة، وليس هو المقصود من الخلوة، ويقول بعضهم: إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة!!

وقد يُفتح على الصادقين شىءٌ من خوارق العادات، وصدق الفراسة، تبين ما سيحدث فى المستقبل.

وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح فى حالهم الانحرافُ عن حدّ الاستقامة فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببًا لمزيد إبقائهم[2]، والداعىَ لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة، والزهدِ فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يُفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببًا لمزيد بُعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه، ويُنكر الحدود والأحكام والحلال والحرام، ويظُن أن المقصودَ من العبادات ذكرُ الله تعالى، ويترك متابعة الرسول ﷺ، ثم يتدرّج من ذلك إلى تلحّدٍ وتزنّدق — نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالاتٌ يظنونها وقائعَ، ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك!!

فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله واحسن نيّته، وقعد فى الخلوة أربعين يومًا أو أكثر؛ فمنهم من يباشر باطنَه صفوُ اليقين، ويُرفع الحجابُ عن قلبه، ويصير كما قال قائلهم: «رأى قلبى ربّى» وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات

---

(١) وفى نسخة: الرياضة.

(٢) وفى نسخة: إبقاتهم.

بالصالحات، وكفّ الجوارح، وتوزيع الأوراد من الصلاة، والتلاوة، والذكر على الأوقات، وتارة يباديه[1] الحق لموضع صدقة وقوة استعداده مباداةً من غير عمل وُجد منه، وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار، لأنه لايزال يردد ذلك الذكر ويقوله، وتكون عبادته الصلوتِ الخمسَ بسننها الراتبة فحسب، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لا يتخللها فتور، ولا يوجد منه قصور ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزمًا به حتى فى طريق الوضوء، وساعة الأكل، لا يفرّ عنه.

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة (لا إله إلا الله) وهذه الكلمة لها خاصيّة فى تنوير الباطن وجمع الهمّ إذا داوم عليها صادقٌ مخلص، وهى من مواهب الحق لهذه الأمّة، وفيها خاصّية لهذه الأمة، فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين، إملاءً، قال: أخبرنا أبوالقاسم الدمشقى الحافظ قال: أخبرنا عبدالكريم بن الحسين قال: أخبرنا عبدالوهاب الدمشقى قال: أخبرنا محمد بن خُزَيم قال: حدثنا هشام بن عمار قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: أخبرنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه: أنَّ عيسى بن مريم عليه السلام قال: ربّ أنبئنى عن هذه الأمة المرحومة[2]؟ قال: أمة محمد عليه الصلاة والسلام: علماءٌ أخفياء أتقيا حلماء أصفياء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون منىّ بالقليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله، يا عيسى هم أكثر سكان الجنة؛ لأنها لم تذلّ[3] قوم[4] قطر بـ (لا إله إلا الله) كما ذلّت ألسنتهم ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلّت رقابهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما، قال: إن هذه الآية مكتوبة فى التوراة: ﴿يأيها النبى إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾ وحرْزًا للمؤمنين وكنزًا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سمّيتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تُقام به الملّةُ المعوّجة بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتحوا أعينًا عميًا وآذانًا صما، وقلوبًا غلْفا»[5].

فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى تصير الكلمة متأصّلة فى القلب مزيلةً لحديث النفس، ينوب معناها فى القلب عن كل حديث

(١) أى: يجاهره.

(٢) المذكورة فى الإنجيل.

(٣) المراد من الذلّ: اللين لا ضد العزّة.

(٤) من الأمم السوالف.

(٥) البخارى فى تفسير سورة الفتح بنحوه.

النفس، فإذا استولت الكلمة وسَهُلتَ على اللسان يتشرّبها القلبُ، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب، ثم تتجوهر فى القلب، وبتجوهرها فى القلب يستكن نور اليقين فى القلب. حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لايزال نورها متجوهرًا ويتحد الذكرُ مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى، ويصير الذكر حينئذ ذكرّ الذات، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة — أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر — وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة.

وقد يحصل هذا من الخلوة، لا بذكر الكلمة، بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد فى مواطأة القلب مع اللسان حتى تجرى التلاوة على اللسان، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس، فيدخل على العبد سهولةٌ فى التلاوة والصلاة، ويتنوّر الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة، ويتجوهر نور الكلام فى القلب ويكون منه أيضًا ذكرًا لذات، ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظمة المتكلمّ سبحانه وتعالى.

ودون هذه الموهوبة ما يَفتَح الله على العبد من العلوم الإلهامية اللدنيّة.

وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغَ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره، حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم.

وقد تتجلّى له الحقائق فى لَبسة الخيال أولاً كما تنكشف الحقائق للنائم فى لَبسة الخيال، كمن رأى فى المنام أنه قتل حيّة. فيقول له المعبّر: تظفر بالعدو. فظفرُه بالعدو. كَشْفٌ كاشفه الحقّ تعالى به، وهذا الظفر روح مجرّد صاغ[1] مثل الرؤيا له جسدًا لهذا الروح من خيال الحيّة.

فالروح الذى هو كشفُ الظفر إخبارُ الحق، ولبسةُ الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثالٌ انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة، فتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير؛ إذا لو كوشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير، فكان يرى الظفر، ويصحُّ الظفر.

وقد يتجرّد الخيالُ باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقةٍ فيكون المنام أضغاث أحلام لا يُعبَّر وقد يتجرّد لصاحب الخلوة الخيالُ المنبعثُ من ذاته

---

(١) وفى نسخة (وهذا الظفر روح مجرد صور ملك الرؤيا له جسدًا..).

من غير أن يكون وعاءً لحقيقة، فلا يُبنى على ذلك ولا يُلتفت إليه، فليس ذلك واقعةً وإنما هو خيال.

فأما إذا غاب الصادق فى ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس بحيث لو دخل عليه داخلٍ من الناس لا يعلم به؛ لغَيبته فى الذكر، فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثالٌ وخيال ينفخ فيه روح الكشف.

فإذا عاد من غَيبته، فإمّا يأتيه تفسيرُه من باطنه موهبةً من الله تعالى، وإمّا يفسّره له شيخه كما يعبِّر المعبِّرُ المنامَ ويكون ذلك واقعةً؛ لأنه كَشْفَ حقيقةٍ فى لِبَسَةِ مثال.

وشرطُ صحة الواقعة الإخلاصُ فى الذكر أولاً، ثم الاستغراقُ فى الذكر ثانيًا، وعلامة ذلك: الزهد فى الدنيا، وملازمة التقوى؛ لأن الله تعالى جعله بما يُكاشَفُ به فى واقعته موردَ الحكمة، والحكمةُ تَحكُم بالزهد والتقوى.

وقد يتجرّد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال، فيكون ذلك كشفًا وإخبارًا من الله تعالى إيّاه، ويكون ذلك تارةً بالرؤية، وتارة بالسماع.

وقد يسمع فى باطنه، وقد يَطْرق ذلك من الهواء لا من باطنه، كالهواتف يعلم بذلك أمرًا يريد الله إحداثه له أو لغيره، فيكون إخبار الله إيّاه بذلك مزيدًا ليقينه، أو يرى فى المنام حقيقة الشىء.

نقل عن بعضهم أنه: أُتى بشراب فى قدح، فوضعه من يده وقال: قد حدث فى العالم حدث، ولا أشرب هذا دون أن أعلم ما هو، فاتكشف له أن قومًا دخلوا مكة وقتلوا فيها.

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال: كنت راكبًا حمارًا لى يومًا، وكان يؤذيه الذباب فيطأطىء رأسه، فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى، فرفع الحمار رأسه إلى وقال: اضرب؛ فإنَّك على رأسك تضرب. قيل له: يا أبا سليمان وقع لك ذلك، أو سمعته؟! فقال: سمعته يقول كما سَمِعتَنى.

وحكى عن أحمد بن عطاء الروذبارىّ[1] قال: كان لى مذهب فى أمر الطهارة؛ فكنت ليلة من الليالى أستنجى، إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى، فتضجرت، فبكيت، وقلت: يا ربّ، العفوّ. فسمعت صوتًا، ولم أر أحدًا يقول: يا أبا عبد الله العفوُ فى العلم.

---

(١) هو ابن أخت الشيخ أبى علىّ الروذبارى. شيخ الشام فى وقته. مات سنة/ تسع وستين وثلاثمائة هـ . انظر ترجمته مفصلة فى الجزء الأول – الرسالة القشيرية صـ ١٨٤.

وقد يكاشفُ الله عبدَه بآيات وكرامات تربية للعبد، وتقوية ليقينه وإيمانه.

قيل: كان عند جعفر الخلدى، رحمه الله تعالى، فَصٌّ له قيمة، وكان يومًا من الأيام راكبًا فى السمارية[1] فى دجلة فهمَّ أن يعطى الملاّح قطعة، وحلّ الخرقة، فوقع الفصّ فى الدجلة، وكان عنده دعاء للضالّة مجرّب، وكان يدعو به فوجد الفصّ فى وسط أوراق كان يتصفحها، والدعاء هو أن يقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع علىّ ضالتى. وسمعت شيخنا بهمدان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى «جيحون» كاد يسقط فى الماء من السفينة، قال: فزجرته، فلم يسقط. وكان هذا الشخص بنواحى «همدان» وولده بجيحون، فلما قدم الولدُ أخبر أنه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط.

وقال عمر، رضى الله عنه: يا ساريةُ: الجبلَ — على المنبر بالمدينة، وسارية بنهاوند — فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو فقيل لساريةَ: كيف علمت ذلك؟ فقال: سمعت صوت عمر وهو يقول: يا ساريةُ: الجبلَ.

سئل ابن سالم، وكان قد قال: للإيمان أربعة أركان: ركن منه الإيمان بالقدرة، وركن منه الإيمان بالحكمة، وركن منه التبرّى من الحول والقوة، وركن منه الاستعانة بالله عزّ وجل فى جميع الأشياء.

قيل له: ما معنى قولك الإيمان بالقدرة؟ فقال: هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق — نائمًا على يمينه — ويكن من كرامة الله إياه أن يعطيه من القوة ما يتقلب من يمينه على يساره، فيكون بالمغرب، تؤمن بجواز ذلك وكونه. وحكى لى فقير أنه كان بمكة، وأُرجف[2] على شخص ببغداد أنه قد مات؛ فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد فأخبر إخوانه أن الشخص الذى لم يمت، وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص ركابًا قال: رأيته فى السوق وأنا أسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد.

وكل هذه مواهبُ الله تعالى، وقد يكاشَفُ بها قوم وتُغَطّى[3]، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يمكن له شىء من هذا؛ لأن هذه كلّها تقويةٌ لليقين.

---

(١) السمارية: الزورق.

(٢) أخبر، والإرجاف: الإخبار من غير تحقيق.

(٣) وفى نسخة: وتعطى.

ومَن مُنِح «صِرف اليقين» لا حاجة له إلى شيء من هذا.

فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه، من تجوهر الذكر فى القلب ووجودِ ذكـرِ الـذاتِ، فإن تلكَ الحكمة فيها تقويةٌ للمريدين وتربيةٌ للسالكين؛ ليزدادوا بها يقينًا يُجذبون به إلى مراغمة النفوس والسُلوّ عن ملاذّ الدنيـا، ويَسـتنهض منـهم بذلـك سـاكنُ عزمـهم بعمـارة الأوقاتِ بالقربات؛ فيروحون بذلك، ويُربّـون بطريقـة ومـن كوشـف بِصـرف اليقـين عـن ذلك[1]؛ لمكانِ أنَّ نفسه أسرع إجابة، وأسهل انقيادًا وأتم استعدادًا.

والأولون استلين بذلك منهم ما استوعر، واستكشف منهم ما استتر.

وقد لا يُمنع صُوَرَ ذلك الراهبون[2]والبراهمُة ممن هو غير منتهج سبل الهـدى، وراكـبُ طُريق الردى؛ ليكون ذلك فى حقهم مكرًا واستدراجًا؛ ليستحسنوا حالهم، ويستقروا فـى مقار الطرد والبعد إبقاءً لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال،والردى والوبال، حتى لا يغترَّ السالك بيسير شيء يُفتح له، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهـواء لا ينفعـه ذلـك حتى يؤدى حق التقوى والزهد، فأمّا من تعوّق بخيال، أو قنع بمحال، ولم يُحْكِم أساسَ خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور، فيرفض العبـادات ويسـتحقرها، ويسلبه الله لذة المعاملة، ويُذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح فى الدنيا والآخرة.

فليعلم الصادق أن المقصود من الخلـوة التقرّبُ إلى الله تعـالى بعمـارة الأوقـات، وكـفّ الجوارح عن المكروهات؛ فيصلح لقـومٍ مـن أربـاب الخلـوة إدامـةُ الأوراد وتوزيُعـها علـى الأوقات، ويصلح لقوم ملازمةُ ذكر واحد، ويصلح لقوم دوام المراقبة، ويصلح لقوم الانتقالُ من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال مـن الأوراد إلى الذكـر، ومعرفـةُ مقـادير ذلـك يعلمـه المصحوبُ للشيخ[3] المطّلع على اختلاف الأوضاع وتنوّعها، مع نُصحه للأمة وشفقته علـى الكافّة، يُريد المريد لله لا لنفسه، غيرَ مُبْتَلىً بهوى نفسه، محبـا للاسـتتباع، ومـن كـان محبًّا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه.

---

(١) فى نسخة: ومن كشوف بصرف اليقين من ذلك لمكان أن نفسه إلخ..

(٢) وفى نسخة: الرهابين.

(٣) وفى نسخة يعلمها المصحوب الشيخُ المطلعُ..) وهذا أصوب.

الباب الثامن والعشرون

كيفية الدخول فى الأربعينية

روى أنّ داود عليه السلام لّما ابتُلى بالخطيئة خرّ ساجدًا لله أربعين يومًا وليلة حتى أتاه الغفران من ربّه.

وقد تقرّر أن الوحدة والعزلة مِلاك الأمر ومتمسَّك أرباب الصدق؛ فمن استمرت أوقاته على ذلك فجميع عمره خلوةٌ وهو الأسلم لدينه. فإن لم يتيسَّر له ذلك وكان مبتَلى بنفسه أولاً، ثم بالأهل والأولاد ثانيًا، فليجعل لنفسه من ذلك نَصيبًا.

نقل عن سفيان الثورى، فيما روى أحمد بن حرب، عن خالد بن زيد، رضى الله عنه، أنه قال: كان يقال ما أخلص عبدٌ الله أربعين صباحًا إلاّ أنبت الله سبحانه وتعالى الحكمة فى قلبه، وزهّده الله فى الدنيا، ورغّبه فى الآخرة، وبصّره داء الدنيا ودواءها.

فليتعاهد[1] العبد نفسه فى كلّ سنة مرّة.

وأما المريدُ الطالبُ إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكملُ الأمر فى ذلك أن يتجرّد من الدنيا ويخرُجَ عن كل ما يملكه، ويغتسل غُسلاً كاملاً — بعد الاحتياط للثوب والمصلّى بالنظافة والطهارة — ويصلّى ركعتين، ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه ببكاءٍ وتضرّع واستكانةٍ وتخشّع، ويُسوّى بين السريرة والعلانية، ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة، ثم يقعد فى موضع خَلوته، ولا يخرج إلاّ لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، ومن ذهب إلى ترك المحافظة على صلاة الجماعة غلِط وأخطأ؛ فإن وجد تفرقةً فى خروجه يكون له شخص يصلّى معه جماعةً فى خلوته، ولا ينبغى أن يرضى بالصلاة منفردًا ألبتة، فبترك الجماعة يخشى عليه آفاتٌ، وقد رأينا من يتشوّش عقله فى خلوته، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة.

غير أنه ينبغى أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكرٌ لا يَفتُر عن الذكر، ولا يكثر إرسال الطَرف إلى ما يرى، ولا يصغى إلى ما يسمع؛ لأن القوة الحافظة والمتخيّلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع.

فيكثر بذلك الوسواس وحديثُ النفس والخيال، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام، فإذا سلّم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته، ويتّقى فى خروجه استحلاء[2] نظر الخلق إليه وعلمهم بجلوسه فى خلوته. فقد قيل: «لاتطمع فى

---

(١) والتعاهد لغةً فى التعهّد، يقال تعهّد الضيعة، وتعاهدها: أتاها وأصلحها، وحقيقته: جدّد العهد بها.

(٢) وفى نسخة: استجلاء.

المنزلة عند الناس وأنت تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس». وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل، وينصلح به كثير من الأحوال إذا عثُبر.

ويكون فى خلوته جاعلاً وقته شيئًا واحدًا موهوبًا لله بإدامة فعل الرضا إمّا تلاوة أو ذكرًا، أو صلاة، أو مراقبة.

وأىّ وقت فتر عن هذه الأقسام ينام.

فإذا أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئًا فشيئًا.

وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخفّ ما على قلبه من هذه الأقسام فعل فإذا فتر عن ذلك ينام.

وإن أراد أن يبقى فى سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة، أو ركعتين، ساعةً أو ساعتين فعل.

ويلازم فى خلوته إدامة الوضوء ولا ينام إلاّ عن غَلَبةٍ بعد أن يدفع النوم عن نفسه مراتٍ، فيكون هذا شُغله ليلَه ونهاره.

وإذا كان ذاكرًا لكلمة (لا إله إلا الله) وسئمت النفسُ الذكرَ باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان.

وقد قال سهل بن عبد الله: إذا قلت لا إله إلا الله مُدَّ الكلمة وانظر إلى قِدمَ الحق فَأَثبته وأبطل ما سواه.

وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة، فليكن دائم التلزّم بفعل الرضا.

وأمّا قوت من فى الأربعينية والخلوةِ، فالأولى أن يقتنع[1] بالخبز والملح، ويتناول كُلّ ليلة رطلاً واحدًا — بالبغدادى — يتناوله بعد العشاء الأخيرة، وإن قَسّمه نصفين، يأكل أول الليل نصفَ رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخفّ للمعدة، وعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة.

وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل، وأن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام، وإن كان الإدام شيئًا يقدم مقام الخبز يَنقُص الخبزِ بقدر ذلك. وإن أراد التقلل، من هذا القدر ينقص كلّ ليلة دون اللقمة بحيث ينتهى تقلله فى العشر الأخير من الأربعين إلى

---

(١) وفى نسخة: يقنع.

نصف رطل. وإن قوى قَنَّع النفس بنصف رطلٍ من أوّل الأربعين ونقص يسيرًا كلّ ليلة بالتدرّج حتى يُعيد فطورَه إلى ربع رطل فى العَشر الأخير.

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أنّ بناء أمرهم على أربعة أشياء:

قلّةُ الطعام، وقلّةُ المنام، وقلّةُ الكلام، والاعتزال عن الناس.

وقد جُعل للجوع وقتان: أحدهما: آخر الأربع والعشرين ساعة، فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقيةٌ بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة، أو يقسّمها أكلتين كما ذكرنا. والوقت الآخر: على رأس اثنتين وسبعين ساعة؛ فيكون الطىّ ليلتين، والإفطار فى الليلة الثالثة، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل، وبين هذين الوقتين وقتٌ وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل، وهذا ينبغى أن يفعله إذا لم ينتج ذلك عليه سآمة وضجرًا وقلّة انشراح فى الذكر والمعاملة، فإذا وجد شيئًا من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل فى الوقتين أو الوقت الواحد.

فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلةً، ثم رُدَّت إلى الإفطار كل ليلة تَقْنَع، وإن سومحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات، وقس على هذا، فهى إن أطمعت طمعت، وإن أُقنعت قنعت، وقد كان بعضُهم ينقص كل ليلة حتى يَردَّ النفس إلى أقل قُوتها.

ومن الصالحين من كان يُعَيِّر القوتَ بنوى التمر وَيَنْقُص كلّ ليلة نواةً، ومنهم من كان يُعَيِّر بعودٍ ويَنقص كلّ ليلة بقدر نشاف العود، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف حتى يفنى الرغيف فى شهر، ومنهم من كان يؤخّر الأكل ولا يعمل فى تقليل القوت، ولكن يعمل فى تأخيره بالتدريج حتى تندرج ليلةٌ فى ليلة، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طَيُّهُم إلى سبعة أيام، وعشرة أيام، وخمسة عشر يومًا، إلى الأربعين.

وقد قيل لسهل بن عبد الله: هذا الذى يأكل فى كلّ أربعين وأكثر أكلةً أين يذهب لهب الجوع عنه؟ قال: يطفئه النور.

وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لى كلامًا بعبارة دلّت على أنه يجد فرحًا بربّه وينطفئ معه لهيبُ الجوع.

وهذا فى الخلق واقع؛ إذ أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعًا فيذهب عنه الجوع، وهكذا فى طرق الخوف يقع ذلك.

ومن فعل ذلك ودرَّج نفسه فى شىء من هذه الأقسام التى ذكرناها لا يُؤثِّر ذلك فى نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان فى حماية الصدق والإخلاص، وإنما يخشى فى ذلك وفى دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى.

وقد قيل: حدّ الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يُؤكل، ومتى عَيَّبت[1] النفسُ الخبزَ فليست بجائعة. وهذا المعنى قد يوجد فى آخر الحدين بعد ثلاثة أيام، وهذا جوع الصديقين، وطلب الغذاء عند ذلك ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية.

ويكون هذا حدَّ الضرورة لمن لا يجتهد فى التقليل بالتدريج، فأمّا من درج نفسه فى ذلك فقد يَصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين — كما ذكرنا —.

وقد قال بعضهم: حدّ الجوع أن يَبزُق، فإذا لم يقع الذباب على بُزاقه يدلُّ هذا على خُلوِّ المعدة من الدُسومة، وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب.

روى أن سفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنهما — كانا يطويان ثلاثًا ثلاثًا. وكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يطوى ستًا، وكان عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه يطوى سبعة أيام. واشتهر حال جَدنا محمد بن عبد الله — المعروف بُعَمُّويةَ رحمه الله، وكان صاحب أحمد الأسود الدينورىّ — أنه كان يطوى أربعين يومًا، وأقصى ما بلغ فى هذا المعنى من الطىّ: رجل أدركنا زمانه وما رأيتُه كان فى «أبْهرَ» يقال له «الزاهد خليفة» كان يأكل فى كل شهر لوزةً، ولم نسمع أنه بلغ فى هذه الأمّة أحدٌ بالطىّ والتدريج إلى هذا الحد. وكان فى أوّل أمره — على ما حكى — ينقصُ الوقتَ بنُشَافِ العُود، ثم طوى، حتى انتهى إلى اللوزة فى الأربعين.

ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمعٌ من الصادقين، وقد يسلك غيرُ الصادق هذا لوجود هوىً مستكن فى باطنه يُهوِّن عليه تركَ الأكل إذا كان له استحلاء لنظر الخلق. وهذا عين النفاق، نعوذُ بالله من ذلك.

والصادق ربّما يقدر على الطىّ إذا لم يعلم بحاله أحدٌ، وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا عُلِم بأنه يطوى، فإنَّ صدقه فى الطىّ ونظره إلى من يطوى لأجله يُهوِّن عليه الطىَّ، فإذا علم به أحد تضعف عزيمتُه فى ذلك، وهذا علامة الصادق؛ فمهما أحسَّ فى نفسه أنه يُحبُّ أن يُرى بعين التقلل فليتهم نفسه؛ فإن فيه شائبة نفاق.

---

(١) وفى نسخة: عيّنت.

ومن يطو لله يعوض الله تعالى فرحًا فى باطنه ينسيه الطعام، وقد لا ينسى الطعام ولطن لامتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى، وينفر[1] بذلك عن أرض الشهوة النفسانية وما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عن كمال طمأنينتها، وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير بأقل من جاذب المغناطيس للحديد، إذا المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة؛ فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح وأدّاها إلى النفس، فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها فتزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ «أبيتُ عند ربّى يُطعمنى ويسقينى»[2] ولا يقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة، فيتناول من الطعام أيضًا ضرورة، ولو تكلم — مثلاً — بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء[3] بالنار؛ لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها، وإذا استيقظت نزعت إلى هواها، فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس، ورزق العلمَ سَهُل عليه الطيُّ وتداركته المعونة من الله تعالى، لا سيما إنْ كُوشِف بشئ من المنح الإلهية.

وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع، وكان لا يطلب ولا يتسبب، قال: فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله علىَ بتفاحةٍ، فتناولت التفاحة، وقصدت أكلها، فلما كسرتُها كُوشفت بحوراء نظرتُ إليها عقيب كسرها، فحدث عندى من الفرح بذلك ما استغنيت به عن الطعام أيامًا، وذكر لى أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة.

والإيمان بالقدرة ركنٌ من أركان الإيمان، فسلّم ولا تُنكر.

قال سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى: من طوى أربعين يومًا ظهرت له القدرة على الملكوت.

وقال الشيخ ابو طالب المكى، رحمه الله تعالى، عرفنا من طوى أربعين يومًا برياضة النفس فى تأخير الوقت وكان يؤخِّر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل، حتى يطو ليلة فى نصف شهر، فيطوى الأربعين فى سنة وأربعة أشهر، فتندرج الأيام والليالى حتى

---

(١) وفى نسخة: ويقفو . أى بعد. يقال قفا عنه أى تباعد. ومعنى ينفر هنا يبعد.

(٢) البخارى وغيره من حديث الوصال فى الصوم .

(٣) وفى نسخة : لا مثنوية فيه.

يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد، وذكر لى أن الذى فعل ذلك ظهرت له آيات «من الملكوت وكُوشِف بمعانى قُدرةٍ من الجبروت تجلّى الله بها له كيف شاء».

وأعلم أن هذا المعنى من الطىّ والتقلّل لو أنه عَيْنُ الفضيلة ما فات أحدًا من الأنبياء، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غياياته، ولاشك أن لذلك فضيلة لا تنكر، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى فى ذلك؛ فقد يكون من يأكل كلّ يوم أفضل ممن يطوى أربعين يومًا، وقد يكون من لا يكاشف بشئ من معانى القدرة أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله بصرف المعرفة؛ فالقدرة أثر من القادر.

ومَنْ أهِّل لقُرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر[١] شيئًا من القدرة، ويرى القدرة تتجلّى له من سِجْفِ[٢] أجزاء عالم الحكمة؛ فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يومًا واجتهد فى ضبط أحواله بشئ من الأنواع التى ذكرنا، من: العمل والذكر والقُوتِ وغير ذلك، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته، وهو طريق حَسَنٌ اعتمده طائفةٌ من الصالحين.

وكان جماعةُ من الصالحين يختارون للأربعين ذا العقدة، وعشر ذى الحجة، وهى أربعون موسى عليه السلام.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب، إجازةً، قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبدالملك بن خيرون، إجازة، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى، إجازة، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال: حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزى، قال حدثنا عبد الله بن المبارك، قال: حدثنا أبومعاوية الضرير قال: حدثنا الحجاج، عن مكحول قال؛ قال رسول الله ﷺ: «أخلص لله تعالى العبادة أربعين يومًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٣] .

---

(١) وفى نسخة : ولا يستكثر .

(٢) سجف : سِتر .

(٣) ابن نعيم فى الحلبة عن أبى أيوب بسند ضعيف .

الباب التاسع والعشرون

أخلاق الصوفيّة وشرح الخلق

الصُّوفيةُ أوفرُ الناس حظًا من الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقُهم بإحياءِ سنَّته، والتخلُّق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الأقتداء به وإحياء سنته؛على ماأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبوأحمد عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح عبدالوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى، قال: أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمّد الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال: أخبرنا أبوعيسى محمد بن عيسى بن سوْرةَ الترمذى قال: حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصار، عن أبيه، عن على بن زيد، عن سعد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، قال لى رسول الله ﷺ: «يا بنى إن قَدَرْتَ أن تُصبح وتُمسي وليس فى قلبك غشٌ لأحد فأفعل»، ثم قال: «يا بنيّ، ذلك من سنتى، ومن أحيا سُنَّتى فقد أحيانى، ومن أحيانى كان معى فى الجنة»[1].

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وقفوا[2] فى بداياتهم لرعاية أقواله، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك فى نهاياتهم أن تحققوا بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾[3] لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسًا كان أحسنهم خلقًا، قال مجاهد (على خلق عظيم) أى: دين عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة. سئلت عائشة–رضى الله تعالى عنها — عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن[4]. قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهى عمّا نهى الله عنه، وفى قول عائشة: كان خلقه القرآن، سرٌ كبيرٌ وعِلْمٌ غامض، ما نطقت بذلك إلا بما خصّها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى، وصُحبة رسول الله ﷺ وتخصيصه إيّاها بكلمة «خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء»[5] وذلك

---

(١) الترمذى عن أنس بن مالك بأسناد .

(٢) وفى نسخة : وفقوا .

(٣) آية رقم ٤ من سورة القلم .

(٤) مسلم وأبو داود من حديث طويل فى قيام الليل عن عائشة .

(٥) قال ابن حجر : لا أعرف له إسنادًا ولا رأيته فى شئ من كتب الحديث المعتمدة .

أن النفس مجبولة على غرائز وطبائع هى من لوازمها وضرورتها، خُلِقَتْ من تراب ولها بحسب ذلك طبع، وخُلقت من ماءٍ ولها بحسب ذلك طبع، وهكذا من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخّار، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادئ تكوُّنها استفادت صفاتٍ من البهيمية، والسَّبُعية، والشيطانية، وإلى صفة الشيطانية فى الإنسان إشارةُ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾[1] لدخول النار فى الفخّار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[2] والله تعالى بخَفِىٍّ لطفه وعظيم عنايته نزع نصيبَ الشيطان من رسول الله ﷺ على ما ورد فى حديث حليمة ابنة الحارث، أنها قالت فى حديث طويل، فبينما نحن خلف بيوتنا ورسول الله ﷺ مع أخ له من الرضاعة فى بَهْم[3] لنا جاءنا أخوه يشتدّ، فقال: ذاك أخى القرشىُّ قد جاءه رجلان عليهما ثياب بَياض، فاضجعاه، فشقّا بطنه، فخرجتُ أنا وأبوه نشتدّ نحوه، فنجده قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أى بنى، ما شأنك؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فاضجعانى، فشقا بطنى، ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم ردّاه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: ياحليمة، لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب، فانطلقى بنا فلنردّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوّف، قالت: فاحتملناه فلم تُرَعْ أُمُّه إلاّ وقد قَدِمْنا به عليها، قالت: ما رَدَّكما وقد كنتما عليه حريصين؟! قلنا: لا والله، لاضَيْر، إلاّ أن الله عزّ وجلّ قد أدَّ عنا وقضينا الذى كان علينا، وقلنا نَخْشَى الإتلاف والأحداثَ: فنردّه إلى أهله. فقالت: ماذاك فاصدقانى شأنكما؟ فَلم تَدَعْنا حتى أخبرناها خبرَه، فقالت: خشيتّما عليه الشيطان، كلا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شأن، ألاأخبركما بخيره؟قلنا: بلى، قالت: حملتُ به، فما حملت حَمْلاً قطّ أخفّ منه: فأريت فى النوم حين حَملتُ به كأنّه خرج منى نور أضاءت به قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعًا لم يقعه المولودُ معتمدًا على يديه رافعًا رأسه إلى السماء. فَدَعاه عنكما».

فبعد أن طهرّ الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حدّ نفوس البشر، لها ظهورٌ بصفات وأخلاق مُبَقّاةٌ على رسول الله ﷺ رحمةً للخلق، لوجود أمهّاتِ تلك الصفات فى نفوس الأمَّة بمزيدٍ من الظلمة، لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة، فاستمدت تلك الصفات المبقاّ بظهورها فى رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها، تأديبًا من الله لنبيه، رحمةً خاصةً له، وعامةً للأمة، موزّعة بنزول

---

(١) آية رقم ١٤ من سورة الرحمن .

(٢) آية رقم ١٥ من سورة الرحمن .

(٣) إلهم : أولاد البقر والمفرد الضّآن .

الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[1]

وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه لحركة النفس بظهور الصفات؛ لإرتباطٍ بين القلب والنفس.

وعند كلّ اضطراب آية متضمنة لخلق سَنِيّ إمّا تصريحًا أو تعويضًا، كما تحركت النفسُ الشريفةُ النبوية لما كُسِرتْ رَبَاعيته وصار الدم يسيل على وجهه الشريف ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2] فاكتسى القلب النبوىّ لباس الاصطبار وفاء بعد الاضطراب إلى القرار، فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات، صَفَت الأخلاق النبوية بالقرآن؛ ليكون خُلُقه القرآن، ويكون فى إبقاء تلك الصفات، فى نَفْس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنَسَّى لأَسُنَّ»[3].

فظهور صفات نفسه الشريفة، وقت استنزال الآيات؛ لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها، رحمةً فى حقّهم حتى تتزكّى نفوسُهم، وتَشرُفَ أخلاقهم.

قال رسول الله ﷺ: «الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا منحه منها خُلقًا» وقال ﷺ: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4]، وروى عنه ﷺ: «أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خُلقا من آتاهُ واحدًا منها دخل الجنة»[5] فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى لمرسل ونبى.

والله تعالى ابرز إلى الخلق أسماءه مُنْبِئةً عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلاّ ليدعوهم إليها، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلُّقَ بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوةً لهم إليها يختص برحمته من يشاء.

ولا يبعد – والله أعلم – أن قول عائشة رضى الله عنها: «كان خلقه القرآن» فيه رمزٌ غامض وإيماءٌ خفىّ إلى الأخلاق الربّانية، فاحتشمت[6] من الحضرة الإلهية أن تقول: متخلّقًا بأخلاق الله تعالى، فعبرّت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن استحياءً من سُبحات الجلال، وسترًا للحال بلطف المقال، وهذا من وفور علمها وكمال آدبها.

---

(١) آية رقم ٣٢ من سورة الفرقان

(٢) آية رقم ١٢٨ من سورة آل عمران

(٣) الموطأ بلاغا عن مالك

(٤) البخارى فى الأدب والحاكم من البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة بسند صحيح

(٥) الحكيم وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب عن عثمان بن عفان بسند حسن

(٦) أى: استحييت

وبين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمثانِى وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ﴾[١]

وبين قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن[٣].

قال الجنيد رحمه اله تعالى، :كان خلقه عظيمًا[٤]،لأنه لم يكن له هِمَّةٌ سوى الله تعالى

وقال الواسطى، رحمه الله تعالى: لأنه جاء بالكونين عوضًا عن الحق[٥].

وقيل : لأنه عليه الصلاة والسلام عاشر الخلق بخلقهن وباينهم بقلبه؛ وهذا ما قاله بعضهم فى معنى التصوف:

التصوف الخلق مع الخَلق ، والصِّدقُ مع الحق .

وقيل : عَظمُ خُلقه حيثُ صَغرت الأكوان فى عينه لمشاهدة مُكَوِّنها .

وقيل : سُمِّى خلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد ندب لرسول الله ﷺ أمته إلى حسن الخلق فى حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين بن عبد الوهاب بن على قال :

أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال : أخبرنا أبو محمد الجراحى قال : أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال : أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال : حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال : حدثنا حيّان بن هلال قال : حدثنا مبارك بن فُضالَة قال : حدثنى عبد الله بن سعيد ، عن محمد بن المنكدر عن جابر ، رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«إنّ من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيقهون» ..

قالوا : يا رسول الله علمنا الثرثارون . والمتشدقون ، فما المتفيقهون ؟؟ قال : «المتفيقهون المتكبرون»[٦]

---

(١) آية رقم ٨٧ من سورة الحجر

(٢) آية رقم ٤ من سورة القلم

(٣) حديث كان خلقه القرآن: أخرجه الإمام احمد فى مسنده، والإمام مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها.

(٤) وفى نسخة : سمى خلقه عظيما .

(٥) أى ترك الدنيا فى سبيل الله سبحانه وتعالى .

(٦) أخرجه البخارى عن ابن عمرو هو حديث صحيح ، ورواه الترمذى وقال حديث حسن .

والثرثار هو : المكثار يكثر من الحديث ، والمتشدّق : المتطاول على الناس فى الكلام .

قال الواسطى رحمه اللّه تعالى : الخُلق العظيم أن لا يخاصِم ولا يخاصَم . وقال أيضًا : وإن لعلى خلق عظيم لوجدانك حلاوة المطالعة على سرّك .

وقال أيضًا : لأن قبلتَ فنون ما أسديتُ إليك من نعمى أحسنَ مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل .

وقال الحسين بن منصور الحلاج : لأنه لم يُؤثّر فيك جفاءُ الخلق مع مطالعة الحق .

وقيل : الخُلق العظيم لباس التقوى والتخلّقُ بأخلاق اللّه تعالى إذ لم يبق للأعواض عنده خطر .

وقال بعضهم : قوله تعالى : ﴿ولوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعضَ الأقَاويل لأخَذْنَا مِنْهُ باليمين﴾[1] .

أتمُّ ، لأنه حيث قال : ﴿ وإنّك﴾ أحضره ، وإذا أحضره أغفله وحجبه ، وقوله : (لأخذنا) أتم ؛ لأن فيه فناء .

وفى قوله هذا القائل نظر ، فهلاً قال : إن كان فى ذلك فناءٌ ففى قوله : (وإنك) بقاء ، وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتمّ من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة ؛ لأن الفناء إنّما عزٌّ لمزاحمة وجودٍ مذموم ، فإذا نُزع المذمومُ من الوجود ، وتبدلت النعوت فأىّ عزّة تبقى فى الفناء ؟ فيكون حضُوره باللّه ، لا بنفسه ، وأى حَجْبة تبقى هنالك ؟

وقيل: من أوتى الخُلق فقد أوتى أعظم المقامات؛ لأن للمقامات ارتباطًا عامًا ، والخُلق ارتباط بالنعوت والصفات .

وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء : السخاءُ والألفةُ ، والنصيحةُ والشفقة .

وقال ابن عطاء : الخلُق العظيم أن لا يكون له اختيارٌ . ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوفات .

وقال أبو سعيد القرشى : العظيم هو اللّه ، ومن أخلاقه : الجود ، والكرم ، والصفح ، والعفو ، والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام .

« إنّ للّه مائة وبضعة عشر خُلقًا من أوتى بواحد منها دخل الجنة »[2] .

فلما تخلّق بأخلاق اللّه تعالى وجد الثناء عليه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

---

(١) آية رقم ٤٥ من سورة الحاقة .

(٢) الحكيم الترمذى وغيره عن عثمان بن عفان بسند حسن .

وقيل : عظم خُلقك ؛ لأنك لم ترض بالأخلاق ، وسِرتَ ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات .وقيل : لما بعث محمد ﷺ إلى الحجاز حَجَزَه بها عن اللذات والشهوات ، وألقاه في الغُربة والجفوة ، فلما صفا بذلك من دنس الأخلاق ، قال له: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ﴾.

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زُرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ ، عن أبيه قال: أخبرنا أبوعمر المليحى قال : أخبرنا أبومحمد عبدالله بن يوسف قال : أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال : حدثنا جعفر بن الحجاج الرقّيّ قال: أخبرنا أيوب بن محمد الوزان قال : حدثنى الوليد قال : حدثنى ثابت ، عن يزيد ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عروة عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان نبى الله ﷺ يقول :

مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه ، وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صِدْقُ الحديث ، وصدق البأس ، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم والتذمم[1] للصاحب ، وإقراء الضيف . ورأسهنّ الحياء[2] .

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال ﷺ: (تقوى الله. وحسن الخلق) وسئل عن أكثر ما يُدخِل الناس النارُ ، فقال ﷺ : (الغمّ والفَرَح)[3] . [يكون هذا الغم غمَّ فوات الحظوظ العاجلة ؛ لأن ذلك يتضمن التسخّط والتضجر ، وفيه الاعتراض على الله تعالى ، وعدمُ الرضا بالقضاء ، ويكون الفرحُ المشار إليه الفرحُ بالحظوظ العاجلة الممنوعُ منه بقوله تعالى :﴿ لِكَيْلاَ تأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وهو الفرح الذى قال الله تعالى : ﴿إذْ قَالَ لَقَوْمِهِ لاَ تَفْرَحْ إنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ الْفَرِحينَ﴾ لما رأى مفاتِحَه تنوء بالعصبة أولى القوة .

فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود يُنافس فيه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّه وبِرَحْمَتِه فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[4]][5]

---

(١) حفظ العهد .

(٢) الحكيم والبيهقى فى الشعب عن عائشة بسند ضعيف .

(٣) الترمذى وقال صحيح غريب جـ ٣ ص ٢٤٥ ووراه عن أبى هريرة .

(٤) الآية من سورة يونس رقم ٥٨.

(٥) ما بين القوسين ساقط فى بعض النسخ

وفسرَّ عبدالله بن المبارك حُسن الخلق فقال: هو بَسطُ الوجه، وبذلُ المعروف، وكفُّ الأذى.

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق. وكم من نفس تُجيب إلى الأعمال ولا تُجيب إلى الأخلاق؛ فنفوس العُبّاد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهّاد أجبت إلى بعض الأخلاق دون بعض ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

أخبرنا الشيخ أبو زُرعة، إجازة عن أبى بكر بن خلف، إجازة، عن السُلمى قال: سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت أبا بكر الكنانىَ يقول: التصَوف خُلُق، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوّف[1].

فالعُبّاد أجابت نفوسهم إلى الأعمال؛ لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان، والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطنَ أهل القرب والصوفيةِ نُورُ اليقين، وتأصّل فى بواطنهم ذلك انصلح القلبُ بكلّ أرجائه وجوانبه، لأن القلب يَبْيَضُّ بعضُه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان واليقين.

فإذا ابيض القلب وتنورّ انعكس نورُه على النفس، وللقلب وجه إلى النفس ووجهٌ إلى الروح، وللنفس وجه إلى القلب، ووجه إلى الطبع والغريزة، والقلبُ إذا لم يبيض كلّه لم يتوجّه إلى الروح بكلّه، ويكون ذا وجهين:

وجه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا ابيضّ كلّه توجّه إلى الروح بكله، فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقًا وتنورًا وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجّهت إلى القلب بوجهها الذى يليه، وتتنورّ النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب، وعلامة تنوّرها طمأنينتها قال تعالى:

﴿يـأيتها النَّفْسُ الـمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى ربِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [2]

وتُنورُ وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحّدِ وجهى الصَّدف؛ لاكتساب النورانية من اللؤلؤ.

وبقاء شىء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالف لنورانية باطنة.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية.

(٢) آية رقم ٢٨ من سورة الفجر.

وإذا تنوّر أحد وجهى النفس لجأت[١] إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سُمى الأبدال أبدالاً.

والسرُّ الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفىِّ بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخَلْق والحكمة، والقلب عرشٌ فى عالم الأمر والقدرة.

قال سهل بن عبد الله التسترى : «القلب كالعرش، والصدر كالكرسىّ» .

وقد ورد عن الله تعالى: « ما يسعنى أرضى ولا سمائى ويسعنى قلب عبدى المؤمن»[٢].

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرًا مَوَّاجًا من نَسَمات القرب جرى فى جداول أخلاق النفس صَفاءُ النعوت والصفات، وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى.

حكى عن الشيخ أبى علىّ القارمزىّ أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكُركانىّ أنه قال : «إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافًا للعبد للسالك، وهو بَعْدُ فى السلوك غيرُ واصل». ويكون الشيخُ عَنَى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفًا يلائم ضَعف حال البشر وقصوره؛ مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى «الرحيم» مَعنى من الرحمة على قدر قصور البشر، وكلّ إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعَزُّ علومهم على هذا المعنى والتفسير. وكلّ من توهمّ بذلك شيئًا من الحلول تزندّق وألحد.

وقد أوصى رسول الله ﷺ مُعاذًا بوصيّة جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له :

« يا مُعاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، ونَصْرِ الأمل، ولُزوم الإيمان، والتفقّه فى القرآن، وحُبّ الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تَسُبَّ حليمًا، أو تُكذّب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تَعصِي إمامًا عادلاً، أو تفسد أرضًا، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومَدَر[٣]، وأن تُحدِثْ لكل ذنب توبةً، السرُّ بالسرِّ والعلانية بالعلانية، بذلك أدّب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب»[٤].

---

(١) وفى نسخة : تجيب .

(٢) ذكره فى الأحياء بلفظ قال اللهِ تعالى [لم يسعنى سمائى ولا أرضى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع] قال العراقى فى تخرجه: لم أر له أصلاً، ووافقه فى الدرر تبعًا للزركشى.

وقال فى المقاصد تبعًا لشيخه فى اللآلى: ليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ ومعناه : [وسع قلبه الإيمان بى ومحبتى ومعرفتى] وإلا فمن قال: إن الله يحل فى قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده .

(٣) المَدَر (بفتح الميم والدال) : التراب المتلبّد ، أو الطين المقطع .

(٤) رواه عبد بن حميد فى تفسيره وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أبى ذر، وقال السيوطى: حسن .

وروى معاذ أيضًا عن رسول الله ﷺ قال :

«حُفَّ الإسلامُ بمكارم الأخلاق ومحاسنِ الآداب».

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن عليّ، بإسناده المتقدّم إلى الترمذيّ[1]، رحمه الله تعالى، قال: أخبرنا أبو كريب، قال: حدثنا قبيصةُ بن الليث، عن مُطَرِّف، عن عطاء، عن أمّ الدرداء، عن أبي الدرداء قال، سمعت النبى ﷺ يقول:

«ما من شيء يُوضع فيا الميزان أثقلُ من حسن الخلق، وإنَّ صاحبَ حُسنْ الخلق ليبلغ به درجةَ صاحب الصوم والصلاة»[2].

وقد كان من أخلاق رسول ﷺ أنه كان أسخى الناس؛ لا يبيتُ عنده دينارٌ ولا درهم وإن فَضَل ولم يجد من يُعطيه ويأتيه الليلُ لايأوى إلى منزله حتى يبرأ منه، ولا ينالُ من الدنيا، أكثر قوتَ عَامِه من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع ماعدًا ذلك فى سبيل الله، لا يُسأل شيئًا إلاّيُعطى، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه حتى ربمّا احتاج قبل انقضاء العام، وكان يخصف[3] النعل ويُرقّع الثوبَ، ويخدم فى مهنة[4] أهله، ويقطع اللحم معهنّ، وكان أشدَّ الناس حياءً وأكثرهم تواضعًا، فصلوات الرحمن عليه، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) هو الإمام محمد بن عيسى بن سَوْرة السُلمى الترمذى. من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ (وترمذ مدينة مشهورة) من أمهات المدن على نهر جيحون من جانبه الشرقى. قال فى القاموس: ترمذ كإثمد بلد ببخارى) ولد سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م وتوفى سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م قام برحلة فى خراسان والعراق والحجاز، وعمى فى آخر عمره، قال ابن حبّان فى كتاب «الثقات»: كان الترمذى ممن جمع وصنف وحفظ . وقال أبو سعيد عبد الرحمن الإدريسى: (كان الترمذى أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى الحديث، صنف الجامع وكان يضرب به المثل فى الحفظ).

وكان موته بـ«ترمذ» ومن مصنفاته: كتاب الجامع ويسمى بالسنن، كتاب «العلل»، كتاب «شمائل النبى ﷺ».

(أنظر فى ترجمته : أنساب السمعانى ٩٥ ونكت الهميان ص ٢٦٤ ووفيات الأعيان) .

(٢) الترمذى جـ٣ ص ٢٤٥ وقال حديث غريب من هذا الوجه وأبو داود .

(٣) الخصف: خرز النعل وخياطته .

(٤) المهنة بالكسر : الخدمة .

الباب الثلاثون

فى تفصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية «التواضع»، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كلِّ أحد مقدارًا يعلم أنه يقيمه، ويقيم كلَّ أحد على ما عنده من نفسه؛ ومن رزق هذا فقد استراح وأراح.

﴿وما يعقلها إلاّ العالمون﴾ [1].

أخبرنا أبو زُرعة، عن أبيه الحافظ المقدسى قال: أخبرنا عثمان بن عبد الله قال: أخبرنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الرحمن بن حمدان قال: حدثنا أبو حاتم الرازى، قال: حدثنا النضر بن عبد الجبار، قال: أخبرنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ الله تعالى أوحى إلىَّ أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى﴾[3] قال: «على البرِّ والتقوى والرهبة وذلّة النفس».

وكان من تواضع رسول الله ﷺ: أن يجيب دعوة الحرّ والعبد، ويقبلَ الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين[4].

وأخبرنا أبو زُرعة - إجازة - عن ابن خلف - إجازة - عن السلمى قال: أخبرنا أحمد بن على المقّرى، قال: أخبرنا محمد بن المنهال، قال: حدثنى أبى، عن محمد بن جابر اليمانى، عن سليمان بن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت، وتردّ على من سلّم عليك وأن ترضى بالدون من المجلس، وأن لا تحب المدحة والتزكية والبرّ».

---

(١) الآية ٤٣ من العنكبوت.

(٢) البخارى فى الأدب وابن ماجه عن أنس بسند صحيح وروى مسلم وأبو داود وابن ماجه عن فياض بن حماد وبسند صحيح: «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا تفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد».

(٣) آية رقم ٣١ من سورة آل عمران.

(٤) انظر شمائل الرسول لابن كثير، والترمذى.

وورد أيضًا عنه عليه الصلاة والسلام: «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذلّ في نفسه من غير مسكنة»[1].

سئل الجنيد عن التواضع، فقال: خفض الجناح ولين الجانب. وسئل الفضيل عن التواضع، فقال: تخضع للحق وتنقاد له، وتقبله ممن قاله، وتسمع منه. وقال أيضًا: من رأى لنفسه قيمةً فليس له في التواضع نصيب.

وقال وهب بن منبّه: «مكتوب في كتب الله: إنّي أخرجت الذرّ من صُلب آدم فلم أجد قلبًا أشدّ تواضعًا إليّ من قلب موسى عليه السلام؛ فلذلك اصطفيته وكلمته».

وقيل: من عرف كوامن نفسه لم يطمع في العلوّ والشرف، ويسلك سبيل التواضع؛ فلا يخاصم من يَذمُّه، ويشكر الله لم يحمده.

قال أبو حفص: من أحبّ أن يتواضع قلبُه فَلْيصحب الصالحين، ولْيلتزم بحرمتهم؛ فمن شدّة تواضعهم في أنفسهم يُقتدى بهم ولا يتكبّر.

وقال لقمان، عليه الصلاة والسلام: ولكل شيء مطيّة، ومطيّةُ، العمل التواضعُ.

وقال النوريّ[2] : خمسة أنفس أعزُّ الخلْق في الدنيا.

[عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سنيّ].

وقال الجلاد[3] : لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطر.

وقال يوسف بن أسباط، وقد سئل: ما غاية التواضع؟

قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدًا إلا رأيته خيرًا منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب – وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعامًا على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم في قيودهم – فلمّا مدّت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء. فجاء بهم، وأقعدهم على السفرة صفًا واحدًا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم، وقعد بينهم كالواحد منهم، فأكل وأكلوا، وظهر لنا على وجهه

---

(١) البخاري في التاريخ والبغوي والبارودي وابن قانع والطبراني والبيهقي عن ركب المصري بسند حسن.

(٢) وهو: أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، بغدادي المولد والمنشأ. من أذان الجنيد قال الخطيب البغدادي: هو أعلم العراقيين بلطائف القوم توفي سنة ٢٩٥هـ.

(٣) هو: أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاّد. بغدادي الأصل أقام بدمشق: صحب أبا تراب، وذا النون، وصحب هو أباه يحيى الجلاّد.

ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبرّ عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

أخبرنا أبو زُرعة، إجازة، عن أبى بكر بن خلف، إجازة، عن السلمى، قال: سمعت أبا الحسين الفارسى يقول: سمعت الجريرى يقول:

صحّ عند أهل المعرفة أن للدّين رأس مال: خمسة فى الظاهر، وخمسة فى الباطن.

فأما اللواتى **فى الظاهر**: فصدق فى اللسان، وسخاوة فى الملك، وتواضع فى الأبدان، وكفّ الأذى، واحتماله بلا إباء.

وأما اللواتى **فى الباطن**: فحبُّ وجود سيِّده، وخوف الفراق من سيِّده، ورجاء الوصول إلى سيده، والندم على فعله والحياء من ربّه.

وقال يحيى بن معاذ: التواضع فى الخَلق حسن، ولكن فى الأغنياء أحسن، والتكبر سمج فى الخلق، ولكن فى الفقراء أسمج.

وقال ذو النون: ثلاثة من علامات التواضع: تصغير النفس معرفةً بالعيب، وتعظيم النفس[1] حرمة للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد.

وقيل لأبى يزيد: متى يكون الرجل متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه حقًّا مًّا، ولا حالاً من علمه بشرّها، وازدرائها، ولا يرى أن فى الخلق شرًّا منه.

قال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمدَ من الكبر مع الأدب والسخاء.

وقيل لبعض الحكماء: هل تعرف نعمةً لا يُحسد عليها، وبلاءً لا يرحم صاحبه عليه؟ قال: نعم، أما النعمة فالتواضع، وأما البلاء فالكبر.

والكشف عن حقيقة التواضع: أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضّعة، فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره، والضعة وضع الإنسان نفسه مكانًا يزرى به ويفضى إلى تضييع حقّه.

وقد انفهم[2] من كثير من إشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء إلى حدٍّ أقاموا التواضع فيه مقام الضعة، ويلوح فيه الهوىُ من أوَج الإفراط إلى حضيض التفريط، ويُوهم

---

(١) وفى نسخة: وتعظيم الناس.

(٢) وفى نسخة: يفهم.

انحرافًا عن حدّ الاعتدال، ويكون قصدهم في ذلك: المبالغة في قمع نفوس المريدين خوفًا عليهم من العجب والكبر، فَقلَّ أن ينفك مريد في مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلماتٌ مؤذنة بالإعجاب، وكلٌّ ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال، وعدم الخروج إلى فضاء الصحو في ابتداء أمرهم، وذلك إذا حدق صاحب البصيرة نَظَرَةَ يعلم أنه من استرقاق[1] النفس السمع عند نزول الوارد على القلب، والنفسُ إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يجفو على الوقت وصلافة[2] الحال، فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب، كقول بعضهم: مَن تحت خضراء السماء مثلي؟. وقول بعضهم: قدمي على رقبة جميع الأولياء، وكقول بعضهم: أسرجتُ وألجمت وطُفت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز؟ فلم يخرج إليّ أحد. إشارة منه في ذلك إلى تفرّده في وقته.

ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله ﷺ، وتواضعهم واجتنابهم أمثال هذه الكلمات، واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشيء من ذلك، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه في الصحة، ويقال: إن ذلك طفح عليهم في سكر الحال وكلام السُّكارى يحمل.

فالمشايخ أرباب التمكن لمّا علموا في النفوس هذا الداء الدفين بالغوا في شرح التواضع إلى حدٍ ألحقوه بالصفة تداويًا للمريدين.

والاعتدال في التواضع: أن يرضى الإنسان بمنزلة دُوين[3] ما يستحقه، ولو أمن الشخص جموحَ النفس لأوقفها على حدٍ يستحقه من غير زيادة ولا نقصان.

ولكن لمّا كان الجموح في جبلّة النفس لكونها مخلوقة من صلصال[4] كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار — احتاجت للتداوي بالتواضع، وإيقافها دوين ما تستحقه؛ لئلا يتطرّق إليها الكبر.

فالكبر ظنُّ الإنسان أنه أكبر من غيره، والتكبّر إظهاره ذلك، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى، ومن ادّعاها من المخلوقين يكون كاذبًا.

---

(١) وفي نسخة: استراق. وهي أفصح.

(٢) الصلف: التكلم بما يكره، والتمدح بما ليس عنده وبما ليس فيه من الصفات، وتصلّف له: تكلّم بما لايرضاه.

(٣) دوين: تصغير دون.

(٤) يشير ذلك إلى قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار﴾.

والكبر يتولّد من الإعجاب، والإعجابُ من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة.

وقد عظم الله شأن الكبر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٢) وقد ورد يقول الله تعالى: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قصمته»(٣).

وفي رواية «قذفته في النار».

وقال تعالى ردًا للإنسان في طغيانه إلى حدّه.

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِق﴾(٥).

وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَه مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (٦).

وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين: أوَّلُكَ نطفةٌ مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة.

وقد نظم الشاعر هذا المعنى:

كيف يزهو من رجيعه(٧) أبَدَ الدهر ضجيعه!!

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره في بعض الجوارح، ويرشح الإناء بما فيه؛ فتارة يظهر أثره في العنق بالتمايل، وتارة في الخدِّ بالتصعير، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس﴾(٨) وتارة يظهر في الرأس عند استعصاء النفس، قال الله تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُم يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾(٩).

---

(١) الآية من سورة النحل: ٢٣.
(٢) الآية من سورة الزمر: ٦٠.
(٣) أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن عباس بسند صحيح.
(٤) أية رقم ١٨ من سورة لقمان.
(٥) آية رقم ٦ من سورة الطارق.
(٦) من سورة عبس الآيات ١٧، ١٨، ١٩.
(٧) الرجيع: الروث والقذرة.
(٨) آية ١٨ من سورة لقمان.
(٩) آية رقم ٥ سورة المنافقون.

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب [فكذلك] بعضها أكثف من البعض: كالتيه والزهو، والعزّة وغير ذلك، إلاّ أن العزّة تشتبه بالكبر من حيثُ الصورةُ، وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة، والتواضع محمود والضعة مذمومة، والكبر مذموم والعزّة محمودة، قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] والعزة غير الكبر، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه، فالعزّة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامُها: أن لا يضعها لأعراض عاجلة دنيوية، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها.

قال بعضهم للحسن: ما أعظمك فى نفسك! قال: لست بعظيم ولكنّى عزيز.

ولما كانت العزّة غير مذمومة، وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى:

﴿تَسْتَكْبِرونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2].

فيه إشارة خفيّة لإثبات العزّة بالحق، فالوقوف على حدّ التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوفٌ على صراط العزّة المنصوب على متن نار الكبر، ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه إلاّ أقدام العلماء الراسخين والسادة المقرّبين ورؤساء الأبدال والصديقين.

قال بعضهم: من تكبّر فقد أخبر عن نذالة نفسه، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه.

وقال الترمذىّ: التواضع على ضربين.

الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه؛ فإن النفس لطلب الراحة تتعلّى فى أمره، والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع.

والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله، فإن اشتهت نفسه شيئًا مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك. وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى.

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلاّ عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه؛ فعند ذلك تذوب النفس، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتطيع[3] للحق والخلق لمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها.

---

(١) آية ٨ سورة المنافقون.

(٢) آية ٢٠ من سورة الأحقاف.

(٣) وفى نسخة: وتنطبع.

وكان الحظّ الأوفر من التواضع لنبينا محمد ﷺ فى أوطان القرب، كما روى عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث الطويل، قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأخذنى ما يأخذ النساء من الغيْرة؛ طنًا منى أنه عند بعض أزواجه، فطلبته فى حُجَر نسائه فلم أجده، فوجدته في المسجد ساجدًا كالثوب الخلق، وهو يقول فى سجوده: «سجد لك سوادى وخيالى. وآمن بك فؤادى، وأقرَّ بك لسانى، وها أنذا بين يديك، يا عظيم، يا غافر الذنب العظيم»[1].

وقوله عليه السلام: «سجد لك سوادى وخيالى» استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلّف ذرّة منه عن السجود ظاهرًا وباطنًا.

ومتى لم يكن للصوفى حظٌ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفّر حظه فى التواضع للخلق، وهذه سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها، والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ومن أخلاق الصوفية: المداراةُ، واحتمال الأذى من الخلق.

وبلغ من مداراة رسول الله ﷺ: أنه وجد قتيلاً من أصحابه بين اليهود، فلم يَحِف[2] عليهم، ولم يزد على مرّ الحق بل وداه[3] بمائة ناقة من قبله، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به.

وكان من حسن مداراته أن لا يذمّ طعامًا، ولا ينهر خادمًا.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على، قال: أخبرنا أبو الفتح الكرخى، قال: أخبرنا أبو النصر الترياقى، قال: أخبرنا الجراحى، قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى، قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لى أفٍ قَطّ، وما قال لشيء صنعته لِم صنعته، ولا لشيء تركته لِم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، وما مسستُ خزًّا قط، ولا حريرًا، ولا شيئًا كان ألْيَن من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا قط، ولا عطرًا كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ»[4].

---

(١) الحاكم من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفى مسلم كان يقول فى السجود: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره وتبارك الله أحسن الخالقين.

(٢) لم يجر ولم يظلم.

(٣) وداه: دفع ديته.

(٤) متفق عليه.

فالمداراةُ مع كلِّ أحدٍ الأهــل والأولاد والجـيران والأصحـاب والخَلْـق كافَّـةً مـن أخـلاق الصوفية، وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفـس، وقـد قيـل: لكـل شـىء جوهـر، وجوهـر الإنسان العقل، وجوهرُ العقل الصبرُ.

أخبرنا أبو زُرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسـيّ قـال: أخبرنـا أبـو محمـد الصريفينـى قال: أخبرنا أبوالقاسم عبيدالله بن حبابة، قال: أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا على بن الجعد، قال: أخبرنا شعبه، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ، قلت: من هو؟ قال: ابـن عمـر عـن النبـى ﷺ أنه قال: «المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر علـى أذاهـم خـير مـن الـذى لا يخالطـهم ولا يصبر على أذاهم»[١] وفى الخبر: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضـم؟» قيـل: مـاذا كان كان يصنع أبو ضمضم؟.

قال: «كان إذا أصبح قال: اللهم إنى تصدقت اليـوم بعرضـى علـى مـن ظلمنـى، فمـن ضربنى لا أضربه، ومن شتمنى لا أشتمه، ومن ظلمنى لا أظلمه».

وأخبرنا ضيـاء الديـن عبد الوهـاب قـال: أخبرنـا أبـو الفتـح الهـروى، قـال: حدثنـا الترياقى، قال: أخبرنا الجـــراحى، قال: أخبرنا المحبوبى، قال: أخبرنـا أبـو عيسـى الترمذى، قال: حدثنا ابن أبى عمـر، قال: حدثنا سفيان عـن محمـد بـن المنكـدر، عـن عروة عن عائشـة رضـى الله تعالى عنـها، قـالت: استأذن رجـل علـى رسـول الله ﷺ، وأنا عنده، فقال: «بئس ابن العشيرة» «أو أخو العشيرة» ثـم أذن لـه، فـألان لـه القـولَ، فلمـا خـرج قلـت: يـا رسـول الله، قلـتَ لـه مـا قلـت، ثـم ألنـت لـه القـول. قـال ﷺ: «يا عائشة، إنّ من شرّ الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فُحشه».

وروى أبو ذرٍّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اتق الله حينما كنت وأتبع السـيئة الحسـنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[٢].

فما شيءٌ يُستدلُّ به علـى قُـوَّةِ عقـل الشـخص، ووفـور علمـه وحلمـه كحسـن المـدارة، والنفس لا تزال تشـمئز ممـن يعكـس مرادهـا؛ ويسـتفزُّها الغيـظ والغضـب وبـالمداراة قطـع حمة[٣] النفس وردّ طيشها ونفورها، وقد ورد: «من كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيّره فى أىّ الحور شاء»[٤].

---

(١) سنن ابن ماجه رقم ٤٠٣٢.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) تطاولها وغرورها.

(٤) رواه ابن ماجه رقم ٤١٨٦.

وروى جابر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ ، قال: «ألا أخبركم على من تحرم النار؟ على كلّ هيّن (لين) سهل، قريب»[١].

وروى أبو مسعود الأنصارى، رضى الله عنه قال: أتى النبى عليه الصلاة والسلام برجل، فكلّمه، فَأرعد[٢] ، فقال: «هوّن عليك؛ فإنى لست بملَكٍ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية:

هينون ليّنون أيسار بنو يسر ... سوّاس مكرمة أبناء أيسار

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون، إن ماروا، بإكثار

مَن تلق منهم تقل: لا قيتُ سيّدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من أعطى حظّه من الرفق أعطى حظّه من الخير، ومن حرم حظّه من الرفق فقد حرم حظّه من الخيْر»[٣].

حدّثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاءً قال: حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى، قال: أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله الحموى السرخسى، قال: أخبرنا أبو عمر أن عيسى بن عمر السمرقندى قال: أخبرنا عبدالله بن عبد الرحمن الدرامى قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن أبى خلف قال: حدثنا عبد الرحمن بن محمد، عن محمد بن إسحق قال: حدثنى عبد الله بن أبى بكر، عن رجل من العرب قال: زَحمت رسول الله ﷺ يوم حنين، وفى رجلى نعلٌ كثيفة، فوطئت بها على رجل رسول الله ﷺ ، فنفحنى نفحة بسوط فى يده وقال «بسم الله أوجعتنى» قال: فبتّ لنفسى لائمًا أقول: أوجعتُ رسول الله ﷺ ، قال: فبت بليلة كما يعلم الله فلما أصبحنا إذا برجل يقول: أين فلان؟ قلت: هذا والله الذى كان منّى بالأمس، قال: فانطلقت وأنا متخوّف فقال لى: إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى، فنفحتك نفحةً بالسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها بها»[٤].

---

(١) رواه أحمد والترمذى وقال حسن غريب.

(٢) أرعد بضم الهمزة: أخذته الرعدة فارتعد واضطرب واهتز، والحديث عند ابن ماجة رقم ٣٣١٢.

(٣) رواه فى شرح السنة ورواه الحكيم عن عائشة .

(٤) راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٣٥٥.

الإيثار

ومن أخلاق الصوفية: الإيثارُ، والمواساةُ، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعًا، وقوة اليقين شرعًا لأنهم (يؤثرون لموجود ويصبرون عن المفقود)[1].

قال أبو يزيد البسطامي: «ما غلبني أحدٌ ما غلبني شاب من أهل «بلخ» قَدِم علينا حاجًّا، فقال لي: يا أبا يزيد، ما حدّ الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: وما حدّ الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا».

وقال ذو النون المصري: «من علامة الزاهد المشروح صوره ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار بالقوت[2].

روى عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [3].

وروى لأبوهريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، وقد أصابه جهد، فقال: يا رسول الله إني جائع فأطعمني، فبعث رسول الله ﷺ إلى أزواجه: «هل عندكن شيء؟» فكلتهن قلن: والذي بعثك بالحق نبيا ما عندنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة»! ! ثم قال: «من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله» فقال رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله؛ فأتي به منزله فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله ﷺ فأكرميه ولا تدخرى عنه شيئا، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية! ! فقال: فقومى علليهم[4] عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئا، ثم أسرجى، فإذا أخذ الضيف ليأكل فقومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضغ ألسنتنا

---

(١) وهذا مما أبلغ ما جاء في بعض النسخ: لأنهم يؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود.

(٢) وفى نسخة: والإيثار عن القوت.

(٣) آية ٩ من سورة الحشر، والحديث رواه الحاكم في الإكليل.

(٤) علليهم: ألهيهم وأبعديهم.

لضيف رسول الله ﷺ حتى يشبع ضيف رسول الله، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئًا، ثم قامت فأثردت، وأسرجت، فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته، فجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله ﷺ وظن الضيف أنهما يأكلان معه، حتى شبع الضيف، وباتا طاويين، فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ ، فلما نظر إليهما تبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة» وأنزل الله تعالى: ﴿ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

قال أنس رضى الله تعالى عنه: أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى، وكان مجهودًا، فوجّه به إلى جار له، فتداوله سبعة أنفس، ثم عاد إلى الأول، فأنزلت الآية لذلك.

وروى أن أبا الحسن الأنطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلاً بقرية من بقرب «الرىّ» وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة معهم،فكسروا الرغفان،وأطفئوا السراج، وجلسوا للطعام؛ فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل أحدٌ منهم؛ إيثارًا منه على نفسه.

وحكى عن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلىّ. أنْ نعم، فإذا رجل يقول: آه فقال ابن عمى: انطلق به إليه، فجئت إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمع هشام آخر يقول: آه، فقال: انطلق به إليه. فجئت إليه فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضًا قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمى فإذا هو أيضًا قد مات.

وسئل أبو الحسين البوشنجى[2] عن الفتوّة؟ فقال: الفتوّة عندى ما وصف الله تعالى به الأنصار فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمَانَ ﴾ .

قال ابن عطاء: ﴿ يؤثرون على أنفسهم ﴾ جودًا وكرمًا ﴿ وَلَوْ كَان بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعنى: جوعًا وفقرًا.

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

(٢) هو: أبو الحسن على بن أحمد بن سهل البوشنجى، نسبة إلى «بوشنج» وهى بلدة تقع على بعد سبعة فراسخ من «هراة». وهو أحد فتيان خراسان. لقى ابن عطاء والجريرى وأبا عمرو الدمشقى، مات سنة: ٣٤٨هـ.

قال أبو حفص: الإيثار: هو أن يقدّم حظوظ الإخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة.

وقال بعضهم: الإيثار لا يكون عن اختيار، إنما الإيثار أن تقدّم حقوق الخلق أجمع على حقّك، ولا تميّز في ذلك بين أخ أو صاحب، وذى معرفة.

وقال يوسف بن الحسين[1]: من رأى لنفسه مِلكًا لا يصحُّ منه الإيثار؛ لأنه يرى نفسه أحقَّ بالشيء برؤية ملكه؛ إنما الإيثار ممن يرى الأشياء كلّها للحق؛ فمن وصل إليه فهو أحق به، فإذا وصل شيء من ذلك إليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصّلها إلى صاحبها، أو يؤديها إليه.

وقال بعضهم: حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظّ آخرتك على إخوانك؛ فإن الدنيا أقل خطرًا من أن يكون لإيثارها محل أو ذكرٌ.

ومن هذا المعنى: ما نقل أن بعضهم رأى أخًا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه، فأنكر أخوه ذلك منه فقال: يا أخي سمعت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة: تسعون لأكثرهما بشرًا وعشرة لأقلهما بشرًا»[2] فأردت أن أكون أقلّ بشرًا منك ليكون لك الأكثر.

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم، إجازة، قال: أخبرنا أبو حفص عمر بن الصفّار النيسابوري، وقال: أخبرنا أبوبكر أحمدبن خلف الشيرازي، قال: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، قال: سمعت أبا القاسم الرازي يقول: سمعت أبا بكر بن أبي سعدان يقول: «من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس، ولا قلب، ولا ملك، فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده».

وقال سهل بن عبد الله: الصوفيّ: مَن يرى دمه هدرًا، وملكه مباحًا.

وقال رويم[3]: التصوّف مبنيّ على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرّض والاختيار.

---

(١) هو: يوسف بن الحسين «أبو يعقوب» الرازي. كان عالمًا أديبًا صحب ذا النون المصري وأبا تراب النخشبي، مات سنة ٣٠٤هـ، ومن أقواله أنه كتب إلى الجنيد يقول: لا أذاقك الله طعم نفسك فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرا أبدًا.

(٢) رواه الحكيم وأبو الشيخ عن عمر ورمز السيوطي لحسنه بنحوه.

(٣) هو: أبو محمد رويم بن أحمد بغدادي، من أجلّ مشايخ التصوف كان مقرئًا وفقيهًا، مات سنة ٣٠٣هـ.

قيل: لمّا سُعِي بالصوفية وتميزّ الجنيد بالفقه وقبض على الشحّام، والرّقـام، والنّـورى، وبسط النطع[1] لضرب رقابهم.

تقدم النورى، فقيل له: إلى ماذا تبادر؟ فقال: أوثر إخوانى بفضل حياة ساعة.

وقيل: دخل الروذبارى دار بعض أصحابه، فوجـده غائبًـا وبـاب بيتـه مغلـق، فقـال: صوفىّ وله باب مغلق!! اكسروا الباب، فكسروه، وأمر بجميع مـا وجـدوا فـى البيـت أن يباع، فأنقذوه إلى السوق، واتخذوا رفقًا[2] من الثمن وقعدوا فى الدار فدخل صاحب المـنزل ولم يقل شيئًا، ودخلت امرأته وعليها كساء، فدخلت بيتًـا فرمـت بالكسـاء وقـالت: هـذا أيضًا من بقية المتاع فبيعوه، فقال الزوج لها: لمَ تكلفت هذا باختيـارك؟ قـالت: اسـكت. مثل الشيخ بباسطنا، ويحكم علينا، ويبْقى لنا شىء ندخره عنه!!.

وقيل: مرض قيس بن سعد، فاستبطأ إخوانه فى عيادته، فسأل عنـهم، فقـالوا: إنـهم يستحيون بما لك عليهم من الدَّين فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادى، من كان لقيس مالٌ فهو منه فى حل.. فكسرت عتبة داره بالعشـىّ؛ لكـثرة عوّاده.

وقيل: أتى رجل صديقًا له ودق عليه البـاب، فلمـا خـرج قـال: لمـاذا جئتنـى؟ قـال: لأربعمائة درهم دين علىّ.. فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم، وأخرجها إليه ودخل الـدار باكيًا؛ فقالت امرأته: هلاّ تعلّلت حين شقّ عليك الإجابة؟!.

فقال: إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحنى.

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة، عن أبيه الحافظ المقدسى، قال: أخبرنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان، قال: حدثنا أبو عبـدالله الجرجـانى، قـال: حدثنـا أبوطـاهر محمـد بـن الحسن المحمدابادى، قال: حدثنـا أبوالبحـترى، قـال: حدثنـا أبوأسـامة قـال: حدثنـا زيد بـن أبـى بـردة، عـن أبـى موسـى قـال: فقـال رسـول الله ﷺ: «إن الأشـعريين إذا أرملوا[3] فى الغزو وقلّ طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموا فـى إناء واحد بالسويّة، فهم منّى وأنا منهم».

---

(١) النطع: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس.

(٢) فى بعض النسخ: وقتًا.

(٣) فقد زادهم والحديث متفق عليه.

وحدّث جابر، عن رسول الله ﷺ : أنه إذا أن يغزو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قومًا ليس لهم مال ولا عدة؛ فليضم أحدكم إليه الرجل أو الرجلين والثلاثة، فما لأحدكم من ظهر جمله إلاّ عقبة كعقبة أحدهم».

قال: فضممت إلى اثنين أو ثلاثة ما لى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جمله[١].

وروى أنس قال: لمّا قدم عبد الرحمن بن عوف المدينةَ آخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، فقال له: أقاسمك مالى نصفين، ولى امرأتان فأطلقّ إحداهما، فإذا انقضت عدّتُها فتزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك[٢].

فما حمل الصوفيَّ على الإيثار إلاّ طهارةُ نفسه وشرفُ غريزته، وما جعله الله تعالى صوفيًا إلاّ بعد أن سوّى غريزته لذلك، وكلّ من كانت غريزته السخاء، والسخيُّ يوشك أن يصير صوفيًا؛ لأن السخاء صفة الغريزة، وفي مقابلته الشحّ، والشحُّ من لوازم صفة النفس، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٣].

حكم بالفلاح يُوقى الشحّ، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل؛ فقال: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [٤] ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥].

والفلاح: أجمع اسم لسعادة الدارين، والنبى ﷺ نبّه بقوله: «ثلاث مهلكات.. وثلاثة منجيات» فجعل إحدى المهلكات شحًّا[٦] مطاعًا، ولم يقل مجرّد الشحّ يكون مُهلكًا بل يكون مهلكا إذا كان مطاعًا، فأمّا كونه موجودًا فى النفس غير مطاع فإنه لا ينكر ذلك، لأنه من لوازم النفس، مستمدًّا من أصل جبلّتها التراب، وفى التراب قبضٌ وإمساكٌ، وليس ذلك بالعجب من الآدمى وهو جبلّى فيه، وإنما العجب وجود السخاء فى الغريزة، وهو لنفوس الصوفية الداعى لهم إلى البذل والإيثارُ والسخاءُ أتمُّ وأكمل من الجود؛ ففى مقابلة الجود البخلُ، وفى مقابلة السخاء الشح. والجود والبخلُ يتطرّق إليهما الاكتسابُ

---

(١) روى مسلم عن أبى سعيد أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ من زاد فليعد به على من لا زاد له، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل».

(٢) رواه البخارى.

(٣) آية رقم ٩ من سورة الحشر.

(٤) آية رقم ٣ من سورة البقرة.

(٥) آية ٥ من سورة البقرة.

(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر.

بطريق العادة، بخلاف الشحّ والسخاء إذا كـان مـن ضرورة الغريـزة، وكـلُّ سـخيّ جـوادٌ وليس كل جواد سخيا.

والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء؛ لأنه السخاء من نتيجة الغرائز، والله تعالى منزّه عن الغريزة.

والجود يتطرّق إليه الرياء، ويأتي به الإنسـان متطلّعـا إلى عـوض مـن الخلـق أو الحـق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى.

والسخاء لا يتطرّق إليه الرياء؛ لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعـواض دنيـا وآخرة؛ لأن طلب العوض مشعرٌ بالبخل لكونه معلولاً بطلب العوض، فما تمحّض سـخاء، فالسخاء لأهل الصفاء، والإيثار لأهل الأنوار.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿إنمَا نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[1] أنه نفى في الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قـال: ﴿لا نريـد﴾ بعـد قولـه: ﴿لوجـه الله﴾ فما كان لله لا يشعر بطلب العوض، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحـق لا لعوض، وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز.

روت أسماء بنت أبى بكر قالت : قلت يا رسول اللّه ، ليس لى من شىء إلاّ ما أدخل علىّ الزبير أفأعطى ؟ قال : « نعم لا تُوكى[2] فيوكى عليك » .

ومن أخلاق الصوفية : التجاوز ، والعفو ، ومقابلة السـيئة بالحسـنة ، قـال سـفيان : الإحسان : أن تحسن إلى مـن أسـاء إليـك ؛ فـإن الإحسـان إلى المحسـن متـاجرة ، كنقد السوق : خذ شيئًا وهات شيئًا .

وقال الحسن : الإحسان : أن تعمَّ وَلا تخصّ : كالشمس ، والريح والغيث .

وروى أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : (رأيت قصورًا مشرفة على الجنة ، فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال : ﴿للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ .

روى أبو هريرة رضى اللّه تعالى عنه : أن أبا بكر رضى اللّه عنه كان مع النبى ﷺ فى مجلس فجاء رجل فوقع[3] فى أبى بكر وهو ساكت ، والنبى ﷺ يبتسم ، ثم ردّ أبـو بكـر عليه بعض الذى قال ، فغضب النبى ﷺ وقام فلحقه أبو بكر ، فقال : يـا رسـول اللّـه ،

(١) آية رقم ٩ سورة الإنسان.

(٢) لا توكى : لا تبخلى أو تتشددى .

(٣) عابه وشتمه .

شتمنى وأنت تبتسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت ، فقال : (إنك حيث كنت ساكتًا كان معك ملك يردّ عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان ، يا أبا بكر ، ثلاث كلّهن حقّ : ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعزّ اللهُ نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرةً إلا زاده الله قلّة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة)[١] .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال : أخبرنى الكرخى قال : أخبرنا الترياقى قال : أخبرنا الجراحى قال : أخبرنا المحبوبى قال : أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال : حدثنا أبو هشام الرقاعى قال : حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبدالله بن جميع ، عن أبى الطفيل ، عن حذيفة ، قال : رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمَّعة تقولون : إن أحسن الناس أحسنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»[٢] .

وقال بعض الصحابة : يا رسول الله ، الرجل أمرُّ به فلا يُقْرينى ، ولا يضيفنى ، فيمرّ بلا ، أفأجزيه ؟ قال : (لا ، أقْرِه) .

وقال الفضيل : الفتوَّةُ : الصفح عن عثرات الإخوان . وقال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ المكافىء ، ولكنَّ الواصل الذى إذا قطعتْ رحمَه وصلها»[٣] .

وروى عن رسول الله ﷺ : «من مكارم الأخلاق : أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطى من حرمك»[٤] .

ومن أخلاق الصوفية : البشر ، وطلاقة الوجه ، الصوفىّ بكاؤه فى خلوته ، وبشرُه وطلاقةُ وجهه مع الناس ؛ فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه . وقد تنازل باطنَ الصوفىّ منازلاتٌ إلَهيةٌ ومواهبُ قدسيّة يرتوى منها القلب ويمتلىء فرحًا وسرورا ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[٥] والسرور إذا تمكنّ من القلب فاض على الوجه

---

(١) رواه أبو داود مختصرًا مرسلاً ومتصلاً وذكر البخارى أن الرسل أصح .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب البر .

(٣) رواه أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمرو .

(٤) رواه الحاكم فى تاريخه عن أنس .

(٥) آية رقم ٥٨ من سورة يونس .

آثارُه قال اللّه تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مسْفِرَةٌ﴾[١] أى : مضيئة مشرقة ﴿ضاحكة مستبشرة﴾[٢] أى : فرحة . قيل : أشرفت من طول ما اغبرّت فى سبيل اللّه ..

ومثالُ فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة ؛ فالوجه مشكاة ، والقلب زجاج ، والروح مصباح ، فإذا تنعّم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه قال اللّه تعالى : ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[٣] : نضارته وبريقه ، يقال : انظر النبات إذا أزهر ونوّر : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٤] فلما نظرت نضرت ؛ فأرباب المشاهدة من الصوفية تنوّرت بصائرهم بنور المشاهدة ، وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الأزلىّ ، وإذا أشرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران ، قال اللّه تعالى : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[٥] ، وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال ، وهى القوالب فى قول اللّه تعالى : ﴿وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[٦] كيف لا يتأثر بشهود الجمال ؟

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على ؛ أخبرنا الكرخى قال : أخبرنا الترياقى ، قال : أخبرنا الجراحى قال : أخبرنا المحبوبى قال : أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال : حدثنا قتيبة قال : حدثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه مطلق ، وأن تُفْرِغ من دلوك فى إناء أخيك»[٧] .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدى : يعجبنى من القراء كلُّ سهل طلق مضحاك ، فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمنّ عليك ، فلا أكثر اللّه فى القرّاء مثلّه .

ومن أخلاق الصوفية : السهولة ، ولين الجانب ، والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم ، وترك التعسّف والتكلّف ، وقد رُوى فى ذلك عن رسول اللّه ﷺ أخبارٌ .

---

(١) من سورة عبس الآية ٣٨ .

(٢) من سورة عبس الآية ٣٩ .

(٣) آية رقم ٢٤ من سورة المطففين .

(٤) آية رقم ٢٢ من سورة القيامة .

(٥) آية رقم ٢٩ من سورة الفتح .

(٦) آية رقم ١٥ من سورة الرعد .

(٧) رواه أحمد والترمذى والحاكم .

وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق رسول الله ﷺ ، وكان يقول ﷺ : (أما إنى أمزح ولا أقول إلاّ حقًا)[١] .

روى أن رجلاً يقل له (زاهر بن حرام) وكان بدويًا ، وكان لا يأتى إلى رسول الله ﷺ إلاّ جاء بطُرفة يهديها إلى رسول الله ﷺ فجاء يومًا من الأيام فوجده رسول الله ﷺ فى سوق المدينة يبيع سلعة له ، ولم يكن أتاه ذلك اليوم، فاحتضنه النبىُّ ﷺ من ورائه بكفيه، فالتفت فأبصر النبىّ ﷺ ، فقبّل كفيه ، فقال النبىّ ﷺ : (من يشترى العبد ؟ فقال : إذن تجدنى كاسدًا يا رسول الله ؟ فقال : (ولكن عبد الله ربيح) ثم قال ﷺ «لكل أهل حضرٍ باديةٌ ، وباديةُ آل محمد زاهر بن حرام»[٢] .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى ، عن أبيه ، قال : أخبرنا المظهر بن محمد الفقيه، أخبرنا أبو الحسن قال : أخبرنا أبو عمرو بن حكيم قال : أخبرنا أبو أمية قال : حدثنا عبيد بن إسحق العطار قال: حدثنا سنان بن هارون، عن حميد، عن أنس، قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، احملنى على جمل ، فقال : (أحملك على ابن الناقة) قال : أقول لك احملنى على جمل وتقول أحملك على ابن ناقة ؟ فقال ﷺ (فالجمل ابن الناقة)[٣] .

وروى صهيب قال : أتينا رسول الله ﷺ وبين يديه تمر يأكل فقال : (أصب من هذا الطعام) فجعلت آكل من التمر فقال : (أتأكل وأنت رمد ؟) فقلت : إذن أمضغ من الجانب الآخر ، فضحك رسول الله ﷺ .

وروى أنس : أن رسول الله ﷺ قال له ذات يوم : (يا ذا الأذنين)[٤] .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى البيت ؟ قالت : كان ألْيَن الناس ، بسّامًا ضحّاكًا .

وروت أيضًا أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته ، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها ، فقال : (هذه بتلك) .

---

(١) رواه الطبرانى عن ابن عمر والخطيب عن أنس ورمز السيوطى لحسنه .

(٢) راجع أسد الغابة فى ترجمة زاهر بن حرام فقد ذكر هذه القصة .

(٣) أحمد وأبو داود والترمذى .

(٤) أحمد ،ابو داود والترمذى عن أنس .

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال : أخبرنا أبو الفتح الهروى قال : أخبرنا أبو نصر الترياقىّ قال : أخبرنا أبو محمد الجراحى قال : أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال : أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال : حدثنا عبد اللّه بن الوضاح الكوفى قال : حدثنا عبد اللّه بن أبى التياح عن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال : كان رسول اللّه ﷺ ليخاطبنا حتى إنه كان يقول لأخ له صغير : (يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟)[1] .

والنغير : عصفور صغير .

وروى أن عمر سابق زبيرًا ، رضى اللّه عنهما ، فسبقه الزبير فقال : سبقتك وربّ الكعبة ، ثم سابقه مرّة أخرى فسبقه عمر ، فقال عمر : سبقتك وربّ الكعبة .

وروى عبد اللّه بن عباس قلا : قال لى عمر : تعال أنافسك فى الماء أيّنا أطول نَفَسًا ، ونحن مُحرِمون .

وروى بكر بن عبد اللّه قال : كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال .

يقال : بَدَحَ بيدح : إذا رمى ، أى : يترامون بالبطيخ .

وأخبرنا أبز زرعة ، عن أبيه ، قال : أخبرنا الحسن بن أحمد الكرخى ، قال : حدثنا أبوطالب محمد بن محمد بن إبراهيم قال : حدثنا أبوبكر محمد بن محمد بن عبداللّه قال : حدثنى إسحق الحربى ، قال : حدثنا أبوسلمة قال : حدثنا حماد بن خالد ، أخبرنا محمد عمرو بن علقمة ، قال : حدثنا أبوالحسن بن محيض الليثى ، عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة قال : إن عائشة رضى اللّه عنها قالت : (أتيت النبى ﷺ بـ(حريرة) طبختها له ، وقلت لسودة والنبى ﷺ بينى وبينها : كُلى . فأبت ، فقلت لها : كلى . فأبت ، فقلت : لتأكلنّ ، أو لألطخنّ بها وجهك ، فأبت . فوضعت يدى على الحريرة فلطخّت بها وجهها ، فضحك النبى ﷺ ، فمرّ عمر ، رضى اللّه تعالى عنه ، على الباب فنادى : يا عبداللّه ، فظنّ النبى ﷺ أنه سيدخل ، فقال : (قُوما فاغسلا وجهيكما) ، فقالت عائشة رضى الله عنها : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إيّاه .

ووصف بعضهم ابن طاووس فقال : كان مع الصبى صبيًّا ، ومع الكهل كهلاً ، وكان فيه مزاحة إذا خلاً .

---

(١) أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أنس .

وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين ، وكان يقول ونمزح عنده ، ويمازحنا ، وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك ، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكى .

فهذه الأخبار ، والآثار ، دالّةٌ عل حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية ، وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الرُّبط ، وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم إلى سعة رحمة اللّه .

فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال ، واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال ، ولا يقف فى هذا المعنى على حدّ الاعتدال إلاّ صوفىٌّ قاهرٌ للنفس ، عالم بأخلاقها وطباعها ، سائسٌ لها بوفور العلم ، حتى يقف فى ذلك صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين المبتدئين ؛ لقلّة علمهم ومعرفتِهم بالنفس وتعدّيهم حدّ الاعتدال ؛ فللنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات تجرّ إلى الفساد وتجنح إلى العناد ، فالنزول إلى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقّى لعلو حاله ومقامه ، فينزل إليهم وإلى طباعهم حين ينزل بالعلم .

فأمّا من لم يصعد بصفاء حاله عنهم ، وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم الجامحة الأمّارة بالسوء ، إذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظّها ، واغتنمت مآربها ، واستروحت إلى الرخصة . والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته ، وليس ذلك شأن المبتدئ ؛ فللصوفية العلماء — فيما ذكرناه — ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك . والشيء إذا وضع للحاجة يتقدّر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكلّ أحد .

قال (سعيد بن العاص) لأبنه : اقتصد فى مزاحك ؛ فالإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرّئ عليك السفهاء ، وتركه يغيظ المؤانسين ، ويوحش المخالطين .

قال بعضهم : المزاح مسلبة البهاء ، مقطعة للإخاء .

وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك ، والضحك من خصائص الإنسان ، ويميّزه عن جنس الحيوان، ولا يكون الضحك إلاّ عن سابقة تعجّب، والتعجب يستدعى الفكر، والفكر شرف الإنسان وخاصيته، ومعرفة الاعتدال فيه أيضًا شأن من ترسخ قدمه فى العلم، ولهذا قيل: إياك وكثرة الضحك فإنها تميت القلب.
وقيل : كثرة الضحك من الرعونة .

وروى عن عيسى عليه السلام أنـه قـال : (إن اللّـه تعـالى يبغـض الضحّـاك مـن غـير عجب ، والمشّاء فى غير أرب) .

وذُكر فـرق بـين المداعبـة والمـزاح ، فقيـل : المداعبـة مـا لا يغضـب جـدّه ، والمـزاح ما يُغضب جدّه .

وقد جعل أبو ضيفة ، رحمه الله ، القهقهة فى الصلاة مـن الذنـب . وحَكَم ببطـلان الوضوء بها ، وقال : يقوم الإثم مقام خروج الخارج .

فالاعتدال فى المزاح والضحك لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة ؛ فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه المضـايق بعـض التقويـم ، فيعتـدل الحـال فيـه ويستقيم ، فالبسط والرجاء ينشئان المـزاحَ والضحـكَ ، والخـوفُ والقبضُ يحكمـان فيـه بالعدل .

ومن أخلاق الصوفية : ترك التكلفّ ؛ وذلك أن التكلّف تصنّـع وتعمّـل وتمـايل علـى النفس لأجل النـاس ، وذلك يباين حال الصوفية وفى بعضه خَفَىٌّ منازعةٍ للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبّار .

ويقال : التصوف ترك التكلّف ، ويقال : التكلّـف تخلّـف ، وهـو تخلّـف عـن شأو الصادقين .

روى أنس بن مالك قال : شهدت وليمة لرسول اللّه ﷺ ما فيها خبزٌ ولا لحم .

وروى عن جابر : أنه أتاه ناس من أصحابه فأتـاهم بخـبز وخـلّ وقـال : كلـوا فـإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «نعم الإدامُ الخلُّ» .

وعن سفيان بن سلمة قال : دخلت على (سـلمان الفارسـىّ) فـأخرج إلىّ خـبزًا وملحًـا وقال : كل ، لولا أن رسول اللّه ﷺ نهانا أن يتكلّف أحدٌ لأحد لتكلّفت لك .

والتكلف مذموم فى جميع الأشياء ؛ كـالتكلّف بـالملبوس للنـاس مـن غـير نيـة فيـه ، والتكلّف فى الكلام ، وزيادة التملّق الذى صار دأب أهل الزمان ، فما يكاد يسلم من ذلك إلاّ آحاد وأفراد . وكم من متملق لا يعرف أنه تملق ولا يفطن له ؛ فقد يتملق الشخص إلى حدّ يخرجه إلى صريح لنفاق ، وهو مباينٌ لحال الصوفىّ .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبـد الوهـاب بـن علـى ، قـال : أخبرنـا أبـو الفتح الهروى ، قال : أخبرنا أبو نصر الترياقى قال : أخبرنـا أبـو محمـد الجراحـى ، قـال :

أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا أحمد بن منيع قال: حدثنا يزيد بن هارون، عن محمد بن مطرف، عن حسان بن عطية، عن أبى أمامة عن النبى اللّٰه ﷺ قال: «الحياء والعىّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»[١].

البذا : الفحش . وأراد بالبيان هنا : كثرة الكلام والتكلّف للناس بزيادة تملّق وثناءٍ عليهم وإظهار التفصّح ، وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبى وائل قال : مضيت مع صاحب لى نزور سلمان ، فقدّم إلينا خبز شعير ، وملحًا جريشًا ، فقال صاحبى : لو كان فى هذا الملح (سعتر)[٢] كان أطيب . فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعترًا . فلما أكنا قال صاحبى : الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة ، وفى هذا من سلمان : ترك التكلّف قولاً وفعلاً .

وفى حديث يونس النبى عليه السلام : أنه زاره أخوانه فقدّم إليهم كسرًا من خبز شعير ، وحزّ لهم بقلاً كان يزرعه ثم قال : لولا أن الله لعن المتكلّفين لتكلّفت لكم .

قال بعضهم : إذا قُصدت للزيارة فقدّم ما حضر ، وإذا استزرت فلا تُبقى ولا تَذر .

وروى الزبير بن العوام قال : نادى منادى رسول اللّٰه ﷺ يومًا (اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتى ولا يتكلفون ، ألا إنى برىء من التكلف ، وصالحوا أمتىّ)[٣] .

وروى أن عمر ﷺ قرأ قوله تعالى : ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[٤] . ثم قال ﷺ: هذا كلّه قد عرفناه ، فما الأبّ ؟ قال : وبيد عمر عصاة فضرب بها الأرض ثم قال: هذا لعمر الله هو التكلّف ، فخذوا أيها الناس ما بُيّن لكم منه فما عرفتم اعملوا به ، وما لم تعرفوا فكِلوا علمه إلى اللّٰه .

ومن أخلاق الصوفية : الإنفاق من غير إقتار ، وتركُ الادخار ؛ وذلك أن الصوفى يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطىء بحر ، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخّر الماء فى قِربته وراويته[٥] .

---

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم .

(٢) نبات طيب الرائحة .

(٣) روى البخارى عن عمر قال : نهينا عن التكلف .

(٤) الآيات من سورة عبس من ٢٧ – ٣١ .

(٥) الرواية الدابة التى تحمل الماء : جاء فى المصباح المنير : روى البعير الماء : حمله ، فهو راوية الهاء فيه للمبالغة ، ثم أطلقت الراوية على كل دابة يستقى الماء عليها .

روى أبو هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : ﴿ما من يوم إلا له ملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفًا وأعط ممسكًا تلفا﴾[١] .

روى أنس قال : كان رسول اللَّه ﷺ لا يدّخر شيئًا لغد .

وروى أنه أهدى لرسول اللَّه ﷺ ثلاث (طوائر) فأطعم خادمه طيرًا ، فلما كان الغد أتاه به فقال رسول اللَّه ﷺ : (ألم أنهك أن تخبأ شيئًا لغد فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد)[٢].

وروى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ دخل على بلال وعنده «صبرة»[٣] من تمر، فقال: ما هذا يا بلال؟ فقال: دخر يا رسول الله. قال: «أما تخشى، أنفق بلالاً، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً»[٤].

وروى أن عيسى بن مريم، عليه السلام، كان يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويبيت حيث أمسى، ولم يكن له ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا يخبئ شيئًا لغد.

فالصوفيُّ كلّ خباياه في خزائن الله؛ لصدق توكّله، وثقته بربّه، فالدنيا للصوفى كدار الغربة: ليس له فيها ادّخار، ولا له منها استكثار. قال عليه الصلاة والسلام: «لو توكلتم على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[٥].

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى، قال: أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله السرخسى، قال: أخبرنا عبد الله بن الرحمن الداوودى قال: أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان، عن ابن المنكدر، عن جابر قال: (ما سئل النبى ﷺ شيئًا قط فقال لا) قال ابن عيينة: إذا لم يكن عنده وعد[٦].

وبالإسناد عن الدارمى قال: أخبرنا يعقوب بن حميد قال: أخبرنا عبد العزيز بن محمد، عن ابن أخي الزهرى قال: إن جبريل عليه السلام قال: ما فى الأرض أهل عشيرة من أبيات إلاّ قلّبتهم؛ فما وجدت أحدًا أشد إنفاقًا لهذا المال من رسول الله ﷺ .

---

(١) متفق عليه .

(٢) روى الترمذى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يدخر شيئًا لغد وصححه السيوطى .

(٣) الصبرة: بضم الصاد: ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن، يقال أخذه صُبرة أى جملة.

(٤) رواه البزار والطبرانى ورمز السيوطى الحسنه.

(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٦) روى الحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يسأل شيئًا إلا أعطاه أو سكت.

ومن أخلاق الصوفية: القناعة باليسير من الدنيا. قال ذو النون المصرى: مَن قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه.

وقال بشر بن الحارث: لو لم يكن فى القناعة إلاّ التمتع بالعزّ لكفى صاحبه.

وقال بنان الحمال:

الحرّ عبدٌ ما طمع والعبد حر ما قنع

وقال بعضهم: انتقم مِن حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوّك بالقصاص.

وقال أبو بكر المراغي: العاقل: مَن دبّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف، ودبّر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل.

وقال يحيي بن معاذ: مَن قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة، وطاب عيشه.

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب، كرّم الله وجهه، : القناعة سيف لا ينبو.

أخبرنا أبو زرعة، عن أبيه أبى الفضل قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الخلال ببغداد قال: أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال: حدثنا أبو القاسم البغوى قال: حدثنا محمد بن عباد قال: حدثنا أبو سعيد، عن صدقة بن الربيع، عن عمارة بن غرية عن عبد الرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على الأعواد[1] يقول: «ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى»[2].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافًا ثم صبر عليه»[3] روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ دعا وقال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا».

وروى جابر رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «القناعة مال لا ينفد»[4].

وروى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال: «كونوا أوعية الكتاب، وينابيع الحكمة، وعدوا أنفسكم فى الموتى، واسألوا الله تعالى الرزق يومًا بيوم، ولا يضركم أن لا يكثر لكم».

---

(١) المنابر.

(٢) أخرجه أبو يعلى، والضياء فى المختارة عن أبى سعيد وقال السيوطى حديث صحيح.

(٣) رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه.

(٤) رواه القضاعى عن أنس بسند ضعيف.

وأخبرنا أبو زرعة طاهر، عن أبى الفضل والده قال: أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله الشاوى قال: أخبرنا أحمد بن على الحافظ قال: أخبرنا أبو عمرو بن حمدان قال: حدثنا الحسن بن سفيان قال: حدثنا عمرو بن مالك البصرى قال: حدثنا مروان بن معاوية قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبى سلمة الأنصارى، قال: أخبرنى سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه قال:

قال رسول الله ﷺ : «من أصبح آمنًا فى سربه معافىً فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما خيرت له الدنيا»[١].

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٢] هى القناعة .

فالصوفىّ قوّام على نفسه بالقسط، عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتواصل إلى استخراج ذلك من النفس؛ لعلمه بدائها ودوائها.

وقال أبو سليمان الدارانى: القناعة من الرضا، كما أنّ الورع من الزهد.

ومن أخلاق الصوفية: ترك المراء[٣] والمجادلة والغضب إلاّ بحق، واعتماد الرفق والحلم؛ وذلك أن النفوس تثبت وتظهر فى المارين.

والصوفى كلّما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب، وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة.

قال الله تعالى تعليمًا لعباده: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٤].

ولا يُنزع المراء إلاّ من نفوس زكيه انتزع منها الغلّ، ووجود الغلّ فى النفوس مراء الباطن، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضًا؛ وقد يكون الغلّ فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة.

ومن استقصى فى تذويب النفس بنار الزهادة فى الدنيا ينمحى الغلّ من باطنه، ولا تبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال، قال الله تعالى فى وصف أهل الجنّة المتقين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[٥].

---

(١) رواه البخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجه.

(٢) آية ٩٧ سورة النحل.

(٣) المراء: المماراة والجدل.

(٤) آية رقم ٣٤ سورة فصلت.

(٥) آية رقم ٤٣ الأعراف.

قال أبو حفص: كيف يبقى الغلّ في قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبّته، واجتمعت على مودّته، وأنست بذكره؛ فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانًا؛ فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة، ومن التزم بشروط الطريق، والانكباب على الظفر بالتحقيق.

والناس رجلان: رجل طالب ما عند الله تعالى، ويدعو إلى ما عند الله نفسَه وغيرَه، فما للمحقق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغلّ، فإن هذا معه في طريق واحد ووجهةٍ واحدة، وأخوه ومعينه، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

ورجلٌ مفتتنٌ بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق، فما للصوفي مع هذا منافسة؛ لأنه زهد فيما فيه رغب، فمن شأن الصوفي أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبًا مفتتنًا؛ فلا ينطوي له على غلّ، ولا يماريه في الظاهر على شيء؛ لعلمه بظهور نفسه الأمّارة بالسوء في المراء والمجادلة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى قال: أخبرنا أبو نصر الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا زياد بن أيوب قال: حدثنا المحاربى، عن ليث، عن عبد الملك، عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «ولا تمار أخاك، ولا تعده موعدًا فتخلفه».

وفي الخبر: «من ترك المراء، وهو مبطل، بُنى له بيت في ربض الجنة، ومن ترك المراء، وهو محق، بنى له في وسطها، ومن حسن خلقه بنى له في أعلاه».

وأخبرنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السهروردى محمد بن أبى عبد الله المالينى قال: أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الدواودى قال: أخبرنا أبومحمد عبد الله بن أحمد الحموى قال: أخبرنا أبو عمران عيسى السمرقندى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال: حدثنا يحيى بن بسطام، عن يحيى بن حمزة قال: حدثنا النعمان بن مكحول، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء، أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه أدخله الله تعالى جهنم».

انظر كيف جعل رسول الله ﷺ المماراة مع السفهاء سببًا لدخول النار؛ وذلك بظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة، والقهرُ والغلبةُ من صفات الشيطنة في الآدمي.

قال بعضهم: المجادلُ الماري يضع في نفسه عند الخوض في الجدال: أن لا يقنع بشيء، ومن لا يقنع إلاّ أن لا يُقنع فما إلى إقناعه سبيل.

فنفس الصوفي تبدّلت صفاتها وذهب عنه صفة: الشيطنة والسبعية، وتبدّل باللين، والرفق، والسهولة، والطمأنينة.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»[1] .

انظر كيف جعل النبي ﷺ من شرط الإسلام: سلامةُ القلب واللسان.

وروى عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه مرّ بقوم وهم يحدون[2] حجرًا قال: «ما هذا؟ قالوا: هذا حجر الأشداء، قال: ألا أخبركم بأشدّ من هذا؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب، فأتاه، فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه».

وروى أنه جاء غلام لأبي ذرّ، وقد كسر رجلَ شاة، فقال أبو ذرّ: مَن كسر رجل هذه الشاة؟. فقال: أنا. قال ولِمَ فعلت ذلك؟ قال: عمدًا فعلتُ. قال: ولَم؟ قال: أغيظك فتضربني فتأثم. فقال أبو ذرّ: لأغيظنَّ مَن حضّك على غيظي. فأعتقه؟

وروى الأصمعي، عن أعرابي، قال: إذ أشكل عليك أمران لا تدرى أيُّهما أرشد، فخالف أقربهما إلى هواك؛ فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى.

أخبرنا أبو زرعة، عن أبيه، أبي الفضل قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال: أخبرنا خورشيد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثنا سعيد بن سعد، عن أخيه، عن جدّه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات: فخشية الله في السرّ والعلانية، والحكم بالحق عند الغضب والرضا والاقتصاد عند الفقر والغنى، وأما المهلكات: فشحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

---

(١) البوائق جمع بائقة: وهي الشر والداهية.

(٢) يجعلون للحجر حدودًا.

فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصحّ إلاّ من عالم ربّانىّ، أمير على نفسه، يصرّفها بعقل حاضر، وقلب يقظان، ونظر إلى الله بحسن الاحتساب نقل أنهم كانوا يتوضئون عن[1] إيذاء المسلم، يقول بعضهم: لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحبُّ إلىّ من أن أتوضّأ من طعام طيّب.

وقال عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، : الحَدَثُ حدثان: حدث من فرجك، وحدث من فيك، فلا يحل حبوة[2] الوقار والحلم إلا الغضبُ، ويُخرج عن حدّ العدل إلى العدوان بتجاوز الحدّ، فبالغضب يثور دم القلب، فإن كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع فى القلب، ويصير منه الهمُّ، والحزنُ، والانكماد، ولا ينطوى الصوفىّ على مثل هذا؛ لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى فلا ينكمد ولا يغتم، والصوفىّ صاحب الرضا، صاحب الروح والراحة. والنبى عليه الصلاة والسلام أخبر أن الهمَّ والحزن فى الشكّ والسخط.

سئل عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، عن الغمّ والغضب قال: مخرجهما واحدٌ، واللفظ يختلف؛ فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبًا، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنًا.

والحَرَدُ: غضب أيضًا، ولكن يستعمل إذا قصد المغضوب عليه.

وإن كان الغضب على مَن يشاكله ويماثله ممن يتردد فى الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط، فيتولّد منه الغلّ والحقد، ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفىّ، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[3] وسلامةُ قلب الصوفى وحاله يَقْذف زبدَ الغلّ والحقدِ كما يَقذف البحرُ الزَّبدَ؛ لِما فيه من تلاطم أمواج الأنس والهيبة، وإن كان الغضبُ على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب، والقلبُ إذ ثار دمه يحمرّ ويقسو، ويتصلّب، وتذهب عنه الرقة والبياض، ومنه تحمر الوجنتان؛ لأن الدم فى القلب ثار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق، فظهر عكسه وأثره على الخد، فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم، ولا يكون هذا فى الصوفىّ إلا عند هتك الحرمات والغضب

---

(١) هكذا فى الأصل ولعلها يتوضئون عند إيذاء المسلم أو يتوضئون: يبتعدون ويمتنعون.

(٢) المراد هنا ضياع الوقار وذهاب الحلم، وفى اللغة يقال أجبنى الرجل: ضمَّ ظهره وساقيه بثوب أو غيره.

(٣) آية ٤٧ من سورة الحجر.

لله تعالى فأما فى غير ذلك فينظر الصوفىّ عند الغضب إلى الله تعالى، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء.

قيل لبعضهم: من أقهر الناس لنفسه؟. قال: أرضاهم بالمقدور.

وقال بعضهم: أصبحت.ومالى سرور إلا مواقع القضاء.

وإذا اتّهم الصوفىّ النفسَ عند الغضب تداركه العلمُ، وإذا لاح عَلَم العِلم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب إلى موضعه ومقرّه، واعتدل الحال وغاصت حمرة الخدّ، وبانت فضيلة العلم.

قال عليه الصلاة والسلام: ((والسمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوّة)).

وروى حارثة بن قدامة قال: قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل؛ لعلّى أعيه. قال: ((فأعاد عليه كل ذلك يقول لا تغضب، قال عليه السلام: إن الغضب جمرة من النار ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه من وجد ذلك منكم فإن كان قائمًا فليجلس وإن كان جالسًا فليضطجع)).

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى قال: أخبرنا أبو نصر الترياقى قال: أخبرنا الجراحى قال: أخبرنا المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا محمد بن عبد الله قال: حدثنا بشر بن المفضل، عن قرة بن خالد، عن أبى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأشج عبد القيس: ((إنّ فيك خصلتين يحبهما الله تعالى: الحِلم والأناة)).

ومن أخلاق الصوفية: التودد والتآلف، والموافقة مع الإخوان، وترك المخالفة. قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[2] والتودد والتألف من ائتلاف الأرواح على ما ورد فى الخبر – الذى أوردناه – ((فما تعارف منها ائتلف)) قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[3] وقال سبحانه وتعالى:

---

(١) من آية ٢٩ من سورة محمد.

(٢) آية رقم ٦٣ من سورة الأنفال.

(٣) من سورة آل عمران.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[١] وقال عليه الصلاة والسلام «المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[٢] وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرًا»[٣].

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ: إنّى أحبّك فى الله. فقال: أبْشر ثم أبشر؛ فإنّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزعُ الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: المتحابون فى الله».

وقيل: لو تحابّ الناس وتعاطوا أسباب المحبّة لاستغنوا بها عن العدالة.

وقيل: العدالة خليفة المحبّة، تستعمل حيث لا توجد المحبّة.

وقيل: طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة؛ فإن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج؛ ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثّرة من البعض فى البعض؛ لأنهم لما تحابوا فى الله تواصوا بمحاسن الأخلاق، ووقع القبول بينهم لوجود المحبة فانتفع لذلك المريد بالشيخ، ولأخ بالأخ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد أهل كل درب وكل محلّة وفى الجامع فى الأسبوع مرّة أهل كل بلد، وانضمام أهل السواد إلى البلدان فى الأعياد فى جميع السنة مرتين، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمرة مرّة للحج: كل ذلك لحكم بالغة؛ منها: تأكيد الألفة والمودّة بين المؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[٤] أخبرنا أبو زرعة قال: أخبرنا والدى أبو الفضل قال: أخبرنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال: أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمس الزيادى قال: أخبرنا أبوالعباس عبد الله بن يعقوب الكرمانى قال: حدثنا يحيى الكرمانى قال: حدثنا حماد بن زيد، عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال سمعت

---

(١) آية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه

(٤) متفق عليه.

رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنَّ مَثَل المؤمنين فى توادّهم وتحابّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى»[١].

والتآلف والتودد يؤكدان أسباب الصحبة، والصحبة مع الأخيار مؤثرة جدًا.

قد قيل: لقاء الإخوان لقاح، ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوّى البعض بالبعض، بل مجرّد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحًا، والنظر فى الصور يؤثر أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه كدوام النظر إلى المحزون يُحزن، ودوام النظر إلى المسرور يُسر، وقد قيل: من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه، والجمل الشرود يصير ذلولاً بمقارنة الجمل الذلول؛ فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد، والماءُ والهواءَ يفسدان بمقارنة الجيف، والزروع تُنقّى عن أنواع العروق فى الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة، وإذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الأشياء ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرًا، وسمّى الإنسان إنسانًا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر. والتآلف والتودّد مستجلبٌ للمزيد، وإنما العزلة والوحدةُ تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر، فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فَيغْتَنم مقارنتهم والاستئناسُ بهم استئناس بالله تعالى، كما أنّ محبتهم محبة الله، والجامع رابطة الحق، ومع غيرهم رابطة الطبع؛ فالصوفىّ مع غير الجنس كائن بائن، ومع الجنس كائن مغابن[٢]، والمؤمن مرآة المؤمن إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفيّة، غابت عن الأغبار، وأدركها أهل الأنوار.

ومن أخلاق الصوفية: شكر المحسن على الإحسان والدعاء له، وذلك منهم مع كمال توكّلهم على ربهم وصفاء توحيدهم، وقطعهم النظر إلى الأغيار، ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار، ولكن يفعلون ذلك اقتداءً برسول الله ﷺ، على ما ورد أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «ما من الناس أحدُ أمنَّ علينا فى صحبته وذاتِ يوم يده من ابن أبى قحافة، ولو كنت متخذًا خليلاً لا تخذت أبا بكر خليلاً»[٣] وقال: «ما نفعنى مالٌ كمال أبى بكر»[٤] فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء.

فالصوفىّ فى الابتداء يفنى عن الخلق، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيتَه التوحيدُ وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صَرف التوحيد، فلا يثبت للخلق منعًا

---

(١) متفق عليه.

(٢) ضعيف مغلوب.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) رواه النسائى.

ولا عطاء، ويحجبه الحقّ عن الخلق، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق، ويثبت لهم وجودًا فى المنع والعطاء بعد أن يرى المسبب أولاً ولذلك لسعة علمه وقوة معرفته، يثبت الوسائط، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين؛ فيكون شكره للحق لأنه المنعم والمعطى والمسبّب، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب، قال رسول الله ﷺ: «أول ما يدعى إلى الجنة الحمّادون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء» وقال عليه الصلاة والسلام: «من عطس أو تجشّأ فقال الحمد لله على كل حال رفع الله تعالى بها عنه سبعين داءً أهونها الجذام»[١].

وروى جابر، رضى الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد ينعم عليه بنعمة فيحمد الله تعالى إلا كان الحمد أفضل منها»[٢] فقوله عليه الصلاة والسلام: «كان الحمد أفضل منها»[٣] يحتمل: أن يرضى الحق بها شكرًا، ويحتمل: أن الحمد أفضل منها نعمة، فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التى حمد عليها؛ فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له.

روى أنس، رضى الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطر عند قوم قال: «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار، ونزلت عليكم السكينة»[٤].

أخبرنا أبو زرعة، عن أبيه، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار، وقال: أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم، قال: حدثنا عبد الله بن محمد البغوى، قال: أخبرنا عمرو بن زرارة. قال: حدثنا عيينة بن يونس، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لأخيه جزاك الله خيرًا فقد أبلغ فى الثناء»[٥].

ومن أخلاق الصوفية: بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة؛ فإذا كان الرجل وافر العلم بصيرًا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم؛ لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم، ولا يصلح ذلك إلا لصوفىّ تامّ الحال، عالم ربانّى.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

روى عن زيد بن أسلم أنه قال: كان نبيّ من الأنبياء يأخذ بركاب الملك؛ يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس.

وقال عطاء: لأن يُرائى الرجل سنين فيكتسب جاهًا يعيش فيه مؤمن، أتمُّ لـه مـن أن يخلص العمل لنجاة نفسه.

وهذا باب غامضٌ لا يؤمن أن يفتتن به خَلقٌ من الجهّال المدّعين، ولا يصلح هذا إلا اطّلع على باطنه فعلم منه أن لا رغبة له فى شىء من الجاه والمال. ولو أن ملوك الأرض وقفوا فى خدمته ما طغى ولا استطال، ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال.

وهذا لا يصلح إلاّ لآحادٍ من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم ويكاشفهم الله تعالى بمداده منهم فيدخلون فى الأشياء بمراد الله تعالى؛ فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس. وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا، وأحكموا مقام الفناء، ثم رقّوا إلى مقام البقاء؛ فيكون لهم فى كلّ مدخل ومخرج برهان، وبيانٌ، وإذنٌ من الله تعالى. فهم على بصيرة من ربّهم، وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفيّ الخطاب؛ فيأخذ وقته أبدًا من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من قلبه وقته. ولا يكون فى قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال.

قال أبو عثمان الحيرى: لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعزّ، والذلّ ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه. والدخول فيما ذكرناه.

قال سهل بن عبد الله: لا يستحق الإنسان الرئاسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال: يصرف جهله عن الناس، ويحتمل جهل الناس، ويترك ما فى أيديهم، ويبذل ما فى يده لهم.

وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التى زهد فيها وتعيّن الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقّها وشكر نعمتها لله تعالى.

الباب الحادى والثلاثون

فى ذكر الأدب ومكانه من التصوّف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أدّبنى ربّى فأحسن تأديبى».

فالأدب: تهذيب الظاهر والباطن. فإذا تهذّب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيًا أديبًا.

وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء.

ولا يتكامل الأدب فى العبد إلاّ بتكامل مكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق؛ فالخَلْقُ صورة الإنسان والخُلق معناه.

قال بعضهم: الخُلق لا سبيل إلى تغييره كالخَلق، وقد ورد: «فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل».

وقد قال تعالى: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه، بخلاف الخَلق.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((حسِّنوا أخلاقكم)) وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهيّأه لقبول الصلاحِ. والفساد وجعله أهلاً للأدب ومكارم الأخلاق، ووجود الأهلية فيه كوجود النار فى الزناد ووجود النخل فى النوى، ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكّنه من إصلاحه بالتربية، إلى أن يصير النوى نخلاً، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار، وكما جعل فى نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] فتسويتها: صلاحيتها للشيئين جميعًا، ثم قال عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[2] فإذا تزكّت النفس تدبرت بالعقل، واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذبت الأخلاق وتكونت الآداب.

فالأدب: استخراج ما فى القوة إلى الفعل.

وهذا يكون لمن ركّبت السجية الصالحة فيه.

والسجية: فعل الحق، لا قدرة للبشر على تكوينها، كتكوّن النار فى الزناد؟ إذ هو فعل الله المحض، واستخراجه بكسب الآدمى، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة

---

(١) الآيات ٧، ٨، ٩، ١٠ من سورة الشمس.

(٢) سورة الشمس آيتى ٩ ، ١٠.

والمنح الإلهية ولمّا هيّأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها توصلوا، بحسن الممارسة والرياضة، إلى استخراج ما فى النفوس وهو مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل، فصاروا مؤدبين مهذّبين.

والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة؛ لقوّة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم، كما قال رسول الله ﷺ: «أدبنى ربّى فأحسن تأديبى»[١].

وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة؛ لنقصان قوى أصولها فى الغريزة.

فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ؟ لتكون الصحبة والتعلّم عونًا على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل، قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٢] قال ابن عباس، رضى الله عنهما: فَقوهم، وأدّبوهم.

وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ: «أدبنى ربّى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق، فقال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾[٣].

قال يوسف بن حسين: بالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل، وبالعمل تنال الحمكة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى.

قيل: لمّا أراد أبو حفص العراقَ جاء إليه الجنيد، فرأى أصحاب أبى حفص وقوفًا على رأسه يأتمرون لأمره لا يخطئ أحد منهم، فقال: يا أبا حفص، أدّبت أصحابك أدب الملوك؟ فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن.

قال أبو الحسين النورىّ[٤]: ليس لله فى عبده مقام، ولا حال، ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلّى بمحاسن الآداب.

قال عبد الله بن المبارك: أدب الخدمة أعزّ من الخدمة.

---

(١). متفق عليه.

(٢) آية رقم ٦ من سورة التحريم.

(٣) آية رقم ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٤) هو: أبو الحسين أحمد بن محمد النورى، بغدادى المولد والمنشأ، ومن أقران الجنيد. قال الخطيب البغدادى: هو أعلم العراقيين بمطائف القوم. توفى سنة ٢٩٥هـ.

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقى وأمدُّ رجلى، فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى: يا أبا عبيد، يقال إنّك من أهل العلم، اقبل منّى كلمة: لا تجالسه إلاّ بأدب، وإلاّ فيمحى اسمك من ديوان القرب. قال أبو عبيد: وكانت من العارفات.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة، والعبد يردّها بجهده إلى حسن المطالبة؟ فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس، وغفل عن الرعاية، ومهما أعانها فهو شريكها.

وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه؛ لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال: أخبرنا أبو النصر الترياقى، قال: أخبرنا أبو محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا يحيى بن يعلى، عن ناصح، عن سماك، عن جابر بن سمرة قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدّق بصاع».

وروى أيضًا أنه قال عليه الصلاة والسلام: «ما نَحَل والدٌ ولدًا من نحلة أفضل من أدب حسن».

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها، عن رسول الله ﷺ: قال: «حقٌّ الولد على الوالد: أن يحسن اسمه. ويحسن موضعه، ويحسن أدبه»[1].

وقال أبو علىّ الدّقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنّة، وبأدبه فى طاعته إلى الله تعالى.

قال أبو القاسم القشيرى، رحمه الله: «وكان الأستاذ أبو علىّ لا يستند إلى شىء، فكان يومًا فى مجمع، فأردت أن أضع وسادةً خلف ظهره؟ لأنّى رأيته غير مستند، فتنحّى عن الوسادة قليلاً، فتوهمت أنه توقّى الوسادة؛ لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك، فعلمت أنه لا يستند إلى شىء أبدًا.

وقال الجلال البصرى: التوحيد يوجب الإيمان؟ فمن لا إيمان له لا توحيد له. والإيمان يوجب الشريعة. فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

---

(١) متفق عليه.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا؟ فما أساء أحد الأدب ظاهرًا إلاّ عوقب ظاهرًا، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلاّ عوقب باطنًا.

قال بعضهم — هو غلام الدقاق — : «نظرت إلى غلام أمرد، فنظر إلىّ الدقاق وأنا أنظر إليه، فقال: لتجدنّ غبّها ولو بعد سنين!! قال: فوجدتُ غِبَّها بعد عشرين سنة أن أنسيت القرآن.

وقال سرىّ: صلّيتُ وردى ليلةً من الليالى، ومددتُ رجلى فى المحراب، فنوديت: يا سرى، هكذا تُجالس الملوك!!. فضمت رجليّ، ثم قلت: وعزّتك لا مددتُ رجلى أبدًا. وقال الجنيد: فبقى ستين سنة ما مدّ رجله ليلاً ولا نهارًا.

وقال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السُنَن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وسئل السرى عن مسألة فى الصبر، فجعل يتكلم فيها، فدبّ على رجله عقرب، فجعلت تضربه بإبرتها.. فقيل له: ألاَ تدفعها عن نفسك؟ قال: أستحى من الله أن أتكلّم فى حال ثم أخالف ما أعلم فيه.

وقيل: من أدب رسول الله ﷺ أنه قال: «زُويت لى الأرض فأريتُ مشارقها ومغاربها»[1] ولم يقل: «رأيت».

وقال أنس بن مالك: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وقال ابن عطاء: الأدب: الوقوف مع المستحسنات. قيل: ما معناه؟

قال: أن تعامل الله سرًا وعلنًا بالأدب، فإذا كنت كذلك كنت أديبًا وإن كنت أعجميا؛ ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل مليحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى: منذ عشرين سنة ما مددت رجل فى الخلوة؛ فإنّ حسن الأدب مع الله أحسن وأولى.

وقال أبو على: ترك الأدب موجب للطرد؛ فمن أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدواب.

---

(١) رواه النسائى والترمذى.

الباب الثانى والثلاثون

الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تُتلقى من رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ مجمع الآداب ظاهرًا وباطنًا. وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ البصَرُ وَمَا طَغَى﴾[١].

وهذه غامضة من غوامض الآداب التى اختصّ بها رسول الله ﷺ.

أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال: أعرض عمّا سوى الله وتوجّه إلى الله، وترك رواء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها، والسموات والدار الآخرة بحظوظها، فما التفت إلى ما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف على الغائب فى إعراضه، قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾[٢] فهذا الخطاب للعموم، و ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾ إخبار عن حال النبى ﷺ بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم فكان ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾ حالَه فى طرف الإعراض، وفى طرف الإقبال تلقّى ما ورد عليه فى مقام قاب قوسين بالروح والقلب؛ ثم فرّ من الله تعالى حياءً منه وهيبة وإجلالاً، وطوى نفسه بفراره فى مطاوى انكساره وافتقاره؛ لكيلا تنبسط النفس فتطغى؛ فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس. قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٣].

والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطًا من المنح استغنت وطغت، والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط فى البسط يسد باب المزيد، وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب؛ فموسى عليه الصلاة والسلام صحّ له فى الحضْرة أحد طرفى ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾وما التفت إلى ما فاته ﴿وَمَا طَغَى﴾ مُتأسفًا لحسن أدبه، ولكن امتلأ من المنح واسترقت النفسُ السمعَ وتطلعت إلى القسط والحظّ؛ فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ما وصل إليها، وضاق نطاقها فيتجاوز الحدّ من فرط

---

(١) آية رقم ١٧ من سورة النجم.

(٢) آية رقم ٢٣ من سورة الحديد.

(٣) آية رقم ٦ من سورة العلق.

البسط وقال: ﴿أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾[١] فمُنع ولم يطلق فى فضاء المزيد؛ وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام.

وهذه دقيقة لأرباب القرب والأحوال السنية؛ فكل قبض يوجب عقوبة؛ لأنّ كلّ قبض سدٌّ فى وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط فى البسط، ولو حصل الاعتدال فى البسط ما وجبت العقوبة بالقبض، والاعتدال فى البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبى ﷺ من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار، فذلك الفرار من الله إلى الله، وهو غاية الأدب، حظى به رسول الله ﷺ فما قوبل بالقبض، فدام مزيده، وكان قاب قوسين أو أدنى.

ويشاكل الشرحَ الذى شرحناه قولُ أبى العباس بن عطاء فى قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال: لم يره بطغيان يميل، بل رآه على شرط اعتدال القوى.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه، ولا إلى مشاهدتها وإنما كان مشاهدًا بكليته لربّه: يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز فى ذلك عن سهل بن عبد الله.

ويؤيد ذلك أيضًا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة قال: أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن منصور الصفار النيسابورى قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال: سمعت أبا نصر بن عبد الله بن على السراج قال: أخبرنا أبو الطيب العكى، عن أبى محمد الحريرى، قال: التسرُّع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلةٌ، والوقوف على حدّ الانحسار نجاة، واللياذ بالهرب من علم الدنو وُصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلّف، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيّز الإقبال مساءة، والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه بُعد، والاستسلام عند التلاقى جراءة، والانبساط فى محل الأنس غرة. وهذه الكلمات كلّها من آداب الحضرة لأربابها.

---

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف.

وفى قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ وجه آخر ألطف مما سبق: ما زاغ البصر، حيث لم يتخلّف عن البصيرة ولم يتقاصر، وما طغى، لم يسبق البصرُ البصيرة فيتجاوز حدّه ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة، والظاهر مع الباطن، والقلب مع القالب، والنظر مع القدم، ففى تقدّم النظر على القدم طغيان، والمعنى بالنظر علم، وبالقدم حال القالب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانًا، ولم يتخلّف القدم عن النظر فيكون تقصيرًا، فلما اعتدلت الأحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره، فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله، ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره وأتى البراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء فى حديث المعراج، فكان البراق بقالبه مشاكلاً لمعناه ومتصفًا بصفته لقوة حاله ومعناه.

وأشار فى حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء ورأى فى كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويقهم وتخلّفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى فى بعض السموات فمن هو فى بعض السموات يكون قوله: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ تجاوزًا عن حدّ القدم، وتخلفًا للقدم عن النظر، وهذا هو الإخلال بأخذ الوصفين من قوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فرسول الله ﷺ حمل مقترنًا قدمه ونظره فى حجال الحياء والتواضع، ناظرًا إلى قدمه، قادمًا على نظره، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديًا حدّ القدم تعوّق فى بعض السموات كتعوّق غيره من الأنبياء، فلم يزل ﷺ متجلّس[١] حجاله فى خفارة أدب حاله حتى خرق حجب السموات فانصبت إليه أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابًا حجابًا حتى استقام على صراط ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فمرّ كالبرق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف، وهذا غاية فى الأدب ونهاية فى الأدب.

قال أبو محمد بن رويم، حين سئل عن أدب المسافر، فقال: لا يجاوز همّه قدمه، فحيث وقف قلبه يكون مقرُّه.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة، قال: أخبرنا عمر بن أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى قال: حدثنا القاضى أبو محمد يحيى بن منصور قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن على الترمذى قال: حدثنا محمد بن رزام الأيلّى قال: حدثنا محمد بن عطاء الهجيمى قال: حدثنا محمد بن نصير،

---

(١) متكلّف: يقال تجلّس إذا تكلف الجلوس، والحجال: القيد.

عن عطاء بن أبي رياح، عن ابن عباس، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: «قال يا موسى إنه لن يراني حيّ إلا مات ولا يابسٌ إلاّ تدهده، ولا رطب إلاّ تفرّق، إنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم».

ومن آداب الحضرة ما قال الشبلي: الانبساط بالقول مع الحقّ ترك الأدب.

وهذا يختص ببعض الأحوال والأشياء دون البعض، ليس هو على الإطلاق؛ لأن الله تعالى أمر بالدعاء. وإنما الإمساك عن القول، كما أمسك موسى عن الانبساط في طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحقّ مقامًا في القرب وأذان له في الانبساط[1]، فلما بسط انبسط وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2] لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو في حجاب الحشمة عن سؤال المحقّرات، ولهذا مثال في الشاهد؛ فإني الملك المعظم يسأل المعظّمات، ويحتشم في طلب المحقرات؛ فلما رفع بساط حجاب الحشمة صار في مقام خاص من القرب يسأل الحقير كما يسأل الخطير.

قال ذو النون المصري: أدب العارف فوق كلّ أدب؛ لأنّ معروفَه مؤدّب قلبه.

وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه وتعالى: مَن ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت: الأدب أو العطب.

وقول القائل هذا: يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجوب محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ النفس، ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالأنوار، ويكون معنى العطب: التحقق بالغناء، وفي ذلك العطب نهاية الأرب.

وقال أبو عليّ الدقّاق في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3] لم يقل: ارحمني؛ لأنه حفظ أدب الخطاب.

وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[1] ولم يقل: لم أقل؛ رعاية لأدب الحضرة.

---

(١) وفي بعض النسخ هذه الزيادة بعد قوله فأذن له في الانبساط: وقال أطلب مني ولو ملحًا لعجينك.. إلخ.

(٢) آية رقم ٢٤ من سورة القصص.

(٣) آية رقم ٨٢ من سورة: الأنبياء.

وقال أبو نصر السراج: أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلّة الالتفات إلى الخواطر والعوارض، والبوادى والعوائق، واستواء السرّ والعلانية وَحُسْن الأدب فى مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور.

والأدب أدبان: أدب قول، وأدب فعل؛ فمن تقرّب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب.

قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وقال أيضًا: الأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنِف.

وقال النورىّ: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وقال ذو النون: إذا خرج المريد عن حدّ استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء

وقال ابن المبارك أيضًا: قد أكثر الناس فى الأدب، ونحن نقول: هو معرفة النفس وهذه إشارة منه إلى أن النفس هى منبع الجهالات، وترك الآداب من مخامرة الجهر؛ فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد، «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة إلاّ ويقمعها بصريح العلم، وحينئذ يتأدّب، ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر.

---

(١) آية رقم ١١٦ من سورة المائدة

الباب الثالث والثلاثون

فى آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى فى وصف أصحاب الصفّة : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1] قيل فى التفسير : يحبون أن يتطهروا من الأحداث ، والجنابات ، والنجاسات بالماء . قال الكلبى : هو غَسل الأدبار بالماء . وقال عطاء : كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة .

روى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لمّا نزلت هذه الآية : (إن الله تعالى قد أثنى عليكم فى الطهور ، فما هو؟ قالوا : إنا نستنجى بالماء ، وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله ﷺ : (إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار) وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت هذه الآية فى أهل قباء . قيل لسلمان ، قد علّمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة ؛ فقال سلمان : أجل ، نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو نستنجى باليمين ، أو يستنجى أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو نستنجى برجيع[2] أو عظم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب - إملاءً - قال : أخبرنا أبو منصور الحريمى ، قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال : أخبرنا أبو عمر الهاشمى قال : أخبرنا أبو على اللؤلؤى قال : أخبرنا أبو داود قال : حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا ابن المبارك ، عن ابن عجلان ، عن لقعقاع ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال ﷺ : «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه» .

وكان يأمر بثلاثة أحجار ، وينهى عن الروث والرّمة[3] .

والغرض فى الاستنجاء شيئان : إزالة الخبث ، وطهارة المزيل : وهو أن لا يكون رجيعًا وهو الروث ، ولا مستعملاً مرة أخرى ، ولا رمّة ، وهى : عظم الميتة .

ووتر الاستنجاء سنّة : فإما ثلاثة أحجار ، أو خمس ، أو سبع .

واستعمال الماء بعد الحجر سنّة . وقد قيل فى الآية : ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ولمّا سئلوا عن ذلك قالوا : كنا نتبع الماء الحجر .

---

(١) آية رقم ١٠٨ من سورة التوبة .

(٢) الرجيع : الروث والندرة لأنه رجع عن حاله الأولى بعد أن كان طعامًا أو علفًا .

(٣) الرمة : العظام البالية .

والاستنجاء بالشمال سنّة ، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنّة ، وهكذا يكون فى الصحراء إذا كانت أرضًا طاهرة وترابًا طاهرًا .

وكيفية الاستنجاء : أن يأخذ اليد الحجر بيساره ، ويضعه على مقدّم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ، ويمره بالمسح ، ويدير الحجر فى مرّه حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، ويفعل ذلك إلى أن ينتهى إلى مؤخّر المخرج ، ويأخذ الثانى ويضعه على مؤخر المخرج كذلك ، ويمسح إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة .

وإن استجمر بحجر ذى ثلاث شعب جاز .

وأمّا (الاستبراء) إذا انقطع البول فيمدّ ذكره من أصله ثلاثًا إلى الحشفة - بالرفق _ لئلا يندفق بقية البول ، ثم ينثره ثلاثًا ، ويحتاط فى الاستبراء بـ (الاستنقاء) ، وهو : أن يتنحنح ثلاثًا ؛ لأن العروق ممتدة من الحلق إلى الذكر ، وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما فى مجرى البول ؛ فإن مشى خطوات وزاد فى التنحنح فلا بأس ، ولكن يراعى حدّ العلم ، ولا يجعل للشيطان عليه سبيلاً بالوسوسة فيضيع الوقت ، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن يرى الرطوبة .

وشبّه بعضهم الذكر بالضِرع ، وقال : لا يزال تظهر منه الرطوبة ما دام يمدّ ، فيراعى الحدّ فى ذلك ، ويراعى الوتر فى ذلك أيضًا .

والمسحات تكون على الأرض الطاهرة ، أو حجر طاهر ، وإن احتاج إلى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر ، وتكون الحركة باليسار لا باليمين ؛ لئلا يكون مستنجيًا باليمين .

وإذا أراد استعمال الماء انتقل إلى موضع آخر ويقنع بالحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة .

وفى ترك الاستنقاء فى اللاستبراء وعيدٌ ، ورد رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : مرّ رسول الله ﷺ على قبرين ، فقال : «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما هذا فكان لا يستبرئ أو لا يستنزه من بوله ، وأما هذا فكان يمشى بالنميمة»[١] ثم دعا بعسيب رطب ، فشقّه اثنين ، ثم غرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا وقال : «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» . والعسيب : الجريد ، وإذا كان فى الصحراء يبعد عن العيون .

---

(١) رواه الدارقطنى والترمذى .

روى جابر ، رضى الله تعالى عنه ، أن النبى ﷺ كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد .

وروى المغيرة بن شعبة ، رضى الله عنه ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأتى النبيُّ حاجته فأبعد فى المذهب .

وروى أن النبى ﷺ كان يتبّوأ لحاجته كما يتبّوأ[1] الرجل المنزل ، وكان يستتر بحائط ، أو نشز من الأرض ، أو كوم من الحجارة .

ويجوز أن يستتر الرجل براحلته فى الصحراء ـ أو بذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش .

ويستحبّ البول فى أرض دمثة[2] ، أو على تراب (مهيل) ، قال أبو موسى : كنت مع رسول الله ﷺ فأراد أن يبول ، فأتى دمثًا فى أصل جدار فبال ثم قال : (إذا أراد أحدكم أن يبول فلْيرتَد لبوله) .

وينبغى أن لا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ولا يستقبل الشمس والقمر ، ولا يكره استقبال القبلة فى البنيان ، والأولى اجتنابه ؛ لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك فى البنيان أيضًا ، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ، ويتجنّب مهابّ الريح احترازًا من الرشاش .

قال رجل لبعض أصحابه من الأعراب وقد خاصمه : أحسبك تحسن الخراءة . فقال : بلى وأبيك إنّى بها لحاذق ، قال : فصفها لى ، فقال : أبعد البشر ، وأعد المدر ، واستقبل الشيح ، واستدبر الريح ، وأقعى إقعاء الظبىّ ،وأجفل إجفال النعام يعنىٰ استقبل أصول النبات من الشيح وغيره ، واستدبر الريح احترازًا من الرشاش . والإقعاء هاهنا : أن يستوفز[3] على صدو قدميه . والإجفال : أن يرفع عجزه .

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وطهّر قلبى من الرياء ، وحَصِّن فرجى من الفواحش .

ويكره أن يبول الرجل فى المغتسل ، رواه عبد الله بن مغفل أن النبى ﷺ نهى أن يبول الرجل فى مستحمه ، وقال : «إنّ عامّة الوسواس منه» .

---

(١) يستكن : ويقال فى اللغة : بوأته دارًا إذا أسكنته إياها . وتبوأ المكان : أقام به .

(٢) سهلة لينة ذات رمال .

(٣) جلس : يقال استوفز فى قعدته أى قعد غير مطمئن وكأنه يتهيأ للوثوب .

وقال ابن المبارك : يوسع فى البول فى المستحم إذا جرى فيه الماء وإذا كان فى البنيان يقدّم رجل اليسرى لدخول الخلاء ، ويقول قبل الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى ، قال : أخبرنا أبو منصور المقّرى، قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب قال : أخبرنا أبو عمر الهاشمى قال : أخبرنا أبو على اللؤلؤى ، قال : أخبرنا أبو داود قال : حدثنا عمر وهو ابن مرزوق البصرى قال: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن النضر بن أنس ، عن زيد بن أرقم ، عن النبى ﷺ أنه قال : «إنّ هذه الحشوش محتضرة ، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث ».

وأراد بالحشوش : الكُنف . وأصل الحش ، جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف فى البيوت ، وقوله (محتضرة) أى : يحضرها الشياطين .

وفى الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ، ولا يتولع بيده ، ولا يخُطُّ فى الأرض والحائط وقت قعوده، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك ، ولا يتكلم ، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال : «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما ، يتحدثان ، فإن الله تعالى يمقت على ذلك» .

ويقول عند خروجه : غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عنّى ما يؤذينى وأبقى على ما ينفعنى .

ولا يستصحب معه شيئًا عليه اسم الله من : ذهب ، وخاتم ، وغيره . ولا يدخل حاسر الرأس ؛ روت عائشة رضى الله عنها ، عن أبيها أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : استحيوا من الله ؛ فإنّى لأدخل الكنيف فألزق ظهرى وأغطى رأسى استحياء من ربّى عزّ وجل .

الباب الرابع والثلاثون

فى آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك : حدثنا شيخنا أبو النجيب قال : أخبرنا أبو عبدالله الطائى قال : أخبرنا الحافظ الفراء قال : أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى ، قال : أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار قال : حدثنا حميد بن زنجويه قال : حدثنا يعلى بن عبيد قال : حدثنا محمد بن إسحق ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن زيد بن خالد الجهنى ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لولا أن أشقّ على أمتى لأخّرت العشاء إلى ثلث الليل ، وأمرتهم بالسواك عند كلّ مكتوبة» .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «السواك مطهرة للفم مرضاة للربّ» .

وعن حذيفة قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك ، والشوص : الدلك ، ويستحب السواك عند كل صلاة ، وعند كلّ وضوء ، وكلما تغيّر الفم من (أزم) وغيره ؛ وأصل الأزم : إمساك الأسنان بعضها على بعض . وقيل للسكوت ، أزم : لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغيّر الفم .

ويكره للصائم بعد الزوال ، ويستحب له قبل الزوال ، وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة ، وعند القيام من الليل ، ويندّى السواك اليابس بالماء ، ويستاك عرضًا وطولاً ؛ فإن اقتصر فعرضًا ، فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة . ويبتدىء بسم الله الرحمن الرحيم ، ويقول : ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [1] .

ويقول عند غسل اليد : اللهمّ إنـىّ أسألك اليمن والبركة ، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة .

ويقول عند المضمضة : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وأعنّى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك .

---

(١) الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ من سورة المؤمنون .

ويقول عند الاستنشاق : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وأوجدنى رائحة الجنّة وأنت عنى راض .

ويقول عند الاستنثار : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وأعوذ بك من روائح النار ، وسوء الدار .

ويقول عند غسل **الوجه** : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبيّض وجهى يوم تبيّض وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهى يوم تسوّد وجوه أعدائك .

وعند غسل اليمين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتنى كتابى بيمينى ، وحاسبنى حسابًا يسيرًا .

وعند غسل الشمال : اللهم إنّى أعوذ بك أن تؤتينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى .

وعند مسح الرأس : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وغشّنى برحمتك ، وأنزل على من بركاتك ، وأظللنى تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّ عرشك .

ويقول عند مسح الأذن : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، واجعلنى ممن يسمع القول فيتبع أحسنه اللهم أسمعنى منادى الجنة الأبرار .

ويقول فى مسح العنق : اللهمّ فكّ رقبتى من النار ، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال .

ويقول عند غسل قدمه اليمنى : اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد وثبّت قدمى على الصراط مع أقدام المؤمنين .

ويقول عند اليسرى : اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزلّ قدمى عن الصراط يوم تذلّ فيه أقدام المنافقين .

وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءًا وظلمت نفسى أستغفرك وأتوب إليك فأغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، واجعلنى صبورًا شكورًا ، واجعلنى أذكرك كثيرًا وأسبحك بكرة وأصيلاً .

وفرائض الوضوء : النيّةُ عند غسل الوجه ، وغسلُ الوجه .

وحدُّ الوجه من مبتدأ تسطيح الوجه إلى منتهى الذقن وما ظهر من اللحية وما استرْسل منها .

ومن الأذن إلى الأذن عرضًا ، ويدخل فى الغسل البياض الذى بين الأذنين واللحية وموضع الصلع وما انحسر عنه الشعر ، وهم النزعتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه .

ويوصل الماء إلى شعر (التحذيف) وهو القدر الذى يزيله النساء من الوجه .

ويوصّل الماء إلى (العنفقة)[1] والشارب ، والحاجب ، والعَذار ، وما عدا ذلك لا يجب .

ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إيصال الماء إلى البشرة ، وحدّ الخفيف أن ترى البشرة من تحته .

وإن كانت كثيفة فلا يجب ، وتجتهد فى تنقية مجتمع الكحل عن مقدَّم العين .

الواجب الثالث : غسلُ اليدين إلى المرفقين . ويجب إدخال المرفقين فى الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف العضدين ، وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رءوس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصحّ .

الواجبُ الرابع : مسح الرأس ،ويكفى ما يطلق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسح سنة : وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى ، ويضعها على مقدّم الرأس ويمدّها إلى القفا ، ثم يردهما إلى الموضع الذى بدأ منه ، وينصف بلل الكفين مستقبلاً ومستديرًا .

والواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إدخال الكعبين فى الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ،ويقنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تخليل الأصابع الملتفة ، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ، ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ، ويختم بخنصر اليسرى . وإن كان فى الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها ،وإن ترك فيها عجنًا أو شحمًا يجب إزالة عين ذلك الشىء .

الواجب السادس : الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى .

الواجب السابع : التتابع فى القول القديم عند الشافعى ، رحمه الله تعالى .

وحدُّ التفريق الذى يقطع التتابع إنشاف العضو مع اعتدال الهواء .

---

(١) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

وسنن الوضوء ثلاثةَ عشرَ : التسميةُ فى أول الطهارة ، وغسلُ اليدين إلى الكوعين ، والمضمضة . والاستنشاق ، والمبالغة فيهما ، فيغرغر فى المضمضة حتى يردّ الماء إلى (الغلصمة)[1] ويستمد فى الاستنشاق الماء بالنَفَس إلىالخياشم ، ويرفق فى ذلك إن كان صائمًا ، وتخليل اللحية الكثّة ، وتخليل الأصابع المنفرجة ، والبداءة بالميامن ، وإطالة الغرّة ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتثليث ، وفى القول الجديد : التتابع .

ويجتنب أن يزيد على الثلاث ، ولا ينفض اليد ، ولا يتكلم فى أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لطمًا ، وتجديدُ الوضوء مستحب أن يصلّى بالوضوء ما تيسّر ، وإلاّ فمكروه .

---

(١) الغلصمة والغلصمة : رأس الحلقوم ، وهو الموضع الناتئ فى الحلق .

الباب الخامس والثلاثون

فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء

آداب الصوفية، بعد القيام بمعرفة الأحكام، أدبهم فى الوضوء حضور القلب فى غسل الأعضاء؛

سمعت بعض الصالحين يقول: إذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة فى الصلاة.

ومن آدابهم: استدامة الوضوء، والوضوء سلاح المؤمن، والجوارح إذا كانت فى حماية الوضوء الذى هو أثر شرعى يقلّ طروق الشيطان عليها.

قال عدىّ بن حاتم: ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء.

وقال أنس بن مالك: قدم النبىّ عليه الصلاة والسلام المدينةَ وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، فقال لى:

«يا بنى إن استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل؛ فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة».

فشأن العاقل أن يكون أبدًا مستعدًا للموت، ومن الاستعداد: لزوم الطهارة.

وحكى عن الحصرى أنه قال: مهما انتبه من الليل لا يحملنى النوم إلاّ بعد ما أقوم وأجدد الوضوء؛ لئلاً يعود إلىّ النوم وأنا على غير طهارة.

وسمعت من صحب الشيخ علىّ بن الهيتمى أنه كان يقعد الليل جميعه، فإن غلبه النوم يكون قاعدًا كذلك وكلما انتبه يقول: لا أكون أسأت الأدب، فيقوم، ويجدد الوضوء، ويصلّى ركعتين.

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال، حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دفّ نعليك بين يدىّ فى الجنة؟» قال: ما عملت عملاً فى الإسلام أرجى عندى أنّى لم أتطهّر طهرًا فى ساعة ليل أو نهار إلاّ صليت لربى عز وجل بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى.

ومن أدبهم فى الطهارة: ترك الإسراف فى الماء، والوقوف على حدّ العلم.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال: أخبرنا أبو نصر الترياقى، قال: أخبرنا أبو محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى، قال: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا خارجة بن مصعب، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن يحيى بن ضمرة السعدى، عن أُبىّ بن كعب، عن النبىﷺ أنه قال: «للوضوء شيطان يقال له: الولهان، فاتقوا وساوس الماء»[1].

قال أبو عبد الله الروذبارى: إنّ الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم، فلا يبالى أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به، أو ينقصوا عنه.

وحكى عن ابن الكرنبى أنه أصابته جنابة ليلة من الليالى، وكانت عليه مرقّعة ثخينة غليظة، فجاء إلى الدجلة، وكان برد شديد، فحرنت نفسه عن الدخول فى الماء؛ لشدّة البرد، فطرح نفسه فى الماء مع المرقّعة، ثم خرج من الماء وقال: عقدت أن لا أنزعها من بدنى حتى تجف علىّ، فمكثت عليه شهرًا لثخانتها وغلظها، أدّب بذلك نفسه لما حزنت عن الائتمار لأمر الله تعالى.

وقيل إن سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلّة صبّه على الأرض، وكان يرى أن فى الإكثار من شرب الماء ضعف النفس، وإماتة الشهوات، وكسر القوّة.

ومن أفعال الصوفية: الاحتياط فى استبقاء الماء للوضوء.

وقيل: كان إبراهيم الخوّاص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء، وربّما كان لا يشرب منها إلا القليل، يحفظ الماء للوضوء.

وقيل: إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم، يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب.

وقيل: إذا رأيت الصوفىّ ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبَى.

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه فى الطهارة إلى حدّ أنه أقام بين ظهرانىّ جماعة من النسّاك وهم مجتمعون فى دار فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء؛ لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا الموضع فى وقت يريد تأديب نفسه.

---

(١) متفق عليه

وقيل: مات الخواص في جامع الرى فى وسط الماء، وذاك أنه كان به علّة البطن، وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرّة ومات فيه، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم به قيام، فقام فى ليلة واحدة نيفًا وسبعين مرّة. كل مرّة يجدد الوضوء ويصلى ركعتين.

وقيل: إنّ بعضهم أدّب نفسه حتى لا يخرج منه الريح إلاّ فى وقت البراز يراعى الأدب فى الخلوات.

واتّخاذ المنديل بعد الوضوء كَرِهه قوم، وقالوا: إن الوضوء يوزن. وأجاز بعضهم، ودليلهم: ما أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على، قال: أخبرنا أبوالفتح الهروى، قال: أخبرنا أبو نصر، قال: أخبرنا أبو محمد قال: أخبرنا أبو العباس قال: حدثنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن زيد بن حباب، عن أبى معاذ، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خرقة ينشّف بها أعضاءه بعد الوضوء».

وروى معاذ بن جبل قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا توضّأ مسح وجهه بطرف ثوبه.

واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من بين الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة، لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر إلى حدّ يخرج عن حدّ العلم.

وتوضأ عمر، رضى الله عنه، من جرّة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يصلّون على الأرض من غير سجادة، ويمشون حفاة فى الطرق، وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلاً. وقد كانوا يقتصرون على الحجر فى الاستنجاء فى بعض الأوقات، وكان أمرهم فى الطهارة الظاهرة على التساهل واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة، وهكذا شغل الصوفية، وقد يكون فى بعض الأشخاص تشدّد فى الطهارة ويكون مستند ذلك رعونة النفس، فلو اتّسخ ثوبه تحرّج ولا يبالى بما فى باطنه، من: الغلّ والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حافيًا مع وجود رخصة الشرع ولا ينكر عليه أن يتكلّم بكلمة غيبة يُخرب بها دينه، وكل ذلك من قلّة العلم وترك التأدّب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين.

وكانوا يكرهون كثرة الدلك فى الاستبراء؛ لأنه ربما يسترخى العرق ولا يمسك البول ويتولّد منه القطر المفرط.

ومن حكايات المتصوفة فى الوضوء والطهارات: أن أبا عمرو الزجاجى جاور بمكة ثلاثين سنة، وكان لا يتغوّط فى الحرم ويخرج إلى الحلّ، وأقل ذلك فرسخ.

وقيل: كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتى عشرة سنة؛ لأن الماء كان يضرّه، وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عن كلّ فريضة.

وبعضهم نزل فى عينه الماء، فحملوا إليه المداوى، وبذلوا له مالاً كثيرًا ليداويه، فقال المداوى: يحتاج إلى ترك الوضوء أيامًا، ويكون مستلقيًا على قفاه، فلم يفعل ذلك واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء.

الباب السادس والثلاثون

فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها: تكلّمى، فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون الَّذِينَ هُمْ فى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1] ثلاثًا».

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين، وقال رسول ﷺ: «أتانى جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلّى بى الظهر»[2].

واشتقاق الصلاة: قيل: من «الصلى» وهو النار، والخشبة المعّوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوّم، وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمّارة بالسوء، وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته: يصيب بها المصلى من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزول به إعوجاجه، بل يتحقق به معراجه؛ فالمصلى كالمصطلى بالنار، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلاّ تحلّة القسم. أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة قال: أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس بن محمد بن أبى العباس الخليلى، قال: أخبرنا أبو سعيد الفرخزاذى قال: أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد قال: أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن قال: أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبرى قال: حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال: أخبرنا أحمد بن نصير قال: حدثنا آدم بن أبى إياس، عن ابن سمعان، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين؛ فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم. قال الله عزّ وجل: مجدّنى عبدى، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين: قال الله تعالى: حمدنى عبدى، فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علىّ عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: فوّض إلىّ عبدى. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين: قال: هذا بينى وبين عبدى، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال الله تعالى: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

---

(١) من سورة المؤمنون الآيتان الأولى والثانية.

(٢) متفق عليه

فالصلاة صلة بين الربّ والعبد، وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعًا لصولة الربوبية على العبودية.

وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خضع له، ومن يتحقق بالصلة فى الصلاة تلمع له طوالع التجلىّ فيخشع، والفلاح للذين هم فى صلاتهم خاشعون. وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى﴾[١] وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان؟

قال الله تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتم سكَارَى حَتَّى تَعلَموا مَا تَقولُون﴾[٢] فمن قال ولايعلم ما يقول كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك؟ فالسكران يقول الشىء لا بحضور عقل، والغافل يصلى لا بحضور عقل؛ فهو كالسكران.

وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعَ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بَالْوَادِى الْمقَدَّسِ طُوَى﴾[٣] قيل: نعليك: همك بامرأتك، وغنمك؛ فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة.

وقيل: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة وينظرون يمينًا وشمالاً. فلما نزلت: ﴿الَّذِين هُم فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعونَ﴾[٤] جعلوا وجوههم حيث يسجدون، وما مارئى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلاّ إلى الأرض.

وروى أبو هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدى الرحمن، فإذا التفت قال له الرب: إلى من تلتفت! إلى من هو خير لك منىّ ! ! ابن آدم أقبل إلىّ فأنا خير لك ممن تلتفت إليه»[٥].

وأبصر رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا صليت فصل صلاة مودّع».

---

(١) آية رقم ١٤ من سورة طه.

(٢) آية رقم ٤٣ من سورة النساء.

(٣) آية رقم ١٢ من سورة طه.

(٤) آية ٢: سورة المؤمنون.

(٥) متفق عليه.

فالمصلى سائر إلى الله تعالى بقلبه يودّع هواه، ودنياه، وكلّ شيء سواه.

والصلاة في اللغة: هي: الدعاء؛ فكأن المصلّي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرًا وباطنًا، ويشارك الظاهر الباطن بالتضرّع والتقلّب والهيئات في تملقات متضرع سائل محتاج؛ فإذا دعا بكليته أجابه مولاه؛ لأنه وعد فقال: ﴿أدْعونِي أسْتَجِبْ لكُمْ﴾[1] وكان خالد الربعي يقول: عجبت لهذه الآية: ﴿ادْعونِي أسْتَجِبْ لكُمْ﴾؛ أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط.

والاستجابة، والإجابة: هي نفوذ دعاء العبد؛ فإن الداعَي الصادق العالمَ بمن يدعوه بنور يقينه، فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة.

وخصّ الله تعالى هذه الأمة بإنزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء: ليكون أسرع إلى الإجابة وهي تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء.

وفاتحة الكتاب هي: السبع المثاني والقرآن العظيم.

قيل: سميت مثاني؛ لأنها نزلت على رسول الله ﷺ مرّتين: مرة بمكة، ومرّة بالمدينة.

وكان لرسول الله ﷺ بكل مرّة نزلت منها فَهمٌ آخر، بل كان لرسول الله ﷺ بكل مرّة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر.

وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها، وتقذف لهم كل مرّة درر بحارها.

وقيل: سميت مثاني؛ لأنها استثنيت من الرسل، وهي سبع آيات.

وردت «أم رومان» قالت: رآني أبو بكر وأنا أتميل في الصلاة، فزجرني زجرًا كدت أن أنصرف عن صلاتي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه، لا يتميّل تميّل اليهود؛ فإن سكون الأطراف من تمام الصلاة»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»[3] قيل: وما خشوع النفاق؟ قال «خشوع البدن ونفاق القلب».

---

(١) من آية رقم ٦٠ من سورة غافر.

(٢) رواه الترمذي والدارقطني.

(٣) متفق عليه

أما تميّل اليهود، قيل: كان موسى يعامل بنى إسرائيل على ظاهر الأمور؛ لقلّة ما فى باطنهم؛ فكان يهيئ الأمور ويعظمها، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحلى التوراة بالذهب.

ووقع لى. والله أعلم — أن موسى كان يَـرِدُ عليـه الـوارد فـى صلاتـه ومحـال مناجاتـه فيموج به باطنه كبحر ساكن تهبُّ عليه الريح فتتلاطم الأمواج. فكان تمايل موسـى عليـه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هبّ عليه نسمات الفضل.

وربمّا كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية، فتهم بالاستعلاء، وللقلب بـها تشـبك وامتزاج، فيضطرب القالب ويتمايل، فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حـظ لبواطنـهم من ذلك؛ ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ إنكارًا على أهل الوسوسـة: «وهكـذا خرجـت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل حتـى شـهدت أبدانـهم وغـابت قلوبـهم، لا يقبـل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه، وإن الرجل على صلاته دائـم ولا يكتـب له عشرها إذا كان قلبه ساهيًا لاهيًا».

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس، وقد قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عمـاد الدين فمن ترك الصلاة فقد كفر»[1].

فبالصلاة: تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية. وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سرّ الصلاة قال سهل بن عبد الله: يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل.

ومن الأدب: ترك الدنيا. والذى ذكره سهل هو معنى ما قـال عمـر علـى المنـبر: «إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله صلاة! ! قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله فيها.

وقد ورد فى الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهـواء يصلـون بصلاتـه ويؤمنـون علـى دعائه.

وإنّ المصلى لينشر عليه البرّ من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: «لـو علـم المصلى من يناجى ما التفت» أو ما انفتل.

---

(١) متفق عليه

وقد جمع الله تعالى للمصلّين فى كل ركعة ما فرّق على أهل السموات؛ فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة، وهكذا فى السجود، والقيام، والقعود.

والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة الراكعين منهم، وفى السجود بصفة الساجدين، وفى كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم.

وفى غير الفريضة ينبغى للمصلي أن يمكث فى ركوعه متلذذًا بالركوع غير مهتم بالرفع منه، فإن طرقته سآمةٌ بحكم الجبلّة استغفر منها، ويستديم تلك الهيئة، ويتطلّع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة.

وربما يتراءى للراكع المحق أنه إن سبق همه في حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفىّ الهيئة حقها، فيكون همّه الهيئة مستغرقًا فيها، مشغولاً بها عن غيرها من الهيئات، فبذلك يتوفّر حظه من بركة كل هيئة؛ فإن السرعة التى يتقاضى بها الطبع تسدّ باب الفتوح ويقف فى مهابّ النفحات الإلهية حتى يتكامل حظّ العبد، فتنمى آثاره بحسن الاسترسال ويستقرّ فى مقعد الوصال.

وقيل: فى الصلاة أربع هيئات وستة أذكار؛ فالهيئات الأربع: القيام، والقعود، والركوع، والسجود. والأذكار الستة: التلاوة والتسبيح، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبى ﷺ، فصارت عشرة كاملة تفرّق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة: كل صفّ عشرة آلاف؛ فيجتمع فى الركعتين ما يفرق على مائة ألف من الملائكة.

الباب السابع والثلاثون
فى وصف صلاة أهل القرب

ونذكر فى هذا الوصف كيفية الصلاة بهيآتها، وشروطها، ولآدابها الظاهرة والباطنة، على الكمال بأقصى ما انتهى إليه فهمنا وعلمنا على الوجه، مع الإعراض عن نقل الأقوال فى كل شيء من ذلك؛ إذ فى ذلك كثرة، ويخرج عن حدّ الاختصار والإيجاز المقصود، فنقول وبالله التوفيق: ينبغى للعبد أن يستعدّ للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء، ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة؛ فذلك من المحافظة عليها.

ويحتاج فى معرفة الوقت إلى معرفة الزوال، وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره.

ويعتبر الزوال بأن الظلّ مادام فى الانتقاص فهو النصف الأول من النهار؛ فإذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس.

وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كم قدم تزول يعرف أوّل الوقت، وآخره، ووقت العصر. ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر، ويعلم أوقات الليل.

وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب.

فإذا دخل وقت الصلاة يقدّم السنّة الراتبة، ففى ذلك سرّ وحكمة؛ وذلك - والله أعلم - : أن العبد تشعث باطنه، وتفرّق همّه؛ لِما يُلى به من المخالطة من الناس، وقيامه بمهام العيش، أو سهو جرى بوقع الجبلّة، أو صرف همّ إلى أكل - أو نوم بمقتضى العادة، فإذا قدّم السنّة ينجذب باطنه إلى الصلاة ويتهيّأ للمناجاة ويذهب بالسنّة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدًا للفريضة.

فالسنة مقدّمة صالحة يستنزل بها البركات، وتطرق النفحات.

ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله، ومن الذنوب عامة وخاصة؛ فالعامة الكبائر، والصغائر، مما أومأ إليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة. والخاصة: ذنوب حال الشخص فكلّ عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها.

وقيل حسنات الأبرار سيئات المقربيّن.

ثم لا يصلّى إلاّ جماعة، قال رسول الله ﷺ «تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة»[1].

---

(١) متفق عليه.

ثم يستقبل القبلة بظاهرة، والحضرة الإلهية بباطنة، ويقرأ ﴿ قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّـاس ﴾ ويقرأ فى نفسه آية التوجّه، وهذا التوجّه قبل الصلاة، والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه إلى القبلة.

وتخصيص جهته بالتوجّه دون جهة الصلاة، ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كفاه حذو منكبيه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه، ورءوس الأصابع مع الأذنين، ويضم الأصابع وإن نشرها جاز، والضم أولى؛ فإنه قيل: النشرُ نشر الكف لا نشر الأصابع، ويكبّر، ولا يدخل بين باء «أكبر» ورائه ألفًا، ويجزم «أكبر» ويجعل المدّ فى (الله) ولا يبالغ فى ضم الهاء من (الله)، ولا يبتدئ بالتكبير إلا إذا استقرت اليدان حذو المنكبين، ويرسلهما مع التكبير من غير نقض، فالوقار إذا سكن القلب تشكلت به الجوارح، وتأيدت بالأولى والأصوب ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها.

وحكى عن الجنيد أنه قال: لكل شىء صفوة، وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى.

وإنما كانت التكبيرة صفوة؟ لأنها موضع النية وأول الصلاة.

قال أبو نصر السرّاج: «سمعت به سالم يقول: النيّة بالله لله، ومن الله. والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النيّة من العدوّ، ونصيب العدو، وإن كثر، لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وإن قلّ.

وسئل أبو سعيد الحزاز: كيف الدخول فى الصلاة؟ فقال: هو أن تُقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف فإنه الملك العظيم.

وقيل لبعض العارفين: كيف تكبّر التكبيرة الأولى؟ فقال: ينبغى إذا قلت «الله أكبر» أن يكون مصحوبك فى الله: التعظيم مع الألف، والهيبة مع اللام، والمراقبة والقرب مع الهاء.

واعلم أن من الناس من إذا قال «الله أكبر» غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء، وامتلأ باطنه نورًا وصار الكون بأسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة، ثم تلقى الخردلة، فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس! ! وما يتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فألقيت، فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد؟ وقد تزاحم مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية، غير أنه لغاية لطف

الحال يختص الروح بمطالعة العظمـــــة والقلـب يتميز بالنيّـة. فتكـون النيـة موجـودة بألطف صفاتها، مندرجة فى نور العظمة اندراج الكواكب فـى ضـوء الشـمس. ثـم يقبـض بيده اليمنى يده اليسرى، ويجعلهما بين السرّة والصدر، واليمنـى لكرامتـها تجعـل فـوق اليسرى، ويمد المسبحة والوسطى على السـاعد، ويقبـض بالثلاثـة البواقـى اليسـرى مـن الطرفين.

وقد فسر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [(١)] قال: إنه وضع اليمنى على الشـمال تحـت الصـدر، وذلـك أن تحـت الصـدر عِرقًا يقـال لـه «الناحر» ، أى: ضع يدك على الناحر وقال بعضـهم: «وانحـر» أى: اسـتقبل القبلـة بنحرك. وفى ذلك سرّ خفىّ يكاشف به من وراء أستار الغيب؛ وذلك أن الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرّفه، وكرّمه، وجعله محل نظره، ومورد وحيـه، ونخبـة مـا فـى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا، أرضيا وسماويا، منتصب القامة، مرتفع الهيئة، فنصفه الأعلى من حدّ الفؤاد مستودع أسرار السموات، ونصفـه الأسـفل مسـتودع أسـرار الأرض، فمحل نفسه ومركزها النصفُ الأسفل، ومحل روحه الروحانى والقلـب النصـفُ الأعلـى؛ فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربـان، وباعتبـار تطاردهمـا وتغالبـهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان، ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجـود التجـاذب بـين الإيمـان والطبع، فيكاشف المصلى الذى صار قلبه سماويًا مترددًا بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها.

وللجوارح، وتصرفها، وحركتها مع معانى الباطن ارتباط وموازنة؛ فبوضع اليمنـى علـى الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها، وأثـر ذلـك يظـهر بدفـع الوسوسـة وزوال حديث النفس فى الصلاة، ثم إذا استولت جواذب الروح وتملكت من الفَـرق[(٢)] إلى القـدم — عند كمال الأنس وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة — تصـير النفـس مقـهورة ذليلة، ويستنير مركزها بنور الروح، وتنقطع حينئذ جواذب النفس.

وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل[(٣)] العبادة، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال فيسبل[(٤)] حينئذ.

---

(١) آية ٢ من سورة الكوثر.

(٢) الفرْق: الطريق فى شعر الرأس.

(٣) هكذا فى الأصل ولعل العبارة «توزن».

(٤) يقال: أسبل الدمع أرسل الماء صبه وأسبل الستر أرخاه.

ولعل لذلك — والله أعلم — ما نقل عن رسول الله ﷺ أنه صلّى مسبلاً، وهو مذهب مالك رحمه الله تعالى.

ثم يقرأ ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ.. ﴾ الآية، وهذا التوجه إنقاء لوجه قلبه، والذى قبل الصلاة لوجه قالبه، ثم يقول: سبحانك اللهم، وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت سبحانك، وبحمدك، أنت ربى، وأنا عبدك، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى أحسنها إلاّ أنت، واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك فالخير كله بيديك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك.

ويطرق رأسه فى قيامه، ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض فهذا من خشوع سائر الأجزاء. ويتكون الجسد بتكون القلب من الخشوع.

ويراوح بين القدمين بمقدار أربع أصابع، فإن ضم الكعبين هو «الصفد» المنهى عنه.

ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه «الصفن» [1] المنهى عنه، نهى رسول الله ﷺ عن الصفن والصفد.

فإذا كان الصفن منهيا عنه، ففى زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من «الصفن» فالأولى رعاية الاعتدال فى الاعتماد على الرجلين جميعًا.

ويكره اشتمال الصماء: وهو أن يخرج يده من قبل صدره.

ويجتنب «السدل» وهو أن يرخى أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه معنى الخيلاء.

وقيل: هو الذى يلتف بالثوب، ويجعل يديه من داخل، فيركع ويسجد كذلك.

وفى معناه: ما إذا جعل يديه داخل القميص.

ويجتنب الكف: وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود.

ويكره الاختصار: وهو أن يجعل يده على الخاصرة.

ويكره الصلب. وهو وضع اليدين جميًعا على الخصرين، وتجافى العضدين.

---

(١) صفن الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابع، وصفن الرجل: صف قدميه.

فإذا وقف فى الصلاة على الهئية التى ذكرناها مجتنبًا للمكاره فقد تم القيام وكمله.

فيقرأ آية التوجه والدعاء، كما ذكرناها، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها فى كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب، وجمع هم، ومواطأة بين القلب واللسان بحفظ وافر من الوصلة، والدنو، والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والمناجأة، وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إمامًا فى السكتة الثانية «اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، ونقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد» فحسن، وإن قالها فى السكتة الأولى فحسن.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال ذلك.

وإن كان منفردًا يقولها قبل القراءة.

ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب، وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه، ولسانه يعبر عما فى قلبه، ولو أمكن المتكلم إفهام من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تقدر الإفهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانًا، فإذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانًا ولا القارئ متكلمًا قاصدًا إسماع الله حاجته، ولامستمعًا إلى الله فاهمًا عنه، سبحانه، ما يخاطبه، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول، فينبغى أن يكون متكلًا مناجيًا، أو مستمعًا راعيًا. فأقل مراتب أهل الخصوص فى الصلاة الجمُع بين القلب واللسان فى التلاوة. ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها.

قال بعضهم: «ما دخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها غير ما أقول».

وقيل لعامر بن عبد الله: هل تجد فى الصلاة شيئًا من أمور الدنيا؟

فقال: لأن تختلف على الأسنة أحب إلى من أن أجد فى الصلاة ما تجدون».

وقيل لبعضهم: هل تحدّث نفسك فى الصلاة بشىء من أمور الدنيا؟

فقال: لا فى الصلاة ولا فى غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الإنابة، لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال: ﴿مُنيبينَ إليه واتقوه وأقيمُوا الصّلاة﴾ [1] فينيب إلى الله تعالى، ويتقى الله تعالى بالتبرى عمّا سواه، ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام،

---

(١) آية رقم ٣١ من سورة الروم.

فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة فى فضاء قلب ليس فيه غيرها. فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيذ نعمة الإصغاء، ويتشربها بحلاوة الاستماع وكمال الوعي، ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها معانى تلطف عن تفصيل الذكر، وتتشكل بخفى الفكر. ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس، فالنفس المطمئنة متعوِّضة بمعاني القرآن عن حديثها، لكونها معانى ظاهرية متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس المكونَّة لإقامة رسم الحكمة، ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب، وتخلص الروح المقدَّس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم.

وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لجج الأشواق.

كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلّى ذات يوم فى مسجد البصرة، فوقعت أسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق، وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك.

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع، ثم يركع منطوى القامة، والنصف الأسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين، ويجافى مرفقيه عن جنبيه، ويمد عنقه مع ظهره، ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الأصابع.

روى مسعد بن سعد، قال: صليت إلى جنب سعد بن مالك فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما، فضرب بيدى وقال: اضرب بكفيك على ركبتيك، وقال: يابنى، إنّا كنا نفعل ذلك فأُمرنا أن نضرب بالأكف على الركب.

ويقول: «سبحان ربى العظيم» ثلاثًا، وهو أدنى الكمال.

والكمال أن يقول إحدى عشرة مّرة، وما يأتى بــه مـن العـدد يكـون بعـد التمكـن مـن الركوع، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع، ويرفع يديه للركوع، والرفع من الركوع.

ويكون فى ركوعه ناظرًا نحو قدميــه، فـهو أقـرب إلى الخشـوع مـن النظـر إلى موضـع السجود، وإنما ينظر إلى موضع سجوده فى قيامه، ويقول بعد التسبيح: «اللهم لك ركعت ولك خشعت ولك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعى وبصرى وعظمى ومخّى وعصبى» ويكون قلبه فى الركوع متصفا بمعنى الركوع من: التواضع، والإخبات».

ثم يرفع رأسه قائلا: «سمع الله لمن حمده» عالمًا بقلبه ما يقول.

فإذا استوى قائمًا يحمد ويقول: ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد« ثم يقول: «أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد».

فإن أطال فى النافلة القيام، بعد الرفع من الركوع، فليقل: «لربّى الحمد» مكررًا ذلك مهما شاء فأما في الفرض فلا يطّول تطويلًا يزيد على الحدّ زيادة بينة.

ويقنع فى الرفع من الركوع بتمام الاعتدال بإقامة الصلب.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود»[1] ثم يهوى ساجدًا ويكون فى هويه مكبرًا مستيقظًا، حاضرًا خاشعًا عالمًا بما يهوى فيه، وإليه، وله، فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوى إلى تخوم الأرضين متغيبًا فى أجزاء الملك، لامتلاء قلبه من الحياء، واستشعار روحه عظيم الكبرياء، كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى.

ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان، ويسرح قلبه فى قضاء الكشف والعيان، فتهوى دون هويه أطباق السموات، وتنمحى لقوة شهوده تماثيل الكائنات، ويسجد على طرف رداء العظمة. وذاك أقصى ما ينتهى إليه طائر الهمّة البشرية. وتفى بالوصول إليه القوة الإنسانية.

وتتفاوت الأنبياء والأولياء فى مراتب العظمة، واستشعار كنهها، لكلٍ فهم على قدره حظ من ذلك، وفوق كل ذى علم عليم.

ومن الساجدين من يتسع وعاؤه، وينتشر ضياؤه، ويحظى بالصنفين، ويبسط الجناحين، فيتواضع بقلبه إجلالًا، ويرفع بروحه إكرامًا وإفضالًا، فيجتمع له الأنس والهيبة، والحضور والغيبة، والفرار والقرار، والإسراء والجهاز، فيكون فى سجوده سابحًا فى بحر شهوده، لم يتخلّف منه عن السجود شعرة، كما قال سيد البشر فى سجوده: «سجد لك سوادى وخيالى» ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طوعًا وَكَرْهًا﴾[2] الطوع: للروح والقلب؟ لما فيهما من الأهلية، والكره: من النفس لما فيها من الأجنبية.

ويقول فى سجوده: «سبحان ربى الأعلى» ثلاثًا إلى العشر الذى هو الكمال.

---

(١) رواه ابن ماجه

(٢) آية رقم ١٥ من سورة الرعد.

ويكون فى السجود مفتوح العينين، لأنهما يسجدان، وفى الهوّى يضع ركبته، ثم يديه، ثم جبهته وأنفه، ويكون ناظرًا نحو أرنبة أنفه فى السجود، فهو أبلغ فى الخشوع للساجد. ويباشر بكفيه المصلى، ولا يلفهما فى الثوب، ويكون رأسه بين كفيه، ويداه خدو منكبيه، غير متيامن ومتياسر بهما، ويقول بعد التسبيح: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه، وصوّره، وشق سمعه، وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين».

وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك. وإن قال: «سبّوح قدّوس رّب الملائكة والروح» فحسن.

روت عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده ذلك.

ويجافى مرفقيه عن جنبيه، ويوجّه أصابعه فى السجود نحو القبلة، ويضم أصابع كفيّه مع الإبهام ولا يفرش ذراعيه على الأرض، ثم يرفع رأسه مكبرًا، ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجّها بالأصابع إلى القبلة، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما، ويقول: «رب اغفر لى وارحمنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى». ولا يطيل هذه الجلسة فى الفريضة. أما فى النافلة فلا بأس مهما أطال، قائلا: « رب اغفر وارحم» مكررًا ذلك، ثم يسجد السجدة الثانية مكبرًا، ويكره الإقعاء فى القعود، وهو ها هنا: يضع إليتيه على عقبيه.

ثم إذا أراد النهوض إلى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة، ويفعل فى بقية الركعات هكذا، ثم يتشهد.

وفى الصلاة سرُّ المعراج، وهو: معراج القلوب.

والتشهد: مقرّ الوصول، بعد قطع مسافات الهئيات، على تدريج طبقات السموات.

والتحيات: سلام على ربّ البريات، فليذعن لما يقول، ويتأدّب مع من يقول، ويدرى كيف يقول ويسلّم على النبى ﷺ، ويمثّله بين عينى قلبه، ويسلّم على عباد الله الصالحين فلا يبقى عبد فى السماء ولا فى الأرض من عباد الله إلاّ ويسلم عليه بالنسبة الروحية، والخاصية الفطرية ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، مقبوضة الأصابع إلاّ المَسَبِّحة، ويرفع المسبحة فى الشهادة فى «إلا الله» لا فى كلمة النفى، ولا يرفعها منتصبة، بل مائلة برأسها إلى الفخذ منطوية.

فهذه هيئة خشوع المُسبِّحة، ودليل سراية خشوع القلب إليها.

ويدعو فى آخر صلاته لنفسه، وللمؤمنين، وإن كان إمامًا ينبغى أن لا ينفرد بالدعـاء، بل يدعو لنفسه، ولمن وراءه، فإن الإمام المتيقّظ فى الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج يسـأل لهم ويعرض حاجتهم، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وبهذا وصفهم الله تعالى فى كلامه بقوله سبحانه ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَان مَرصوص﴾ [1].

وفى وصف هذه الأمة فى الكتب السالفة صَفّهم فى صلاتهم كَصَفّهم فى قتالهم. وحدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النحيب السهرودى، إملاء، قال: أخبرنا عبدالرحمن محمد بن عيسى بن شعيب المالينى قال: أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسى قال: أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبدالرحمن الدارمى قال: أخبرنا مجاهد بن موسى قال: حدثنا معن هو ابن عيسى أنه سأل كعب الأحبار: كيف نجد نعت رسول الله ﷺ فى التوراة؟ قال: نجده «محمد بن عبد الله، ويولد بمكة، ويهاجر لطيبة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحّاشٍ ولا صخّاب فى الأسواق، ولا يكافئ السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمّادون: يحمدون الله فى كل سرّاء، ويكبّرون الله على كل نجد، يوضئون أطرافهم، ويتأزرون فى أوساطهم، يُصَفّون فى صلاتهم كما يُصفُّون فى قتالهم، دويّهم فى مساجدهم كدويّ النحل، يسمع مناديهم فى جوّ السماء».

فالإمام فى الصلاة مقدمة الصف فى محاربة الشيطان، فهو أولى المصلّين بالخشوع، والإتيان بوظائف الأداب ظاهرًا وباطنًا، والمصلّون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم وتتناصر وتتعاضد، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات، بل جميع المسلمين المصلّين فى أقطار الأرض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونَسب الإسلام ورابطة الإيمان، بل يمدّهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمّد رسول الله ﷺ بالملائكة المسّومين، فحاجاتهم إلى محاربة الشيطان أمسّ من حاجاتهم إلى محاربة الكفار، ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» فتتداركهم الأملاك، بل بأنفسهم الصادقة تتماسك الأفلاك.

فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلّم على يمينه، وينوى مع التسليم الخروجَ من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمنى الجنّ، ويجعل خدّه مبيناً لمن على

---

(١) من آية ٤ من سورة الصف.

يمينه بإلواء عنقه ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره، فقد ورد النهى عن المواصلة.

والمواصلة خمس: اثنان تختص بالإمام. هو أن لا يوصل القراءة بالتكبير، والركوع بالقراءة واثنتان على المأموم: وهو أن لا يوصل تكبيره الإحرام بتكبير الإمام، ولا تسليمه بتسليمه.

وواحدة على الإمام والمأمومين: وهو أن لا يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل. ويحزم التسليم ولا يمد مدًّا، ثم يدعو بعد التسليم بما يشاء من أمر دينه ودنياه، ويدعو قبل التسليم أيضًا فى صلب الصلاة فإنه يستجاب.ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البرّ والبحر عبادة.

وكلّ المقامات والأحوال زُبدتها الصلوات الخمس فى جماعة، وهى سرّ الدين، وكفارة المؤمن، وتمحيص للخطايا، على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى، رحمه الله، إجازة قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى، إجازة، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا، قال: حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، قال: حدثنا الحسين بن الحسين المروزى، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن عبدالله قال: سمعت أبى يقول: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات للخطايا» اقرءوا إن شئتم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[1].

---

(١) آية ١١٤ من سورة هود.

الباب الثامن والثلاثون

فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلّى : أن لا يكون مشغول القلب بشىء قَلّ أو كثر ؛ لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كما أمروا ؛ لأن الدنيا وأشغالها لمّا كانت شاغلة للقلب رفضوها غيّرة على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات ، وإذعانًا بالباطن لربّ البريّات ؛ لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر : (وفراغ القلب فى الصلاة عمّا سوى الله تعالى إذعان الباطن) فلم يروا حضور الظاهر وتخلّف الباطن حتى لا يختل إذعانهم فتنخرم عبوديتهم فيجتنب أن يكون باطنه مرتهنا بشىء ، ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد : (إذا حضر العَشاء والعِشاء فقدموا العَشاء على العِشاء) .

ولا يصلى وهو (حاقن) يطالبه البول ، ولا (حازق) يطالبه الغائط. والحزق أيضًا : ضيق الخفّ .

ولا يصلى أيضًا وخفه ضيّق يشغل قلبه ؛ فقد قيل : (لا رأى لحاذق) قيل : الذى يكون معه ضيق .

وفى الجملة ليس من الأدب أن يصلّى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها .

والاهتمام المفرط ، والغضب ، وفى الخبر : (لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطّب ، ولا يصلينّ أحدكم وهو غضبان) .

فلا ينبغى للعبد أن يتلبّس بالصلاة إلا وهو على أتمّ الهيئات ، وأحسن لبسة المصلّى سكون الأطراف وعدم الالتفات ، والإطراق ، ووضع اليمين على الشمال ، فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز ، وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز ، وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة : وقد حرّكت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرفت من الصلاة أنكر علىّ وقال : عندنا أن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادًا مجمدًا ، لا يتحرك منه شىء وقد جاء فى الخبر :

(سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ،والالتفات ، والعبث بالشيء من الشيطان أيضًا) . وقيل : السهو والشك .

وقد روى عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه قال : إن الخشوع فى الصلاة : أن لا يعرف المصلي مَن على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته .

وروى عن معاذ بن جبل ، أشدّ من ذلك ، قال : من عرف من على يمينه وشماله فى الصلاة متعمدًا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة .

قال بعضهم : لأن ذلك عدّده عملاً .

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[1] قيل: هو سكون الأطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبّرت التكبيرة الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك عالم بما فى ضميرك .

ومثّل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك .

وإنما ذكرنا أن تمثّل الجنة والنار ؛ لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس .

فيكون هذا التمثيل تداويًا للقلب ، لدفع الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين السهروردى ، إجازة ، قال : أخبرنا عمرو بن أحمد الصفار ، قال : أخبرنا أبو بكر بن خلف قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرّض لوساوس الشيطان . فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهده .

قال أبو سعيد الخرّاز : (إذا ركع فالأدب فى ركوعه أن ينتصب ، ويدنو ويتدلى فى ركوعه حتى لا يبقى منع مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون فى قلبه شيء أعظم من الله . ويصغر فى نفسه حتى يكون أقل من الهباء . وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك) .

---

(١) آية رقم ٢٣ من سورة المعارج .

وقال أيضًا : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى .

أو كأنه يقرأ على الله تعالى .

وقال السراج أيضًا : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ، ونفى كل شىء غير الله تعالى .

فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب ، فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة . فيبكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا فى الصلاة بهما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب . فكأنهم أبدًا فى الصلاة . فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيّأ له حفظ العدد من كمال استغراقه .

وكان يُجْلِس واحدًا من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلّى .

وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب فى المحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا ارتياب ، وخضوع الأركان بلا ارتقاب ؛ لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فَتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب .

فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب ، فهو مُصلٍ لاهٍ ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مُصلٍ ساهٍ ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصلٍ خاطىء ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصلٍ جافٍ ، ومن أتاها كما وُصف فهو مصل واف .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ : (إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلاً على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصباها وبغسل رجليه خطيئة أصابها حتى يدخل فى صلاته وليس عليه وزر)[1] .

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ ،فقال : (أىّ السرقة أقبح) ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم فقال : (إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته) ، قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : (لا يتم ركوعها ولا سجودها ولاخشوعها ولا القراءة فيها) .

---

(١) متفق عليه .

وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قُدِّم للإمامة فقال : لا أصلح ، فلمّا ألحوّا عليه كبر فغشى عليه ، فقدّموا إمامًا آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لمّا قلت استووا هتف بى هاتف : هل استويت أنت مع الله قط ! !

وقال عليه الصلاة والسلام : (إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلّى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت : حفظك الله كما حفظتنى ، ثم صعدت ولها نور حتى تنتهى إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضاعها قالت : ضيّعك الله كما ضيعتنى ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهى إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها)[١] .

وقال أبو سليمان الدارانى : إذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى : ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى فإذا التفتّ يقول الله : ارخوها فيما بينى وبينه وخلّوا عبدى وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الورّاق : ربّما أصلى ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحيى من الله حياء رجل انصرف من الزنا ! !

قوله هذا لعظيم الأدب عنده ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظّه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرورهم بين يديك . قال : إن الذى أصلّى له أقرب إلىّ من الذى يمشى بين يدى .

وقيل : كان زين العابدين علىّ بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يُعرف من تغيّر لونه . فيقال له فى ذلك فيقول : أتدرون بين يدىّ مَن أريد أن أقف ؟

وروى عمّار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يفعل)[٢] .

وقد ورد فى لفظ آخر : (منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف والثلث والربع والخمس حتى يبلغ العشر)[٣] .

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه ابن ماجه .

قال الخوّاص : ينبغى للرجل أن ينزى نوافله لنقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء .

بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، يقول الله تعالة مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدّية قبل قضاء الدين. وقال أيضًا : انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين : إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض ، والثانية : أنهم عملوا أعمالاً بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله أن يقبل من عامل عملاً إلاّ بالصدق وإصابة الحق .

وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين ، إلاّ أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع .

وإن تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ، ولا يلزق ذقنه بصدره ، ولا يزاحم فى الصلاة غيره ، قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم .

وقيل : من يترك الصف الأول مخافة أن يضيّق على أهله فقام فى الثانى أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل .

وروت عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يسمع فى صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع فى بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهمّ والحضور بين يدى الله .

وقال الحسن : ماذا يعزّ عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ! !

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه فقال : إذا دخلت الصلاة فهبْ لى من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ؛ فإنّى قريب .

وقال أبو الخير الأقطع[1] : (رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقلت : يا رسول الله أوصنى . فقال : يا أبا الخير ، عليك بالصلاة ؛ فإنّى استوصيت ربّى فأوصانى بالصلاة ،وقال لى : أن أقرب ما أكون منك وأنت تصلّى) .

---

(١) هو : عباد بن عبد الله التيناتى . قال المناوى : هو (التيناتى) نسبة إلى (تينات) قرية ببلاد المشرق . وأصله من المغرب وقدم من المشرق وصحب ابن الجلاد ، ومات سنة ٣٤١هـ ودفن بمصر بقرب قبر ذى النون المصرى .

وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما : ركعتان فى تفكير خيرٌ من قيام ليلة .

وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتماً الأصمّ واقفًا يعظ الناس فقال له : يا حاتم ، أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلّى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلّى ؟ قال : أقوم بالأمر وأمشى بالخشية وأدخل بالهيبة ، وأكبرّ بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلّم على السنّة ، وأسلّمها إلى ربىّ ، وأحفظها أيام حياتى ، وأرجع باللوم على نفسى ، وأخاف أن لا تقبل منى ، وأرجو أن تقبل منّى وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علّمنى ، وأعلّمها من سألنى ، وأحمد ربى إذا هدانى .

فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظًا .

وقوله تعالى : ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[1] قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام . وقال عليه الصلاة والسلام : (من صلّى ركعتين ولم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه)[2] .

وقال أيضًا : (إن الصلاة تمسكن وتواضع ، وتضّرع وتنادم ، وترفع يديك وتقول : اللهم .. اللهم فمن لا يفعل فهى خداج)[3] أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض ؛ خوفًا منه ؛ لأنه تأهّب للدخول على الملك ، فإذا كبّر حجب عنه إبليس . قيل : يضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا قال : (الله أكبر) اطّلع الملك فى قلبه ، فإذا لم يكن فى قلبه أكبر من الله تعالى يقول : صدقت ، الله فى قلبك كما تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات .

إن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل فإذا كبرّ اطّلع الله على قلبه ، فإذا كان شىء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول . فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابًا لقلبه عن الملكوت ، فيزداد ذلك الحجاب صلابة ،

---

(١) آية رقم ٤٣ من سورة النساء .

(٢) رواه النسائى .

(٣) رواه ابن ماجة .

ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه ، وينفث ، ويوسوس إليه ، ويزيّن ، حتى ينصرف من صلاته ، ولا يعقل ما كان فيها .

وفي الخبر : (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) .

والقلوب الصافية التي كمل آدابها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة ، والله تعالى ، حرس السماء من تصّرف الشياطين ؛ فالقلب السماوي لا سبيل إلى الشيطان إليه فتبقى هواجس نفسانية ، عند ذلك لا تنقطع بالتحصّن بالسماء كانقطاع تصّرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب ، تدرج بالتقريب ، وتعرج في طبقات السموات ، وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلّف شيء من ظلمة النفس ، وبقدر ذلك يقلّ الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار ، وتتأدىّ حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسيرٌ من كثيرٍ ، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا .

وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى وإذا حصل الذكر فأىّ حاجة إلى الصلاة ؟

وسلكوا طرقًا من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ، ومحوا الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام وقومٌ آخرون سلكوا في ذلك طريقًا أدتهم إلى نقصان الحال حيث سلموا من الضلال ؛ لأنهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل ، واغتروا بيسير روح الحال وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن الله في كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسرارًا وحِكمًا لا توجد في شيء من الأذكار ، فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد في دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عبدا للطغيان، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون

فى فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر) .

وقيل : ما فى عمل ابن آدم شىء إلاّ ويذهب بردّ المظالم ، إلاّ الصوم ؛ فإنه لا يدخله قصاص .

ويقول الله تعالى يوم القيامة : هذا لى ، فلا ينقص أحدٌ منه شيئًا .

وفى الخبر : (الصوم لى وأنا أجزى به) قيل : أضافه إلى نفسه ؛ لأن فيه خُلقًا من أخلاق الصمدية ، وأيضا ، لأنه من أعمال السرّ من قبيل التروك لا يطلّع عليه أحد إلا الله .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿السَّائِحُونَ﴾ : الصائمون ؛ لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿إنّما يُوَفَّى الصَّابِرُون أجْرهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(1) هم : الصائمون ؛ لأن الصبر اسم من أسماء الصوم .

ويفرغ للصائم إفراغًا ويجازف له مجازفة .

وقيل : أحد الوجوه فى قوله تعالى : ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(2) كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ : (إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ، ومن ابتلى بحرص الأكل فقد أحرق بنار الشهوة . وفى نفس ابن آدم ألف عضو من الشرٍ كلها فى كفّ الشيطان متعلّق بها ، فإذا جوّع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه يبس كل عضو واحترق بنار الجوع وفرّ الشيطان من ظلّه .

وإذا أشبع بطنه وترك حلقه فى لذائذ الشهوات فقد رطّب أعضاءه وأمكن الشيطان .

والشبع نهر فى النفس ترده الشياطين ، والجوع نهر فى الروح ترده الملائكة وينهزم الشيطان من جائع نائم فكيف إذا كان قائمًا ؟ !

---

(١) آية ١٠ من سورة الزمر .

(٢) آية ١٧ من سورة السجدة

ويعانق الشيطان شبعانًا قائمًا ، فكيف إذا كان نائمًا ؟ !

فقلب المريد الصادق يصرخ إلى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب .

دخل رجل إلى الطيالسىّ ، وهو يأكل خبزًا يابسًا قد بلّه بالماء مع ملح جريش ، فقال له : كيف تشتهى هذا ؟ ! قال : أدعه حتى أشتهيه .

وقيل : من أسرف فى مطعمه ومشربه يعجل الصَّغار والذل إليه فى دنياه قبل آخرته .

وقال بعضهم : الباب العظيم الذى يُدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء .

وقال بشر : إن الجوع يصفّى الفؤاد ويميت الهوى ويورّث العلم الدقيق .

وقال ذو النون : ما أكلت حتى شبعت ، ولا شربت حتى رويت إلا عصيت الله أو هممت بمعصيته . وروى القاسم بن محمد عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان يأتى علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار ، لا لمصباح ، ولا لغيره ، قال : قلت : سبحان الله ، فبأىّ شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : بالتمر والماء ، وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرًا كانت لهم (منائح)[1] فربما واسونا بشىء وروى أن حفصة بنت عمر ، رضى الله عنهما ، قالت لأبيها : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعامًا أكثر من طعامك ولبست ثيابًا ألين من ثيابك ! ! فقال : إنّى أخاصمك إلى نفسك : ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا .. ؟ يقول مرارًا .. فبكت ، فقال : قد أخبرتك والله لأشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء .

وقال بعضهم : ما تخلت لعمز دقيقًا إلاّ وأنا له عاص .

قالت عائشة ، رضى الله تعالى عنها : ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز بُر حتى مضى لسبيله .

قالت عائشة ، رضى الله تعالى عنها : أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم .. قالوا : كيف نديم ؟

قالت : بالجوع والعطش والظمأ .

وقيل: ظهر إبليس ليحيى بن زكريا، عليهما السلام، وعليه معاليق، فقال: ما هذه؟ قال : الشهوات التى أصيب بها بنى آدم، قال: هل تجد لى فيها شهوة؟ قال: لا، غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر، فقال: لا جرم، إنّى لا أشبع أبدًا.

---

(١) منائح جمع منحة وهى العطية

قال إبليس : لا جرم إنّى لا أنصح أحدًا أبدًا.

وقال شقيق: العبادة حِرْفَةٌ ، وحانوتها الخلوة، وآلاتُها الجوع.

وقال لقمان لابنه : إذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال الحسن: لا تجمعوا بين الأدمين؛ فإنه من طعام المنافقين.

وقال بعضهم: أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية.

فيكره للمريد أن يوالى فى الإفطار أكثر من أربعة أيام؛ فإن النفس عند ذلك تركن إلى العادة، وتتسع بالشهوة.

وقيل: الدنيا بطنك؛ فعلى قدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ آدمى وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة؛ فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[1].

وقال فتح الموصلى: صحبت ثلاثين شيخًا كلّ يوصينى عند مفارقتى إياه بترك عِشرة الأحداث، وقلّة الأكل.

---

(١) متفق عليه .

الباب الأربعون
اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى.

وكان عبد الله بن جابار قد صام نيفًا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر، فجهد به أصحابه يومًا فأفطر، فاعتل من ذلك أيامًا.

فإذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائمًا، ويدع للإفطار جانبًا؛ فهو عون حسن له على ما يريد، روى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ : «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا، وعقد تسعين. . .»[1]

أى لم يكن له فيها موضع.

وكره قوم صوم الدهر، وقد ورد فى ذلك ما رواه أبو قتادة قال: سُئل رسول الله ﷺ : كيف بمن صام الدهر؟

قال: «لا صام ولا أفطر».

وأوّلَ قومٌ أنَّ صوم الدهر هو أن لا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذى يكره.

وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله ﷺ .

ومنهم من كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقد ورد: «أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام: كان يصوم يومًا ويفطر يومًا».

واستحسن ذلك قوم من الصالحين؛ ليكون بين حال الصبر وحال الشكر.

ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يومًا، أو يصوم يومًا ويفطر يومين.

ومنهم من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة.

وقيل: كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يومًا مرّة، وفى رمضان يأكل أكلة واحدة، وكان يفطر بالماء القراح للسنّة.

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام؛ فإذا دخل عليه إخوته أفطر معهم ويقول: ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم.

غير أنه هذا الإفطار يحتاج إلى علم؛ فقد يكون الداعى إلى ذلك شره النفس، لا نيّة الموافقة، وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب.

---

(١) رواه الإمام أحمد .

وسمعت شيخنا يقول: لى شيئين ما أكلت شيئًا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء؛ بل يقدّم إلىّ الشيءُ فأراه من فضل الله ونعمته وفعله، فأوافق الحقّ فى فعله.

وذكر أنه فى ذات يوم اشتهى الطعام، ولم يحضر مَن عادته تقديم الطعام إليه، قال: ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمّانة لآكلها، فدخلت السنورّ وأخذت دجاجة كانت هناك، فقلت: هذا عقوبة لى على تصرّفى فى أخذ الرمانة.

ورأيت الشيخ أبا السعود، رحمه الله، يتناول الطعام فى اليوم مرات، أىَّ وقت حضر الطعام أكل منه، ويرى أنَّ تناوله للطعام موافقة الحق؛ لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار فى مأكوله، وملبوسه وجميع تصاريفه. وكان حال الوقوف مع فعل الحق، وقد كان له فى ذلك بداية يعزّ مثلها؛ حتى نقل أنه بقى أيامًا لايأكل ولايعلم أحد بحاله، ولايتصرف هو لنفسه، ولايتسبب إلى تناول شيء، وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان، ثم إنّ الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة، وكانوا يتكلفون الأطعمة ويأتون بها إليه، وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة.

سمعته يقول : أصبح كلّ يوم وأحبّ ما إلىّ الصوم. وينْقُضُ الحقُّ علىَّ محبتى الصوم بفعله، فأوافق الحق فى فعله.

وحكى عن بعض الصادقين من أهل «واسط» أنه صام سنين كثيرة وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلاّ فى رمضان.

وقال أبو نصر السرّاج: أنكر قوم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوّعًا، واستحسنه آخرون؛ لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع، وأن لايتمتع برؤية الصوم، ووقع لى أن هذا إن قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم. وهذا يتسلسل.

والأليق بموافقة العلم إمضاء الصوم، قال الله تعالى: ﴿ولاَ تُبْطِلُوا أعْمَالَكُمْ﴾[1] .

ولكنّ أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون، فلا يعارضون. الصدقُ محمود لعينه كيف كان، والصادق فى خفارة صدقه كيف تقلّب.

وقال بعضهم: إذا رأيت الصوفىّ يصوم صوم التطوع فاتهمه، فإنه قد اجتمع معه شيء من الدنيا.

---

(١) آية رقم ٣٣ من سورة محمد .

وقيل: إذا كان جماعة متوافقين أشكالاً، وفيهم مريد يحثّونه على الصيام، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفكاره ويتكلفوا له رفقًا به، ولا يحملوا حاله على حالهم، وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلاّ من يأمره الشيخ بغير ذلك.

وقيل: إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب إليه، فيتأدب به ويصوم بصيامه وحكي عن أبى الحسن المكىّ أنه كان يصوم الدهر، وكان مقيمًا بالبصرة، وكان لا يأكل الخبز إلاّ ليلة الجمعة وكان قوته فى كل شهر أربع دوانيق، يعمل بيده حبال الليف ويبيعها.

وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول: لا أسلّم عليه إلا أن يفطر ويأكل.

وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له في ذلك؛ لأنه كان مشهورًا بين الناس.

وقال بعضهم: ما أخلص لله عبد قط إلاّ أحبّ أن يكون فى جبٍّ لا يعرف.

ومن أكل فضلاً من الطعام أخرج فضلاً من الكلام.

وقيل: أقام أبو الحسن التنيسىّ بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا، فخرج بعض أصحابه ليتطهّر فرأى قشر بطيخ، فأخذه وأكله، فرآه إنسان فاتبع أثره، وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم، فقال الشيخ: من جنى منكم هذه الجناية؟! فقال الرجل: أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته. فقال: كن أنت مع جنايتك ورفقك، أنا تائب من جنايتى، فقال: لا كلام بعد التوبة.

وكانوا يستحبون صيام أيام البيض، وهى: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. روى أن آدم، عليه السلام، لمّا أهبط إلى الأرض أسودّ جسده من أثر المعصية، فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام البيض، فابيّض ثلث جسده بكل يوم صامه، حتى أبيض جميع جسده؛ بصيام أيام البيض. ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان، وإفطار نصفه الأخير. وإن واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به، ولكن إن لم يكن صام؛ فلا يستقبل رمضان بيوم أو بيومين.

وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه، كراهة المضاهاة برمضان، ويستحب صوم العشر من ذى الحجة والعشر من المحرم، ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم.

و ورد فى الخبر: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام: الخميس والجمعة والسبت بعدُ من النار سبعمائة عام»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم.

الباب الحادى والأربعون

آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية فى الصوم: ضبطُ الظاهر والباطن، وكفّ الجوارح عن الآثام، كمنع النفس عن الطعام، ثم كفّ النفس عن الاهتمام بالأقسام.

سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار يخرجونه، ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار.

وليس من الأدب أن يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام!!

قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يعيبون[1] قيام الحمقى وصيامهم!! ولذرّة من ذى يقين وتقوى أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين.

ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحدّ الذى كان يأكله وهو مفطر، إلا فإذا جمع الأكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها ما فوّت!!

ومقصود القوم من الصوم: قهرُ النفس، ومنعها عن الاتساع، وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة.

والنفس من طبعها أنّها إذا أُقهرت لله تعالى فى شىء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها: فيصير بالأكل النوم ضرورة، والقول والفعل ضرورة، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده، ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها إلا عبدا يريد الله تعالى أن يقرّبه ويدنيه ويصطفيه ويربّيه، ويمتنع فى صومه عن ملاعبة الأهل والملامسة؛ فإنّ ذلك أنزه للصوم.

ويتسحّر استعمالاً للسنّة، وهو أدعى إلى إمضاء الصوم لمعنيين، **أحدهما**: عود بركة السنّة عليه، **والثانى**: التقوية بالطعام على الصيام.

وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «تسحروا؛ فإن فى السحور بركة»[2].

---

(١) وفى نسخة: يغبنون.

(٢) متفق عليه.

ويعجّل الفطر عملاً بالسنّة، فإن لم يُرد تناول الطعام إلاّ بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاء يفطر بالماء، أو على أعداد من الزبيب أو التمر، ويأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين، فإحياء ذلك له فضل كثير، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنّة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى قال: أخبرنا أبو نصر الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا إسحق بن موسى الأنصارى قال: حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى، عن قرّة، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حكاية عن ربّه) قال الله عزّ وجل: «أحبّ عبادى إلىّ أعجلهم فطرًا»[1] وقال ﷺ: «لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[2].

والإفطار قبل الصلاة سنّة، كان رسول الله ﷺ يفطر على جرعة من ماء، أو مزقة من لبن، أو تمرات.

وفى الخبر: «كم من صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش» قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام، وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة، قال سفيان: من اغتاب فسد صومه.

وعن مجاهد : خصلتان تفسدان الصوم: الغيبة والكذب.

قال الشيخ أبو طالب المكيّ: قرن الله الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم بأكل الحرام فقال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُون للسُّحْتِ﴾[3] وورد فى الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذنانه فى الإفطار، فأرسل إليهما قدحًا وقال: «قولا لهما: قيئا فيه ما أكلتما، فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطًا ولحمًا غريضًا وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه، فعجب الناس من ذلك فقال رسول الله ﷺ: هاتان صامتا عمّا أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما»[4].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) من آية ٤٢ من سورة المائدة.

(٤) متفق عليه.

وقال ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم»[1].

وفى الخبر: «إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته».

والصوفى الذى لا يرجع إلى معلوم، ولا يدرى متى يساق إليه الرزق، فإذا ساق الله تعالى إليه الرزق تناوله بالأدب، وهو دائم لوقته، وهو فى إفطاره أفضل من الذى له معلوم مُعدٌّ، فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل.

حكى عن «رويم» قال: اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد، فعطشت: فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرّد، فلما أردت أن أتناول من يدها قالت: صوفى ويشرب بالنهار؟! وضربتْ بالكوز على الأرض، وانصرفتْ. قال رويم: فاستحييت من ذلك، ونذرت إلا أفطر أبدًا.

والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس إذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليه الإفطار، وهكذا بتعوّدها الإفطار تكره الصوم، فيرون الفضل فى أن لا تركن النفس إلى عادة، ورأوا أن إفطار يوم وصومَ يوم أشدّ على النفس.

ومن أدب الفقراء: أن الواحد إذا كان بين جمع وفى صحبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم؛ فإن صام بإذن الجمع وفُتح عليهم بشىء لا يلزمهم ادّخار للصائم ومع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك، فإن الله تعالى يأتى للصائم برزقه، إلاّ أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله، أو ضعف بنيته لشيخوخته، أو غير ذلك. وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره؛ لأن ذلك من ضعف الحال. فإن كان ضعيفًا يعترف بحاله وضعفه، فيدخره.

والذى ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم، فأما الصوفية المقيمون فى رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام، ولا يلزمهم موافقة الجمع فى الإفطار، وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يُقدَّم لهم بالنهار، فأما إذا كانوا على غير معلوم فقد قيل: مساعدة الصوّام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوّام.

وأمر القوم مبناه على الصدق، ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس؛ فكلّ ما صحت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة فهو الأفضل.

---

(١) متفق عليه.

فأمّا من حيث السنّة فمن يوافق له وجه إذا كان صائمًا وأفطر للموافقة، وإن صام ولم يوافق فله وجه.

فأمّا وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبي الفضل الحافظ المقدسي: قال: أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال: أخبرنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال: حدثنا عبد الله بن حماد قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثنى عطاء بن خالد، عن حماد بن حميد، عن محمد بن المنكدر، عن أبى سعيد الخدرى قال: اصطنعت لرسول الله ﷺ وأصحابه طعامًا فلمّا قُدّم إليهم قال رجل من القوم: إنّى صائم، فقال رسول الله ﷺ: «دعاكم أخوكم وتكلّف لكم، ثم تقول إنّى صائم، افطر واقض يومًا مكانه».

وأما وجه من لا يوافق، فقد ورد أن رسول الله ﷺ وأصحابه أكلوا وبلال صائم، فقال رسول الله ﷺ: «نأكل رزقنا ورزق بلال فى الجنة»[1].

فإذا علم أن هناك قلبًا يتأذّى، أو فضلاً يرجى من موافقة من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية، لا بحكم الطبع وتقاضيه، فأن لم يجد هذا المعنى لا ينبغى أن يتلبّس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه، وقد تكون الإجابة لداعية النفس، لا لقضاء حقّ أخيه.

ومن حسن آداب الفقير الطالب، أنه إذا أفطر وتناول الطعام ربّما يجد باطنه متغيّرًا عن هيئته. ونفَسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة فيعالج مِزاج القلب المتغيّر بإذهاب التغيّر عنه. ويذيب الطعام بركعات يصلّيها، أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتى به، فقد ورد فى الخبر: «أذيبو طعامكم بالذكر».

ومن مهام آداب الصوم: كتمانه مهما أمكن، إلا أن يكون متمكنًا من الإخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن.

---

(١) متفق عليه.

الباب الثانى والأربعون

ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفىّ بحسن نيته، وصحة مقصده، ووفور علمه، وإتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة، والصوفىّ موهوب، وقته لله، وحياته لله، كما قال الله تعالى لنبيه آمرًا له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) فتدخل على الصوفىّ أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته، ويحفّ بعادته نور يقظته، وحسن نيته، فتتنوّر العادات، وتتشكل بالعبادات؛ ولهذا ورد: «نوم العالم عبادة ونَفَسه تسبيح» هذا مع كون ا لنوم عين الغفلة، ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة؛ فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة، لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلّق أثره بالقلب والقالب، وبه قوام البدن بإجراء سنّة الله تعالى بذلك، والقالب مركب القلب، وبهما عمارة الدنيا والآخرة. وقد ورد: «أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس» والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين.

والله تعالى ركّب الآدمى بلطيف حكمته من أخصّ جواهر الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسموات، جعل عالم الشهادة، وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمى. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٢) فتكون الطبائع، وهى: الحرارة، والرطوبة، والبرودة، واليبوسة، وكوّن بواسطتها النبات، وجعل النبات قوامًا للحيوانات، وجعل الحيوانات مسخّرة للآدمىّ يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه، فالطعام يصل إلى المعدة، وفى المعدة طباع أربع، وفى الطعام طباع أربع، فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام، فتؤخذ الحرارة للبرودة، والرطوبة لليبوسة، فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج، وإذا أراد الله تعالى افناء قالب وتخريب بنية أخذت كلُّ طبيعة جنسها من المأكول فتميل الطبائع، ويضطرب المزاج، ويسقم البدن ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(٣).

---

(١) آية رقم ١٦٢ من سورة الأنعام.

(٢) آية رقم ٢٩ من سورة البقرة.

(٣) من آية ٣٨ من سورة يس.

روى عن وهب بن منبه قال: وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام «إنى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء، من: رطب، ويابس، وبارد، وسخن، وذلك لأنى خلقته من التراب وهو يابس، ورطوبته من الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قِبل الروح، وخلقت فى الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق، هنَّ ملاك الجسم بإذنى، وبهن قوامه. فلا يقوم الجسم إلا بهنّ، ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى منهن: المِرّة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم. ثم أسكنت بعض هذا الخلق فى بعض، فجعلت مسكن اليبوسة فى المرّة السوداء، ومسكن الرطوبة فى المرّة الصفراء، ومسكن الحرارة فى الدم، ومسكن البرودة في البلغم، فأيُّما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التى جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كلٍ واحدة منهن رُبعًا لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيته، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهنّ ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن.

فأهم الأمور فى الطعام أن يكون حلالاً، وكل ما لا يذمه الشرع حلال، رخصة ورحمة من الله لعباده، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأتعب طلبُ الحلال.

ومن أدب الصوفية: رؤية المنعم على النعمة، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام، قال رسول الله ﷺ: «الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر».

وإنما كان موجبًا لنفى الفقر؛ لأن غسل اليد قبل الطعام استقبالُ النعمة بالأدب، وذلك من شكر النعمة، والشكر يستوجب المزيد فصار غسل اليد مستجلبًا للنعمة، مُذهبًا للفقر.

وقد روى أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه، ثم يسمى الله تعالى»[١].

فقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[٢] تفسيره: تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان. واختلف الشافعى وأبو حنيفة، رحمهما الله تعالى، فى وجوب ذلك.

وفهم الصوفىّ من ذلك، بعد القيام بظاهر التفسير: أن لا يأكل الطعام إلا مقرونًا بالذكر، فقرنُه فريضة وقته وأدبه. ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس ومتابعة هواها، ويرى ذكر الله تعالى دوائه وترياقه.

---

(١) متفق عليه

(٢) آية رقم ١٢١ من سورة الأنعام.

روت عائشة رضى الله عنها قال: (كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه لو كان يسمى الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعامًا فليقل بسم الله، فإن نسى أن يقول بسم الله، فليقل بسم الله أوله وآخره».

ويستحب أن يقول فى أوّل لقمة: «بسم الله» وفى الثانية: «بسم الله الرحمن» وفى الثالثة يتمُّ.

ويشرب الماء بثلاثة أنفاس، يقول فى أول نَفَس: «الحمد لله» إذا شرب، وفى الثانية: «الحمد لله ربّ العالمين» وفى الثالثة: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم».

وكما أنّ للمعدة طباعًا تتقدّر كما ذكرناه، بموافقة طباع الطعام فللقلب أيضا مزاج وطباع لأرباب التفقّد والرعاية اليقظة، ويعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة، تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض إلى الفضول، وتارة تحدث فى القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة، وتارة يبوسة الهمّ والحزن بسبب الحظوظ العاجلة، فهذه كلها عوارض يتفطّن لها المتيقظ، ويرى تغيّر القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال.

والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب، فللقلب أهمُّ وأولى، وتطرّق الانحراف إلى القلب أسرع منه إلى القالب.

ومن الانحراف ما يسقم به فيموت لموت القالب، واسم الله تعالى دواء نافع مجرّب ينفى الأسواء، ويُذهب الداء، ويجلب الشفاء.

حكى أن الشيخ أبا محمد محمدًا الغزالى لمّا رجع إلى «طوس» وصف له فى بعض القرى عبدٌ صالح فقصده زائرًا فصادفه وهو فى صحراء له يبذر الحنطة فى الأرض، فلما رأى الشيخ محمدًا جاء إليه واقبل عليه، فجاء رجل من أصحابه، وطلب منه البذر؛ لينوب عن الشيخ فى ذلك وقت اشتغاله بالغزالى، فامتنع، ولم يعطه البذر، فسأله الغزالى عن سبب امتناعه، فقال: لأنى أبذر هذه البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئًا، فلا أحبُّ أن أسلمه إلى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر!!

وكان بعض الفقراء عند الأكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر، ولا يعقب الطعام مكروه، ويتغيّر مزاج القلب.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول: «أنا آكل وأنا أصلّى»، يشير إلى حضور القلب فى الطعام؛ وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله، لئلاً يتفرّق همّه وقت الأكل، ويرى للذكر وحضور القلب فى الأكل أثرًا كبيرًا لا يسعه الإهمال.

ومن الذكر عند الأكل: الفكر فيما هيّأ الله تعالى من الأسنان المعينة على الأكل، فمنها: الكاسرة، ومنها: القاطعة، ومنها: الطاحنة، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لا يتغيّر الذوق كما جعل ماء العين مالحاً لِمّا كان شحمًا حتى لا يفسد، وكيف جعل النداوة تنبع من أرجاء اللسان والفم؛ ليعين ذلك على المضغ والسوغ، وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزّئه متعلّقا مددها بالكبد، والكبد بمثابة النار، والمعدة بمثابة القدر، وعلى قدر فساد الكبد تعتل الهاضمة، ويفسد الطعام، ولا ينفصل، ولا يصل إلى كلّ عضو نصيبه، وهكذا تأثير الأعضاء كلّها من الكبد، والطحال، والكليتين، ويطول شرح ذلك.

فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الأعضاء، ليرى العجب من قدرة الله تعالى، من: تعاضد الأعضاء وتعاونها، وتعلّق بعضها بالبعض فى إصلاح الغذاء، واستجذاب القوة منه للأعضاء، وانقسامه إلى: الدم، والثفل، واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، فتبارك الله أحسن الخالقين. فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرّف لطيف الحِكم والقدر فيه من الذكر.

ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو فى أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونًا على الطاعة ويكون من دعائه: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وما زرقتنا مما تحب اجعله عونًا لنا على ما تحب، وما زويت عنا مما تُحبُّ اجعله فراغًا لنا فيما تحب».

الباب الثالث والأربعون

فى آداب الأكل

فمن ذلك أن يبتدئ بالملح، ويختم به، روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلىّ، رضى الله عنه: «ياعلىّ، ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح، فإن الملح شفاه من سبعين داء، منها: الجنون، والجذام، والبرص، ووجع البطن، ووجع الأضراس».

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: «لدغ رسول الله ﷺ فى إبهامه من رجله اليسرى فقال: علىّ بذلك الأبيض الذى يكون فى العجين» فجئنا بملح، فوضعه فى كفّة، ثم لعق منه ثلاث لعقات، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه.

ويستحب الاجتماع على الطعام، وهو سنّة الصوفية فى الربُط وغيرها، روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحّب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى» وروى أنه قيل: يارسول الله، أنّا نأكل ولا نشبع، قال: «لعلكم تفترقون عن طعامكم، اجتمعوا، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم فيه»

ومن عادة الصوفية: الأكل على السُفر، وهو سُنّة رسول الله ﷺ، أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن المقومى، بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزوينى قال: أخبرنا محمد بن المثنى قال: أخبرنا معاذ بن هشام، قال: حدثنا أبى عن يونس بن الفرات، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى «سكرجة»[١] قال: فعلام كانوا يأكلون؟ قال: على السُفر.

ويصغّر اللقمة، ويجود الأكل بالمضغ، وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الآكلين، ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى، ويجلس جلسة التواضع، غير متكئ ولا متعزز، نهى رسول الله ﷺ أن يأكل الرجل متكئًا، وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ شاة فجثا رسول الله ﷺ على ركبته يأكل فقال أعرابى: ما هذه الجلسة يارسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «إن الله خلقنى عبدًا ولم يجعلنى جبارًا عنيدًا»[٢]

ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدَّم أو الشيخ، روى حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعامًا لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله ﷺ ويأكل باليمين.

---

(١) السُكرجة: الصفحة التى يوضع فيها الأكل.

(٢) متفق عليه

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأكل أحدكم بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، ويعطى بشماله» (١)

وإن كان المأكولة تمرًا أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يُرمَى ولا يؤكل على الطبق ولا فى كفّه، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه.

ولا يأكل من ذروة الثريد، روى عبد الله بن عباس، عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه، فإن البركة تتنزل فى وسطه» (٢).

ولا يعيب الطعام، روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال: ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قطّ، إن اشتهاه أكله وإلاّ تركه.

وإذا سقطت اللقمة يأكلها، فقد روى أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان» (٣).

ويلعق أصابعه، فقد روى جابر، عن النبى ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه، لا يدرى فى أىّ طعامه تكون البركة» (٤).

وهكذا أمر عليه السلام بإسلات القصعة، وهو: مسحها من الطعام. قال أنس، رضى الله عنه: أمر رسول الله ﷺ بإسلات القصعة.

ولا ينفخ فى الطعام، فقد روت عائشة رضى الله عنها، عن النبى ﷺ أنه قال: «النفخ فى الطعام يذهب بالبركة» (٥)

وروى عبد الله بن عباس أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ ينفخ فى طعام ولا فى شراب، ولا يتنفس فى الأناء، فليس من الأداب ذلك.

والخل، والبقل على السفرة من السُّنة. قيل: إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل. روت أم سعد، رضى الله تعالى عنها، قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة، رضى الله تعالى عنها، وأنا عندها، فقال: «هل من غداء»؟

---

(١) رواه الترمذى

(٢) رواه ابن ماجه

(٣) متفق عليه

(٤) رواه ابن ماجه

(٥) رواه النسائى

فقالت: عندنا خبز، وتمر، وخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم الإدام الخل، اللهم بارك فى الخلّ، فإنه كان إدام الأنبياء قبلى، ولم يفقر بيت فيه خل» (١)

ولا يصمت على الطعام، فهو من سيرة الأعاجم، ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهى، ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع، فقد ورد عن ابن عمر، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم، وليتعلل، فإن الرجل يخجل جليسه فيقبض يده» وعسى أن يكون له فى الطعام حاجة»(٢)

وإذا وضع الخبز لا ينتظر غيره، فقد روى أبو موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الخبز، فإن الله تعالى سخّر لكم بركات السموات والأرض والحديد والبقرة وابن آدم» (٣).

ومن أحسن الأدب، وأهمه: أن لا يأكل إلا بعد الجوع، ويمسك عن الطعام قبل الشبع، فقد روى عن رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمّى وعاءً شرا من بطنه» (٤).

ومن عادة الصوفية: أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم، وهو سنّة، روى أبو هريرة، رضى الله عنه قال: قال أبو القاسم، ﷺ:

«إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فإنه ولّى حرّة ودخانه» (٥).

وإذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى. روى أبو سعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعامًا قال: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منّى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه»(٦).

ويتخلل، فقد روى عن رسول الله ﷺ: «تخللوا فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه فى الجنة».

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه النسائى

(٣) متفق عليه

(٤) رواه الترمذى وأبو داود

(٥) رواه مسلم

(٦) رواه ابن ماجه

ويغسل يديه، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من بات وفى يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومَّن إلا نفسه».[١]

ومن السنة: غسل الأيدى فى طست واحد، وروى عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ «انزعوا الطسوس وخالفوا المجوس».[٢]

ويستحب مسح العين ببلل اليد، وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فإنها مراوح الشياطين». قيل لأبى هريرة: فى الوضوء وغيره؟ قال: نعم، فى الوضوء وغيره.

وفى غسل اليد يأخذ الأشنان[٣] باليمين، وفى الخلال لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الأسنان، وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به.

ويجتنب التصنع فى أكل الطعام، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردًا، فإن الرياء يدخل على العبد فى كل شيء. وصِف لبعض العلماء بعضُ العباد، فلم يثن عليه!! قيل له: تعَلم به باسًا؟ قال: نعم، رأيته يتصنع فى الأكل، ومن تصنّع فى الأكل لا يؤمن عليه التصنع فى العمل.

وإن كان الطعام حلالاً فليقل: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وتتنزل البركات، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم أطعمنا طيبًا واستعملنا صالحًا.

وإن كان شبهة يقول: الحمد لله على كل حال، اللهم صل على محمد ولا تجعله عونًا على معصيتك.

وليكثر الاستغفار والحزن، ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك، فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك.

ويقرأ بعد الطعام «قل هو الله أحد» و «لإيلاف قريش»

ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم، وقد ورد: «من مشى إلى طعام لم يُدع إليه مشى فاسقًا وأكل حرامًا».

وسمعنا لفظًا آخر: «دخل سارقًا وخرج مغيرًا».

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك

(٣) الأشنان: ما تغسل به الأيدى من الحمض.

إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته.

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار، ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار. ويجتنب المضيف التكلّف، إلاّ أن يكون له نيةّ فيه من كثرة الإنفاق، ولا يفعل ذلك حياءً وتكلّفا.

وإذا أكل عند قوم طعامًا فليقل عند فراغه، إن كان بعد المغرب، «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة»وروى أيضًا: «عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار، يصلّون بالليل ويصومون بالنهار» كان بعض الصحابة يقول ذلك.

ومن الأدب : ألاّ يستحقر ما يقدّم له من طعام، وكان بعض أصحاب رسول ﷺ يقول: ما ندرى أيّهم أعظم وزرًا الذى يحتقر ما يقدّم إليه، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدّمه؟!.

ويكره أكل طعام المباهاة، وما تكلّف للأعراس والتعازى، فما عمل للنوائح لا يؤكل، وما عمل لأهل العزاء لا بأس به، وما يجرى مجراه.

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه فى التصرّف فى شىء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[1] قيل: دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا، فدخل سفيان، ففرح وقال: «ذكرتمونى أخلاق السلف. هكذا كانوا». ومن دُعى إلى طعام فالإجابة من السنّة. وأؤكد ذلك الوليمة، وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرًا وذلك خطأ، وإن عمل ذلك تصنعًا ورياء، فهو أقل من التكبرّ، روى أن الحسن بن على مرّ بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرًا على الأرض، وهو على بغلته، فلمّا مرّ بهم سلّم عليهم، فردّوا عليه السلام، وقالوا: هلمّ الغذاءَ يا ابن رسول الله. فقال: نعم، إن الله لا يحب المتكبرين ثم ثنّى وركه فنزل عن دابته، وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل، ثم سلّم عليهم وركب.

وكان يقال: الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال.

روى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير، وأمر أن يقدّم له طعامًا، فلما أكل صبّ الرشيد على يده فى الطست، فلما فرغ قال: يا أبا معاوية، تدرى من صبّ على يدك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين. قال: يا أمير المؤمنين: إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلّلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم.

---

(١) من آية ٦١ من سورة النور.

الباب الرابع والأربعون

فى ذكر أدبهم فى اللباس وثيابهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس، وضرورتها؛ لدفع الحرّ والبرد، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع، وكما أن النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات فهكذا فى اللباس تتفنن فيه، ولها فيه أهويةٌ متنوعة ومآرب مختلفة؛ فالصوفى يردّ النفس فى اللباس إلى متابعة صريح العلم.

قيل لبعض الصوفية: ثوبك ممزّق!! قال: ولكنه من وجه حلال، وقيل له: وهو وسخ!! قال: ولكنه طاهر. فنظر الصادق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال؛ لأنه ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»(١) أى: لا فريضة ولا نافلة.

ثم بعد ذلك: نظره فيه أن يكون طاهرًا؛ لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة.

وما عدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحرّ والبرد، لأن ذلك مصلحة النفس.

وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فكلُّه فضولٌ وزيادةٌ ونظرٌ إلى الخلق، والصادق لا ينبغى أن يلبس الثوب إلاّ لله، وهو ستر العورة، أو لنفسه لدفع الحرّ والبرد.

وحُكى أن سفيان الثورى، رضى الله عنه، خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبًا، فقيل له ولم يعلم ذلك - فهمّ أن يخلعه ويغيّره.. ثم تركه وقال: حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله، والآن فما أغيّره إلا لنظر الخلق، فلا أنقض النيّة الأولى بهذه.

والصوفية خُصّوا بطهارة الأخلاق، وما رزقوا طهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذى هيّأه الله تعالى لنفوسهم، وفى طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسبٌ واقع لوجود تناسب هيئة النفس وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ (٢) فالتناسب هو: التسوية، فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلاً لطعامهم، وطعامهم مشاكلاً لكلامهم، وكلامهم مشاكلاً لمنامهم؛ لأن التناسب الواقع فى النفس مقيّد بالعلم، والتشابه والتماثل فى الأحوال يحكم به العلم،

---

(١) متفق عليه.

(٢) آية رقم ٢٩ من سورة الحجر.

ومتصوفة الزمان ملتزمون بشيء من التناسب مع مزج الهوى وما عندهم من التطلّع إلى التناسب رَشْح[١] حال سلفهم في وجود التناسب.

قال أبو سليمان الدارانى: «يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم، وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم» أنكر ذلك لعدم التناسب، فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه، وإذا اختلف الثوب والمأكول دلّ على وجود انحراف؛ لوجود هوى كامن فى أحد الطرفين: إمّا فى طرف الثوب لموضع نظر لخلق، وإمّا فى طرف المأكول لفرط الشَّره، وكلا الوصفين مرض يحتاج لمداواة ليعودَ إلى حدّ الاعتدال.

لبس أبو سليمان الدارانى ثوبًا غسيلاً، فقال له أحمد: لو لبست ثوبًا أجود من هذا؟! فقال: ليت قلبى فى القلوب مثل قميص فى الثياب.

فكان الفقراء يلبسون المرقّع، وربما كانوا يأخذون الخِرق من المزابل ويرقّعون بها ثوبهم.

وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح، وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه، فكما كانت رقاعهم من المزابل كانت لقمهم من الأبواب.

وكان أبو عبد الله الرفاعى مثابرًا على الفقر والتوكّل ثلاثين سنة، وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له فى ذلك، فيقول: أنتم تأكلون بحق التوكّل، وأنا آكل بحق المسكنة، ثم يخرج بين العشاءين يطلب الكُسر من الأبواب، وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم، ولا يدخل تحت مِنّة.

حكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم: يا قوم، اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزىّ؛ فإنكم تُعرفون؛ وتُكرمون له، فسكتوا كلهم، فقال له غلام منهم: الحمد لله الذى جعلنا ممن يُعرف به ويُكرم له، والله ليظهرنَّ هذا الزىّ حتى يكون الدين كلّه لله. فقال له بشر: أحسنت يا غلام، مِثلُك من يلبس المرقّعة، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يُطوى له ثوب، ولا يملك غير ثوبة الذى عليه.

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصً اشتراه بثلاثة دراهم، ثم قطع كمّه من رءوس أصابعه، وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب: إن أردت أن تلقى صاحبك فرقّع قميصك واخصف نعلك، وقصّر أملك، وكل دون الشبع.

---

(١) رشح: أى نظر.

وحكى عن الجريرى قال: كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا فى ثوب واحد فى الشتاء والصيف، فسئل عن ذلك فقال: قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب، فرأيت ليلةً فيما يرى النائم كأنّى دخلت الجنّة فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة، فرأيت أن أجلس معهم، فإذا جماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقامونى، وقالوا لى: هؤلاء أصحاب ثوب واحد، وأنت لك قميصان، فلا تجلس معهم. فانتبهت ونذرت أن لا ألبس إلا ثوبًا واحدًا إلى أن ألقى الله تعالى.

وقيل: مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذى كان عليه. وكان «عارية» فردوه إلى صاحبه.

وحكى لنا عن الشيخ حمّاد، شيخ شيخنا، أنه بقى زمانًا لا يلبس الثوب إلا مستأجرًا، حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئًا.

وقال أبو حفص الحداد: إذا رأيت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترجو خيره.

وقيل مات ابن الكرنبى، وكان أستاذ الجنيد، وعليه مرقعته. قيل: كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلاً.

فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزىّ والتخشّن، وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقّع، وزى الفقراء، ويكون نيُّتهم فى ذلك ستّر الحال، أو خوفَ عدم النهوض بواجب حق المرقعة.

وقيل: كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل، لعله كان ينام عليه بلا وطاء، – وقد كان قوم من أصحاب الصفّة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلاً – ويكون لبس أبى حفص الناعم بعلم ونية، يلقى الله تعالى بصحتّها.

وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك فلا يعترض عليهم، غير أن لبس الخشن والمرقّع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلّل من الدنيا وزهرتها وبهجتها. وقد ورد: «من ترك ثوب جمال – وهو قادر على لبسه – ألبسه الله تعالى من حلل الجنة».

وأمّا لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله، بصير بصفات نفسه، متفقّد، خفى شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك، فلحسن النية فى ذلك وجوه متعددة يطول شرحها.

ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه، لا لخشونته، ولا لنعومته، بل يلبس ما يدخله الحقُّ عليه، فيكون بحكم الوقت، وهذا حسن.

وأحسن من ذلك: أن يتفقّد نفسه فيه، فإن رأى للنفس شَرَّهًا وشهوة خفيّة أو جلية في الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه، إلاّ أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار، فعند ذلك لا يسعه إلا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله إليه.

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى، رحمه الله، لا يتقيد بهيئة من الملبوس، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلّف واختيار، وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير، ويلبس العمامة بدانق.

وقد كان الشيخ عبد القادر - رحمه الله - يلبس هيئة مخصوصة ، ويتطيلس[1].

وكان الشيخ على بن الهيتى يلبس لبس فقراء السواد.

وكان أبو بكر الفراء - بزنجان - يلبس فروا خشنا كآحاد العوام، ولكل فى لُبسه وهيئته نيةٌ صالحة، وشرح تفاوت الأقوام فى ذلك يطول.

وكان الشيخ أبو السعود - رحمه الله - حاله مع الله ترك الاختيار، وقد يساق إليه الثوب الناعم فيلبسه وكان يقال له: ربّما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكارُ عليك فى لبسك هذا الثوب!!.

فيقول: لا نلقى إلا أحد رجلين: رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع، فنقول له: هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرّمه؟! فيقول: لا، ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة، فنقول له: هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارًا؟! أو ترى عندنا فيه شهوة؟! فيقول: لا.

وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن، ولكن يحبّ أن يختار الله له هيئة مخصوصة فيكثر اللجوء إلى الله والافتقار إليه ويسأله أن يُريه أحبّ الزىّ إلى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فى زى بعينه، فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيًّا مخصوصًا فيلتزم بذلك الزىّ، فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتمّ وأكمل ممن يكون لبسه لله.

ومن الناس من يتوفر حظه من العلم وينبسط بما بسطه الله، فيلبس الثوب عن علم وأيقان، ولا يبالى بما لبسه، ناعمًا لبس أو خشنًا، وربما لبس ناعمًا ولنفسه فيه اختيار

(١) تطلس : لبس الطيلسان، والطيلسان: كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء.

وحظّ، وذلك الحظّ فيه يكون مكفرًا له مردودًا عليه موهوبًا له، يوافقه الله تعالى في إرادة نفسه، ويكون هذا الشخص تام التزكية، تام الطهارة، محبوبًا مرادًا يسارع الله تعالى إلى مراده ومحابه، غير أن ها هنا مزلة قدم لكثير من المدّعين!!.

حكى عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخلقان فى ابتداء أمره، ثم صار فى آخر عمره يلبس الناعم، فقيل لأبى يزيد فى ذلك؛ فقال: مسكين يحيى لم يصبر على الدُّون فكيف يصبر على التُّحف!!.

ومن الناس من يسبق إليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودًا فيه.

وكلّ أحوال الصادقين، على اختلاف تنوعّها، مستحسنة ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾[1].

ولبس الخشن من الثياب هو الأحبّ، والأولى، والأسلم للعبد، والأبعد من الآفات.

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه، فرأيت قميصه وسخًا، فقلت لامرأته فاطمة: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين، فقالت: نفعل إن شاء الله، قال: ثم عدته، فإذا القميص على حاله، فقلت: يا فاطمة، ألم آمركم أن تغسلوه؟ قالت: والله ماله قميص غير هذا.

وقال سالم: كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسًا من قبل أن يسلم إليه الخلافة. فلّما سلم إليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى، ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها.

وقيل: لّما مات أبو الدرداء وُجد فى ثوبه أربعون رقعة. وكان عطاؤه أربعة آلاف.

وقال زيد بن وهب: لبس على بن أبى طالب قميصًا رازيًا» وكان إذا مدّ كمه بلغ أطراف أصابعه، فعابه الخوارج بذلك، فقال: أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى بى المسلم.

وقيل: كان عمر، رضى الله تعالى عنه، إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرّة، وقال: دعوا هذه البراقات للنساء.

---

(١) آية رقم ٨٤ من سورة الإسراء.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نوروا قلوبكم بلباس الصوف فإنه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم»[١].

وروى أن رسول الله ﷺ احتذى نعلين، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما، فسجد لله تعالى، فقيل له فى ذلك، فقال: «خشيت أن يعرض عنى ربّى فتواضعت له، لا جرم: لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما» فأخرجهما، فدفعهما إلى أول مسكين لقيه، ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان.

وروى أن رسول الله ﷺ لبس الصوف، واحتذى المخصوف، وأكل مع العبيد.

وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفىّ شهواتها وكامن هواها عسر جدًا فالأليق، والأجدر، والأولى الأخذُ بالأحوط، وتركُ ما يريب إلى ما لا يريب.

ولا يجوز للعبد الدخول فى السعة إلا بعد إتقان علم السعة وكمال تزكية النفس، وذاك إذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع، وتخلصت النية، وتَسدَّد التصرف بعلم صريح واضح.

وللعزيمة أقوام يركبونها، ويراعونها، لا يرون النزول إلى الرخص خوفًا من فوت فضيلة الزهد فى الدنيا، واللباس الناعم من الدنيا، وقد قيل: «من رقّ ثوبه رقّ دينه».

وقد يرخص فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد، ويقف على رخصة الشرع.

وروى علقمة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال النبى عليه الصلاة والسلام: «إن الله جميل يحب الجمال»[٢].

فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه، لا بهوى نفسه فى ذلك، غير مفتخر به ومختال.

فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا، والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد؛ روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أزرة المؤمن إلى نصف الساق لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار، من جرّ إزاره بطرًا لم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذى.

ينظر الله إليه يوم القيامة، فبينما رجل ممن كان قبلكم يتبختر فى ردائه إذ أعجبه رداؤه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[١].

والأحوال تختلف، ومن صحّ حاله بصحة علمه صحت نيته فى مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه، وفى كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى، وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلّها بحسن توفيق الله تعالى.

---

(١) متفق عليه.

الباب الخامس والأربعون

فى ذكر فضل قيام الليل

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾[١] نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيبٍ من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها، وأصبح المسلمون بين محدث وجُنب، وأصابهم الظمأ، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبيّ الله، وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلّون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم؟!!

فأنزل الله تعالى مطرًا من السماء سال منه الوادى، فشرب المسلمون منه، واغتسلوا، وتوضئوا وسقوا الدواب، وملئوا الأسقية. ولبد الأرض حتى ثُبت به الأقدام.

قال الله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ. إِذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةَ أَنِّي مَعَكُمْ﴾[٢] أمدّهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين.ولكل آية من القرآن ظهر وبطن، وحدّ ومُطّلعَ، والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تعم المؤمنين.

والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للمريدين، وهو أَمَنَةٌ لقلوبهم عن منازعات النفس؛ لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب؛ إذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب وباستراحتها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحةُ القلب، لما بين النفس والقلب من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين؛ فقد قيل: ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نومًا حتى لا يضطرب الجسد، فيكون ثمانى ساعات: للنوم ساعتان من ذلك يجعلهما المريد بالنهار، وست ساعات بالليل، ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف. وقد يكون، بحسن الإرادة وصدق الطب، ينقص النوم من قدر الثلث، ولا يضر ذلك إذا صار بالتدريج عادة.

وقد يحمل ثقل السهر وقلّة النوم وجودُ الروح والأُنس؛ فإن النوم طبعه بارد رطب، ينفع الجسد والدماغ، ويسكن من الحرارة واليبس الحادث فى المزاج، فإن نقص عن

---

(١) آية رقم ١١ من سورة الأنفال.

(٢) آية رقم ١٢ من سورة الأنفال.

الثلث يضر الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم، فإذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه؛ لأن طبيعة الروح والأنس باردة رطبة كطبيعة النوم.

وقد تقصر مدّة طول الليل بوجود الروح، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة، كما يقال: سنةُ الوصل سنةٌ، وسنة الهجر سنة، فيقصر الليل لأهل الروح.

نُقل عن عليّ بن بكار أنه قال: منذ أربعين سنة ما أحزننى إلا طلوع الفجر.

وقيل لبعضهم: كيف أنت والليل؟ قال: ما راعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف، وما تأملته.

وقال أبو سليمان الدارانى: أهل الليل فى ليلهم أشدّ لذّة من أهل اللهو فى لهوهم.

قال بعضهم: ليس فى الدنيا شىء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل «التملّق» فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل.

وقال بعض العارفين: إن الله تعالى يطّلع على قلوب المستيقظين فى الأسحار فيملؤها نورًا، فترد الفوائدُ على قلوبهم، فتستنير، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين.

وقد ورد أن الله تعالى أوحى — فى بعض ما أوحى، إلى بعض أنبيائه: «إن لى عبادًا يحبونى وأحبهم، ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم، ويذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم فإن حذوتَ طريقَهم أحَببتُك، وإن عَدلت عن ذلك مقتُّك، قال: يا رب، وما علامُتهم؟ قال: يُراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه، ويَحنُّون إلى غروب الشمس كما تَحنّ الطير إلى أوكارها فإذا جنَّهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لى أقدامهم وافترشُوا إلى وجوههم، وناجونى بكلامى وتملقوا إلىّ بإنعامى، فبين صارخٍ وبارك، وبين متأوّه، وشاك، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشكون من حبى، أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نورى فى قلوبهم فَيُخْبرون عنى كما أخبر عنهم، والثانى: لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم، والثالث: أقبل بوجهى عليهم، أفترى من أقبلتُ بوجهى عليه أيعلم أحدٌ ما أريد أن أعطيه».

فالصادق المريد إذا خلا فى ليله بمناجاة ربّه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهاره فى حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قالبه فى قُبَّة من قباب الحقّ مُسدَّدًا حركاته موفَّرة سكناته.

وقد ورد: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار» ويجوز أن يكون لمعنيين؛ أحدهما: أن المشكاة تستنير بالمصباح فإذا صار سراج اليقين فى القلب تزهر بكثرة زيت العمل بالليل، فيزداد المصباح إشراقًا، وتكتسب مشكاة القالب نورًا وضياء.

كان يقول سهل بن عبد الله: «اليقين نار والإقرار فتيلة، والعمل زيت، وقد قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[١] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[٢]. فنور اليقين من نور الله، فى زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل، فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدرىّ، وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب، وأيضًا، يلين القلب بنار النور، ويسرى لينه إلى القلب فيلين القالب للين القلب فيتشابهون لوجود اللين الذى عمهما. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[٣] وصف الجلود باللين، كما وصف القلوب باللين، فإذا امتلأ القلب بالنور ولان القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور يندرج الزمان والمكان فى نور القلب، ويندرج فيه الكلم والآيات والسور، وتشرق الأرض القالب بنور ربّها إذ يصير القلب سماء والقالب أرضًا، ولذّة تلاوة كلام الله فى محل المناجاة تستركون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود فى مزاحمة صفو الشهود، فلا يبقى حينئذ للنفس حديث، ولا يسمع للهاجس حسيس، وفى مثل هذه الحالة يتصوَّر تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس، وذلك هو الفضل العظيم.

والوجه الثانى، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار» معناه: أن وجوه أموره التى يتوجّه إليها تحسن وتتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه، ويكون معانًا فى مصدره وموررده، فيحسن وجه مقاصده وأفعاله، وينتظم فى سلك السداد مسددًا أقواله؛ لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب.

---

(١) آية رقم ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) آية رقم ٣٥ من سورة النور.

(٣) آية رقم ٢٣ من سورة الزمر.

الباب السادس والأربعون

ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظرًا مجيء الليل وصلاة المغرب، مقيمًا في ذلك على أنواع الأذكار، ومن أولاها: التسبيح والاستغفار، قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ﴾[١] و ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[٢].

ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة، أو بالتلاوة، أو بالذكر، وأفضل ذلك الصلاة، فإنه إذا واصل بين العشاءين ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم، فإن ذلك كله له أثر وَخَدش فى القلوب، حتى النظر إليهم يعقب كدرًا فى القلب يدركه من يرزق صفاء القلب، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى فى العين للبصر.

وبالمواصلة بين العشائين يرجى ذهاب ذلك الأثر.

ومن ذلك: ترك الحديث بعد العشاء الآخرة؛ فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة بين العشاءين ويقيد عن قيام الليل؛ سيما إذا كان عريًا عن يقظة القلب.

ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضًا معين على قيام الليل.

حكى لى بعض الفقراء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل فى الليل ثلاث مرات: مرة بعد العشاء الآخرة ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم، ومرة قبل الصبح.

فللوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر من تيسير قيام الليل.

ومن ذلك: التعوّد على الذكر، أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم؛ فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه، إلا أن يكون واثقًا من نفس وعادته، فيتعمل للنوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين

---

(١) آية رقم ٥٥ من سورة غافر.

(٢) آية رقم ٥٥ من سورة غافر.

والطالبين، وبهذا وُصف المحبون، قيل: نومهم نوم الغرقى، وأكلهم أكل المرضى، وكلامهم ضرورة.

فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل، وإنما النفس إذا طمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه، وإذا عجزت بصدق العزيمة لا تسترسل فى الاستقرار.

وهذا الانزعاج فى النفس بصدق العزيمة هو التجافى الذى قال الله تعالى فيه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[1]، لأن الهمّ بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوًّا وتجافيا، وقد قيل: للنَّفس نظران: نظر إلى تحت، لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية، فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية؛ فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها، فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستجلس وتستلذ النوم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾[2] وللآدمىّ بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له، والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة فى الإنسان، فأرباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم فى قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾[3] حتى قال: ﴿قُلْ هَل يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُون﴾[4] حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم؛ فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ورقّوها بالنظر إلى اللذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها، فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهالع.

ومن ذلك: أن يغيّر العادة؛ فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء، وقد كان بعضهم يقول: لإن أرى فى بيتى شيطانًا أحبّ إلىّ من أن أرى وسادة فإنها تدعونى إلى النوم.

ولتغيير العادة فى الوسادة والغطاء والوطاء تأثير فى ذلك، ومن ترك شيئًا من ذلك والله عالم بنيته وعزيمته يثيبه على ذلك بتيسير مارام.

---

(١) آية رقم ١٦ من سورة السجدة.
(٢) آية رقم ٦٧ من سورة غافر.
(٣) من آية رقم ٩ من سورة الزمر.
(٤) من آية رقم ٩ من سورة الزمر.

ومن ذلك: خفة المعدة من الطعام، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل؛ لأن الذكر يذهب داؤه؛ فإن وجد للطعام ثقلاً على المعدة ينبغى أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر، فلا ينام الليل؛ حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار، قال بعضهم: لئن أنقص من عشائى لقمة أحب إلىّ من أن أقوم ليلة.

والأحوط أن يوتر قبل النوم؛ فإنه لا يدرى ماذا يحدث، وبعدّ طهوره وسواكه عنده، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة، قال رسول الله ﷺ: «إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة، وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ، فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق».

والمريد المتأهل إذا نام فى الفراش مع الزوجة ينتقض وضوءه باللمس، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة ما لم يسترسل فى التذاذ النفس باللمس، ولا يعدم يقظة القلب؛ فأما إذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتنحجب الروح أيضًا لمكان صلافته.

ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا: طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا، والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد، وقد ورد «من آوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غُفر له ما اجترم». وإذا طهرت النفس عن الرذائل: انجلت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ فى النوم، وانتقشت فيه عجائب الغيب وغرائب الأنباء، ففى الصديقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة، فيأمره الله تعالى وينهاه، ويفهمه فى المنام، يعرفه، ويكون موضع ما يفتح له فى نومه من الأمر والنهى كالأمر والنهى الظاهر: يعصى الله تعالى إن أخلّ بهما، بل تكون هذه الأوامر آكد وأعظم وقعًا؛ لأن المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى؛ فإذا أخلّ بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة، ويكون فى ذلك الرجوع عن الله، واستيجاب مقام المقت.

فإن ابتلى العبد فى بعض الأحايين بكسل وفتور عزيمة من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث: يمسح أعضاءه بالماء مسحًا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين، وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجهّد أن يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحًا حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين؛ ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقلّ قيامه.

روى أن رسول الله ﷺ كان يستاك فى كل ليلة مرارًا عند كل نوم وعند الانتباه منه.

ويستقيل القبلة فى نومه، وهو على نوعين، فإما على جنبه الأيمن كالملحود، وإما على ظهره مستقبلاً القبلة كالميت المسجى، ويقول: باسمك اللهم وضعت جنبى، وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نَفسى فأغفر لها وأرحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رهبة منك ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت، اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك، والحمد لله الذى حكم فقهر، الحمد لله الذى بطن فخبر، الحمد لله الذى ملك فقدر، الحمد لله الذى هو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، اللهم إنى أعوذ بك من غضبك، وسوء عقابك، وشرّ عبادك، وشرّ الشيطان وشركه.

ويقرأ خمس آيات من البقرة: الأربع من الأول، والآية الخامسة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وآية الكرسي و ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ و ﴿إن رَبكُمُ اللهُ﴾ و ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ﴾ وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، و ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ﴾ والمعوذتين، وينفث بهن في يديه، ويمسح بهما وجهه وجسده، وإن أضاف إلى ما قرأ عشرًا من أول الكهف وعشرًا من آخرها فحسن، ويقول: اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك، واستعملنى بأحب الأعمال إليك التى تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعدًا، أسألكِ فتعطينى، واستغفرك فتغفر لى، وأدعوك فتستجيب لى، اللهم لا تؤمنى مكرك، ولا تولى غيرك ولا ترفع عنى سترك، ولا تجعلنى من الغافلين.

ورد ولا ترفع عنى سترك، ولا تجعلنى من الغافلين.

ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة؛ فإن صلّى ودعا أمّنوا على دعائه. وإن لم يقم تعبدك الأملاك فى الهواء وكتب له ثواب عبادتهم.

ويسبح، ويحمد، ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين، ويتمم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الباب السابع والأربعون

فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذّن من أذان المغرب يصلّى ركعتين بين الأذان والإقامة، وكان العلماء يصلّون هاتين الركعتين فى البيت يعجلون بهما قبل الخروج إلى الجماعة، كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنًا منهم أنها سنة مؤكدة.

وإذا صلّى المغرب يصلى ركعتى السنة بعد المغرب يعجّل بهما، فإنهما يرفعان مع الفريضة، يقرأ فيهما بـ ﴿قُلْ يَأَيُّها الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ثم يسلّم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين، فيقول: مرحبًا بملائكة الليل، مرحبًا بالملكين الكريمين الكاتبين، اكتبا فى صحيفتى: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن الجنة حق، والنار حق، والحوض حق، والشفاعة حق، والصراط والميزان حق، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى إليها اللهم احطط بها وزرى، واغفر بها ذنبى وثقّل بها ميزانى، وأوجب لى بها أمانى، وتجاوز عنى يا أرحم الراحمين.

فإن واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته يكون جامعًا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين.

وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه وأقرب إلى الإخلاص وأجمع للهمّ فليفعل.

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[1] فقال هى الصلاة بين العشاءين.

وقال عليه الصلاة والسلام، عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغاة النهار وتهذب آخره»[2]. ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق. ثم ركعتين بعد ركعتين: يقرأ فى الأول عشر آيات من أول سورة البقرة، والآيتين: ﴿وإلَـهُكُمْ إلَه وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآيتين، وخمس عشرة مرة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَـدٌ﴾، وفى الثانية: آية الكرسى، و ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بما أنْزِل إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ وخمس عشرة مرة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾.

---

(١) آية رقم ١٦ من سورة السجدة.

(٢) رواه النسائى والدارقطنى.

ويقرأ فى الركعتين الآخيرتين: من سورة الزمر والواقعة، ويصلى بعد ذلك ما شاء.

فإن أراد أن يقرأ شيئًا من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها، وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص والفاتحة.

ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما فحسن، وفى هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررًا آية فيها الدعاء والتلاوة، مثل أن يقرأ مكررًا ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإلَيْكَ أَنَبْنَا وإليْكَ الْمَصِير﴾[1]، أو آية أخرى فى معناها، فيكون جامعًا بين التلاوة، والصلاة، والدعاء.

ففى ذلك جمع للهمّ، وظفر بالفضل.

ثم يصلى قبل العشاء أربعا، وبعدها ركعتين، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلى أربعًا أخرى.

وقد كان رسول الله ﷺ يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعًا، ويقرأ فى هذه الأربع سورة: لقمان، ويس، وحم، والدخان، وتبارك «الملك».

وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى، وآمن الرسول، وأول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر.

ويصلى بعد الأربع إحدى عشرة ركعة، يقرأ فيها ثلاثمائة آية من القرآن من: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ إلى آخر القرآن ثلاثمائة آية، هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكىّ رحمه الله.

وإن أراد قرأ هذا القدر فى أقل من هذا العدد من الركعات. وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم.

وإن لم يحفظ القرآن يقرأ فى كل ركعة خمس مرات ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ﴾ إلى عشر مرات، إلى أكثر.

ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد، إلاّ أن يكون واثقًا من نفسه فى عادتها بالانتباه للتهجد، فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل.

وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلى ركعة يشفع بها وتره، ثم ينتقل ما شاء ويوتر فى آخر ذلك.

---

(١) آية رقم ٤ من سورة المتحنة.

وإذا كان الوتر من أول الليل يصلي بعد الوتـر ركعتـين جالسًا يقـرأ فيـهما بـ : ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، ﴿أَلْهَاكُمُ..﴾.

وقيل: فِعل الركعتين قاعدًا بمنزلة الركعة قائمًا يشفع له الوتر. حتى إذا أراد يأتى بـه ويوتر فى آخر تهجده، ونية هاتين الركعتين نيَّة النفل لا غير ذلك.

وكثيرًا ما رأيتِ الناس يتفاوضون، كيفية نيتهما، وإن قرأ فى كـل ليلـة «المسبحات» وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير سبعًا، فقد كـان العلمـاء يقـرءون هـذه السـور ويـترقبون بركتها.

فـإذا استيقظ مـن النـوم فمـن أحسـن الأدب عنـد الانتبـاه أن يذهـب بباطنـه إلى الله، ويصرف فكره إلى أمـر الله قبـل أن يجـول الفكـر فـى شـىء سـوى الله، ويشـتغل اللسـان بالذكر، فالصادق كالطفل الكلف بالشـىء إذا نـام ينـام علـى محبتـه الشـىء، وإذا انتبـه يطلب ذلك الشيء الذى كان كلفًا به، وعلـى حسـب هـذا الكلـف والشـغل يكـون المـوت والقيام إلى الحشر، فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم: ما همّه؟ فإنه هكـذا يكـون عنـد القيام من القبر: إن كان همه الله فهو هو، وإلا فهمّه غير الله.

والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة، فـلا يـدع البـاطن يتغـيّر بغـير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه ويكون فارًا إلى ربّـه بباطنـه خوفًا من ذكر الأغيار. ومـهما وفـا البـاطن بـهذا المعيـار فقـد انتفـى طريـق الأنـوار وطـرق النفحات الإلهية، فجدير أن تنصبَّ إليه أقسام الليل انصبابًا، ويصير جنـاب القـرب لـه موئلا ومآبًا. ويقول باللسان: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

ويقرأ العشر الآواخر من سورة آل عمران، ثم يقصد الماء الطهور.

قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِرَكُمْ بِهِ﴾[١] وقال عز وجل: ﴿أَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٢] قال عبد الله بن عباس: الماء: القرآن، والأوديـة: القلوب، فسالت بقدرها، واحتملت مـا وسـعت. والمـاء مطـهر، والقـرآن مطـهر، والقـرآن بالتطهير أجدر، فالماء يقوم غيره مقامه، والقرآن والعلم لا يقوم غيرهمـا مقامـها، ولا يسـدّ مسدَّهما، فالمـاء الطـهور يطـهر الظـاهر، والعلـم والقرآن يطـهران البـاطن ويذهبـان رجـز الشيطان، فالنوم غفلة، وهو من آثار الطبع، وجدير أن يكون من رجز الشـيطان؛ لمـا فيـه

(١) آية رقم ١١ من سورة الأنفعال.

(٢) آية رقم ١٧ من سورة الرعد.

من الغفلة عن الله تعالى؛ وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض فكانت القبضة جلدة الأرض، والجلدة ظاهرة بشرة وباطنها أدمه، قال الله تعالى ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾(١) فالبشرة والبشر عبارة عن: ظاهره وصورته، والأدمة عبارة عن: باطنه وآدميته، والآدمية مجمع الأخلاق الحميدة وكان التراب موطئ أقدام إبليس، ومن ذلك اكتسب ظلمة، وصارت تلك الظلمة معجونة فى طينة الآدمى، ومنها الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة، ومنها الغفلة، والسهو.

فإذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهريْن جميعا، ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل.

فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بإزاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى الذى له تأثير.

فى تكدير القلب، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك.

ولهذا رأى بعض العلماء الوضوءَ مما مست النار.

وحكم أبو حنيفة — رحمه الله — بالوضوء من القهقهة فى الصلاة؛ حيث رآها حكما طبيعيًا جالبًا للإثم. والإثم رجز من الشيطان، والماء يذهب رجز الشيطان، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب، وعند الغضب لظهور النفس وتصرفات الشيطان فى هذه المواطن.

ولو أن المتحفظ المراعى المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس فى مباح من كلام، أو مساكنة إلى مخالطة الناس، أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعنى قولاً وفعلاً عقب ذلك بتجديد الوضوء، لثبت القلب على طهارته ونزاهته، ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(٢) فتفكّر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره.

ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم لكان أزيد فى تنوير قلبه، ولكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة باذلاً مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله، ويجدد غسل الباطن بصدق الإنابة، وقد قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا

---

(١) آية رقم ٧١ من سورة ص.

(٢) آية رقم ٤٣ من سورة العنكبوت .

الصَّلاَةَ﴾[١] قدّم الإنابة للدخول فى الصلاة، ولكن من رحمة الله وحكم الحنيفية السمحاء أن رفع الحرج وعوّض بالوضوء عن الغسل.

وجوّز أداء مفترضات بوضوء واحد دفعًا للحرج عن عامة الأمة.

وللخواص، وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالأَوْلى وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى؛ فإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول: الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرةً وأصيلاً. ويقول: سبحان الله — والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله عشر مرات. ويقول: الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومَن عليهن. أنت الحق ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق، ومحمد عليه الصلاة والسلام حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمّت، وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت.. اللهم آت نفسى تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم أهدنى لأحسن الأخلاق، لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت. أسألك مسألة البائس المسكين، وأدعوك دعاء الفقير الذليل، فلا تجعلنى بدعائك رب شقيًّا وكن بى رءوفًا رحيمًا يا خير المسئولين ويا أكرم المعطين.

ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة: يقرأ فى الأول بعد الفاتحة ﴿ولَوْ أَنهُمْ إذ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ﴾[٢] الآية، وفى الثانية ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٣]. ويستغفر بعد الركعتين مرات، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد، يقرأ فيهما بآية الكرسى وآمن الرسول. وإن أراد غير ذلك، ثم يصلّى ركعتين طويلتين: هكذا روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد هكذا.. ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين، وهكذا يتدرج إلى أن يصلى اثنتى عشرة ركعة، أو ثمان ركعات، أو يزيد على ذلك، فإن فى ذلك فضلاً كثيرا. والله أعلم.

---

(١) آية رقم ٣١ من سورة الروم.

(٢) آية رقم ٦٤ من سورة النساء .

(٣) آية ١١٠ من سورة النساء.

الباب الثامن والأربعون

فى تقسيم قيام الليل

قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[١] وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يعْمَلُونَ﴾[٢] كان عملهم قيام الليل .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[٣] : استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ، ومصابرة العدو .

وفى الخبر (عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ، ومنهاةٌ عن الإثم ، وملغاة للوزر ، ومذهب كيد الشيطان ، ومطردة للداء عن الجسد) .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلّون الغداة بوضوء العشاء: منهم، سعيد بن المسيب، وفضيل بن عياض، ووهيب بن الفرات، وأبو سليمان الدارانى، وعلى بن بكار، وحبيب العجمى ، وكهمس بن المنهال ، وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر ، وأبو حنيفة رحمه الله تعالى وغيرهم ، عدّهم ، وسماهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكى فى كتابه (قوت القلوب) .

فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه، أو ثلثه. وأقل الاستحباب سدس الليل، فإمّا أن ينام ثلث الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر، أم ينام النصف الأول ويقوم ثلثه أو ينام السدس. روى أن داود عليه السلام قال: يا رب، إنى أحب أن أتعبد لك، فأى وقت أقوم ؟ .

فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، لا تقم أول الليل ولا آخره، فإنه من قام أوله نام آخره، ومن قام آخره نام أوله،ولكن قم وسط اليل حتى تخلو بى وأخلو بك، وارفع إلى حوائجك) .

ويكون القيام بين نوميّن، وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتنقل ، فإذا غلبه النوم ينام ، فإذا انتبه يتوضأ فيكون له قومتان ونومتان ، ويكون ذلك من أفضل ما يفعله .

---

(١) آية رقم ٦٤ من سورة الفرقان .

(٢) آية رقم ١٧ من سورة السجدة .

(٣) آية رقم ٤٥ من سورة البقرة .

ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقِل ما يقول ، وقد ورد (لا تكابدوا الليل) .

وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلي من الليل، فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: (ليصلِّ أحدكم من قليل ما تيسر فإذا غلبه النوم فلينم).

وقال عليه الصلاة والسلام : (لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه) ولا تُبغضَنَّ إلى نفسك عبادة الله .

ولا يليق بالطالب ولا ينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك . على أنه إذا استيقظ من الفجر بساعة مع قيام قليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل ، ثم النوم إلى بعد طلوع الفجر .

فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار ، والتسبيح ، ويغتنم تلك الساعة .

وكلما يصلي بالليل يجلس قليلاً بعد كل ركعتين ، ويسبح ، ويستغفر ، ويصل على رسول الله ﷺ ، فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام .

وقد كان بعض الصالحين يقول : هي أوَّل نومة ، فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنامَ الله عيني .

وحكى لي بعض الفقراء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل ، وأكلة واحدة لليوم والليلة وقد جاء في الخبر (قم من الليل ولو قدر حلب شاة) .

وقيل : يكون ذلك قدر أربع ركعات .. وقدر ركعتين .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعِ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [1] هو : قيام الليل .

ومن حُرم قيام الليل كسلاً وفتوراً في العزيمة ، أو تهاوناً به لقلة الاعتداء بذلك ، أو اعذاراً بحاله ، فليبك عليه ؛ فقد قطع عليه طريق كبير من الخير .

وقد يكون من باب أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ، ويجد من دعة القرب ما يفتر عليه داعية الشوق ويرى أن القيام وقوف في مقام الشوق ، وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدّعين .

---

(١) من آية ٢٦ من سورة آل عمران .

والذى له ذلك ينبغى أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر ، والإنسان متعرض للتصور والتخلف والشبهة ، ولا حالةً أجلُّ من حال رسول الله ﷺ ، وما استغنى عن قيام الليل حتى تورمت قدماه .

وقد يقول بعض من يحتاج فى ذلك : إن رسول الله ﷺ فعل ذلك تشريعًا .

فنقول له : ما بالنا لا نتبع تشريعه ، وهذه دقيقة ، فتعلم أن رؤية الفضيلة فى ترك القيام وادّعاء الإيواء إلى جناب القرب واستواء النوم واليقظة : امتلاء وابتلاء حالى، وهو تقييد بالحال، وتحيكم للحال ، وتحكّم من الحال فى العبد ، والأقوياء لا يتحكم فيهم الحال، ويصرّفون الحال فى صور الأعمال ، فهم متصرفون فى الحال، لا الحال متصرف فيهم، فليعلم ذلك؛ فإنا رأينا من الأصحاب من كان فى ذلك ثم انكشف لنا، بتأييد الله تعالى، أن ذلك وقوف وقصور.

قيل للحسن : يا أبا سعيد ، إنى أبيت معافى وأحب قيام الليل ، وأعدّ طهورى ، فما بالى لاأقوم؟ .

قال : ذنبوك قيدتك . فليحذر العبد فى نهاره ذنوبًا تقيده فى ليله.

قال النورى رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته . فقيل لى: ما كان الذنب؟ قال: رأيت رجلاً بكّاءً ، فقلت فى نفسى: هذا مراء! !

وقال بعضهم : دخلت على (كرز بن وبرة) وهو يبكى ، فقلت:

ما بالك ، أتاك نَعى بعض أهلك ؟ فقال : أشدّ . فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال: أشد، فقلت: وما ذاك؟ قال: بابى مغلق، وسترى مسبل ، ولم أقرأ حزبى البارحة، وما ذاك إلا بذنب أحدثته ! !

وقال بعضهم الاحتلام عقوبة ، وهذا صحيح ؛ لأن المراعى ، بحسن تحفظه وعلمه بحاله، يقدر ويتمكن من سدّ باب الاحتلام ، ولا يتطرق الاحتلام إلا على جاهل بحاله، أو مهمل حكم وقته وأدب حاله.

ومن كمل تحفظه ورعايته ، وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام: وضع الرأس على الوسادة إذا كان ذا عزيمة فى ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية ممن لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نيّة للعون على القيام، وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس.

فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبًا جالبًا للاحتلام فقس على هذا ذنوب الأحوال؛ فإنها تختصّ بأربابها ويعرفها أصحابها.

وقد يترفق بأنواع الرفق من الفراش الوطيء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام.

وغيره على فعله إذا كان عالمًا ، ذا نيّة ، يعرف مداخل الأمور ومخارجها.

وكم من نائم يسبق القائم لوفور علمه وحسن نيته ، وفي الخبر (إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلّت عقدة ، وإن توضأ انحلّت عقدة أخرى، وإن صلّى ركعتين انحلت العقد كلها ، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس).

وفي خبر آخر : (إنّ من نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه) .

والذي يخلّ بقيام الليل : كثرة الاهتمام بأمور الدنيا ، وكثرة أشغال الدنيا ، وإتعاب الجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة الحديث ، واللغو ، واللغط ، وإهمال القيلولة.

والموفّق من يغتنم وقته ، ويعرف داءه ودواءه ، ولا يُهمل .. فَيُهْمَل.

الباب التاسع والأربعون

فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ [١] أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين: أراد به الفجر. وأمر بصلاة الفجر.

واختلفوا فى الطرف الآخر؛ قال قوم: أراد به المغرب. وقال آخرون: صلاة العشاء، وقال قوم: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [٢] صلاة العشاء.

ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [٣].

أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

وروى أن أبا اليسر كعب بن عمر الأنصارى كان يبيع التمر، فأتت امرأة تبتاع تمرًا، فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد، وفى البيت أجود منه، فهل لك فيه رغبة؟ قالت: نعم. فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم. ثم أتى النبى ﷺ وقال:

يا رسول الله، ما تقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركبه، غير أنه لم يجامعها؟ قال عمر بن الخطاب: لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك!!.

ولم يردّ رسول الله ﷺ ، وقال: «انتظر أمر ربى».

وحضرت صلاة العصر، وصلى النبى ﷺ العصر، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية:

فقال النبى ﷺ : «أين أبو اليسر»؟. فقال: ها أنذا يا رسول الله.

قال: شهدت معنا هذه الصلاة؟ قال: نعم، قال: «اذهب فإنها كفارة لما عملت».

فقال عمر: يا رسول الله، هذا له خاصة أو لنا عامة؟ فقال: «بل للناس عامة».

---

(١) آية رقم ١١٤ من سورة هود.

(٢) آية رقم ١١٤ من سورة هود.

(٣) آية رقم ١١٤ من سورة هود.

فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة - كما ذكرنا فى أول الليل - ثم يؤذّن إن لم يكن أجاب المؤذن.. ثم يصلى ركعتى الفجر: يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وفى الثانية ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ . وإن أراد قرأ فى الأولى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا.. ﴾ الآية من سورة البقرة. وفى الأخرى ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ.. ﴾ ثم يستغفر الله، ويسبح الله تعالى بما تيسر له من العدد.

وإن اقتصر على كلمة: أستغفر الله لذنبى، سبحان الله بحمد ربى. أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار، ثم يقول: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، اللهم إنّى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى، وترد بها الفتن عنى، وتصلح بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتبيض بها وجهى، وتُلقّنى بها رشدى، وتعصمنى بها من كل سوء، اللهم أعطنى إيمانًا صادقًا ويقينًا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة، اللهم إنّى أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء، اللهم أنزل بك حاجتى وإن قصر رأيى، وضعف عملى، وافتقرت إلى رحمتك.

وأسألك يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور، كما تجير بين البحور، أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ما قصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدًا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدًا من خلقك، فأنا راغب إليه فيه، وأسألك إياه يارب العالمين.

اللهم اجعلنا هادين مهديين، غير ضالين ولا مضلين، حربًا لأعدائك، وسلّمًا لأوليائك.. نحبُّ بحبك الناس، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك.

اللهم هذا الدعاء منى ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان. إنّا لله وإنا إليه راجعون.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ذى الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد.

سبحان من تعطّف بالعزّ وقال به، سبحان من لبس المجدّ وتكرم به، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلاّ له، سبحان ذى الفضل والنعم، سبحان ذى الجود والكرم، سبحان

الذى أحصى كل شيء بعلمه.. اللهم اجعل لى نورًا فى قلبى.. ونورًا فى قبرى.. ونورًا فى سمعى.. ونورًا فى بصرى.. ونورًا فى شعرى، ونورًا فى بشرى، ونورًا فى لحمى.. ونورًا فى دمى .. ونورًا فى عظامى.. ونور من بين يدى.. ونورًا من خلفى.. ونورًا عن يمينى، ونورًا عن شمالى، ونور من فوقى، ونورًا من تحتى.. اللهم زدنى نورًا.. وأعطنى نورًا، واجعل لى نورًا.

ولهذا الدعاء أثر كبير، وما رأيت أحدًا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة.

وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضًا بحفظه والمحافظة عليه، فنقول عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر، ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة، ويقول عند خروجه من منزله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[1].

ويقول فى الطريق: «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاى هذا إليك، فإنى لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذنى من النار، وأن تغفر لى ذنوبى، إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت».

وروى عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ قال: «من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وَكَل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته»[2].

وإذا دخل المسجد، أو دخل سجادته للصلاة يقول بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك.

ويُقدّم رجله اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج من المسجد أو السجادة.

فسجادة الصوفىّ بمنزلة البيت والمسجد.

ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة، فإذا سلّم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت، وهو حىّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله وحده.. صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن..

---

(١) آية رقم ٨٠ من سورة الإسراء.

(٢) متفق عليه.

لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون..

ويقرأ: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.. التسعة والتسعين اسمًا إلى آخرها..

فإذا فرغ منها يقول: اللهم صلي على محمد عبدك ونبيك ورسولك الأمىّ وعلى آل محمد صلاة تكون لنا رضاءً، ولحقّه أداءً، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته، واجزه عنا ما هو أهله، وأجره أفضل ما جازيت نبيًا عن أمته، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم صلّ على محمد فى الأولين، وصلى على محمد فى الآخرين، وصل على محمد إلى يوم الدين..

اللهم صلّ على روح محمد فى الأرواح.. وصل على جسد محمد فى الأجساد.. واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك، ورأفتك، ورحمتك، وتحننك، ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك..

اللهم أنت السلام.. ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيرى، وأصبحت مرتهنا بعملى، فلا فقير أفقر منى، اللهم لا تشمت به عدوى، ولا تسيء بى صديقى.. ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا تسلط علىّ من لا يرحمنى.

اللهم هذا خلق جديد فافتحه علىّ بطاعتك، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكّها وضَعِّفها، وما عملت فيه من سيئة فاغفر لى إنك غفور رحيم ودود.

رضيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيا..

اللهم أسألك خير هذا اليوم، وخير ما فيه، وأعوذ بك من شرّه وشر ما فيه.. وأعوذ بك من شرِّ طوارق الليل والنهار، ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار، ومن شرّ كل طارق يطرق، إلا طارقًا يطرق منك بخير يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وأعوذ بك أن أزل أو أزل، أو أضل أو أُضل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يجهل علىّ، عزّ جارك، وجل ثناؤك، وتقدمت أسماؤك وعظمت نعماؤك أعوذ بك من شرّ ما يلج فى الأرض.. وما يخرج

منها.. وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، أعوذ بك من حـدّة الحـرص، وشدّة الطمـع، وسورة الغضب، وسِنة الغفلة، وتعاطى الكلفة.

اللهم إنى أعوذ بك من مباهاة المكثرين، والإزراء على المقلِّين، وأن أنصر ظالمًا أو أخـذل مظلومًا، وأن أقول فى العلم بغير علم، أو أعمل فى الدين بغير يقين، أعوذ بك أن أشـرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك.. أنت كما أثنيت على نفسك..

اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت.. خلقتنى وأنا عبدك، وابن عبديك، وأنا على عـهدك ووعدك ما استطعت.. أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتـك علـىّ وأبـوء بذنبـى، فاغفر لى.. إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت..

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحًا، وآخره نجاحًا، وأوسطه فلاحًا، اللهم اجعـل أولـه رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة..

أصبحنا وأصبح الملـك لله، والعظمـة والكبريـاء لله، والجـبروت والسـلطان لله، والليـل والنهار، وما سكن فيهما لله الواحد القهار..

أصبحنا على فطرة الإسلام.. وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمـد ﷺ وملّـة أبينـا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين..

اللهم إنا نسألك بـأن لـك الحمـد، لا إلـه إلا أنـت، الحنّـان المنّـان، بديـع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام.. أنت الأحد الصمد.. الـذى لم يلـد ولم يولـد ولم يكـن لـه كفوًا أحد، يا حىّ يا قيوم، يا حىّ حين لا حىّ فى ديمومة ملكه وبقائه، يا حـىّ محيـى الموتى.. يا حىّ مميت الأحياء، ووارث الأرض والسماء..

اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم.. وبـاسمك الله لا إلـه إلا هـو الحـى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم..

اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأَجلّ.. الأعزّ.. الأكـرم.. الـذى دُعِيـتَ بـه أجبـت.. وإذا سئلت به أعطيت، يا نور النور.. يا مدبّر الأمور.. يا عالم ما فى الصدور، يـا سميـع يا قريب يا مجيب الدعاء، يا لطيفًا لما يشاء، يا رءوف.. يا رحيم، يـا كبـير.. يـا عظيـم يا الله.. يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام..

الم: الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم، وعنت الوجوه للحىّ القيوم، يا إلهـى.. وإلـه كـل شىء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنـت اللـهم إنـى أسـألك بـاسمك يـا ألله.. يـا ألله..

الله الذى لا إله إلا هـو ربّ العـرش العظيم.. فتعـالى الله الملك الحـق لا إلـه إلا هـو رب العرش الكريم..

أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وسعت كل شيء رحمة وعلمًا.

كهيص.. حم حمعسق، الرحمان، يا واحد، يا قهار، يـا عزيـز يـا جبـار، يـا أحـد، يا صمد، يا ودود، يا غفار، وهو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمـن الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. اللهم إنى أعـوذ بـاسمك المكنـون المخزون، المنزل السلام، المطهَّر، الطاهر، القدُّوس، المقدَّس.

يا دهر، يا ديهور، يا ديهار، يا أبد، يا أزل، يـا مـن لم يـزل ولا يـزال، ولا يـزول، هو يا هو لا إله إلا هو يـا مـن لا هـو إلا هـو، يـا مـن لا يعلـم مـا هـو إلا هـو، يـا كـان، يا كينان، يا روح، يا كائن قبل كل كون.. يا كائن بعد كل كون، يـا مكونـا لكـل كـون، أهيا، شرا هيا، أدوناى، أصبؤت، يا مجلّى عظائم الأمور ﴿ فَإِنْ تَوَلَّـوْا فَقُـلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إله إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظيم ﴾ [١] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُـوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٢].

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيـم، وبـارك على محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع.

اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الدجال، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات.

اللهم إنى أعوذ بك من شرّ ما علمت وشر ما لم أعلم، وأعوذ بك من شر سمعى وبصرى ولسانى وقلبى.

اللهم إنى أعوذ بك من القسوة، والغفلة، والذل والمسكنة، وأعوذ بك مـن الفقـر والكفـر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وضيق الأرزاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بـك مـن الصمم، والبكم، والجنون، والجذام والبرص، وسائر الأسقام.

اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك.. ومن تحويل عافيتك، ومـن فجـأة نقمتـك، ومـن جميع سخطك.

---

(١) آية رقم ١٢٩ من سورة التوبة.

(٢) آية رقم ١١ من سورة الشورى.

اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آل محمد، وأسألك عن الخير كلـه، عاجلـه وآجله، ما علمت منه، وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرِّ كله عاجله وآجله ما علمـتُ منـه وما لم لأعلم. وأسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قـرَّب إليـها مـن قـول وعمـل، وأسـألك ممـا سـألك عبـدك ونبيـك محمـد ﷺ، وأسـتعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد ﷺ.

وأسألك ما قضيت لى من أمـر أن تجعـل عاقبتـه رشـدا برحمتـك يـا أرحـم الراحمـين: يا حيّ يا قيوم، برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عـين، وأصلـح لى شـأنى كلـه يـا نـور السـموات والأرض، يـا جمـال السـموات والأرض، يـا عمـاد السـموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام.. يا صريخ المسـتصرخين، يـا غـوث المسـتغيثين، يـا منتـهى رغبـة الراغبين، والمفرّج عن المكروبين، والمروِّح عن المغمومين، ومجيب دعوة المضطرين، وكاشف السوء، وأرحم الراحمين، وإله العالمين. منزول بك كل حاجة يا أرحم الراحمين..

اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، وأقلنى عثراتى، اللهم احفظنى من بيد يدى، ومـن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى.

اللهم إنى ضعيف فقوِّ فى رضاك ضعفى، وخـذ إلى الخـير بنـاصيتى، وأجعـل الإسـلام منتهى رضاى.

اللهم إنى ضعيف فقوِّنى، اللهم إنى ذليل فأعزنى، اللـهم إنـى فقير فـأغنى برحمتـك يا أرحم الراحمين.

اللهم إنك تعلم سرّى وعلانيتى، فاقبل معذرتى. وتعلم حاجتى فـأعطنى سؤلى، وتعلـم ما فى نفسى فاغفر لى ذنبى..

اللهم إنـى أسـألك إيمانًـا يباشـر قلبـى، ويقينـا صادقًـا حتـى أعلـم أنـه لـن يصيبنـى إلا ما كتب الله لى، والرضا بما قسمت لى يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم يا هادى المضلّين، ويا راحم المذنبين، ومقيل عثرة العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذيـن أنعمـت عليـهم مـن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. آمين يا رب العالمين.

اللهم.. عالم الخفيّـات.. رفيـع الدرجـات.. تُلقـى الـروح بـأمرك علـى مـن تشـاء مـن عبادك..

غافر الذنب.. وقابل التوب.. شديد العقاب.. ذا الطوْل لا إله إلا أنت الوكيل وإليك المصير..

يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات.

ويا من لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحّين أذقنى بَرَدَ عفوك وحلاوة رحمتك.

اللهم إنى أسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وعملاً متقبّلاً.. أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم. وأنت علام الغيوب.

اللهم إنى أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ .. وأسألك حبّك، وحبَّ من أحبك، وحب عملٍ يقرب إلى حبك..

اللهم بعملك الغيبَ، وقدرتك على خلقك.. أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى ما كانت الوفاة خيرًا لى..

أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمة العدل فى الرضا والغضب، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاك. وأعوذ بك من ضرّاء مضّرةٍ، وفتنة مضلّة..

اللهم اقسم لى من خشيتك ما تحول به بينى وبين معصيتك، ومن طاعتك ما يدخلنى جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد، وسرور رجاء الموعود، حتى نجد لذة ما نطلب، وخوف ما منه نهرب.

اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحًا، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة، وذلّل جوارحنا لخدمتك، واجعل أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك، نسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وأداء الشكر بحسن العبادة.

اللهم إنى أسألك بركة الحياة، وخير الحياة، وأعوذ بك من شر الحياة، شرّ الوفاة وأسألك خير ما بينهما.

أحينى حياة السعداء: حياة من تحب بقاءه..

وتوفّنى وفاة الشهداء: وفاة من تحب لقاءه..

يا خير الرازقين وأحسن التوابين، وأرحم الحاكمين، وأرحم الراحمين، ورب العالمين.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأرحم ما خلقت، وأغفر ما قدرت، وطيّب ما رزقت، وتمم ما أنعمت، وتقبّل ما استعملت، واحفظ ما استحفظت، ولا تهتك ما سترت، فإنه لا إله إلاّ أنت.

أستغفرك من كل لذّة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير خدمتك، ومن سرور بغير قُربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومن كلّ شغل بغير معاملتك.

اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه..

اللهم إنى أستغفرك من كل عقد عقدتُه ثم لم أوف به..

اللهم إنى أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علىّ فقويت بها على معصيتك..

اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملتُه لك فخالطه ما ليس لك..

اللهم إنى أسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد، وأسألك جوامع الخير، وفواتحه، وخواتمه، وأعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه..

اللهم احفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عما نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، ويا ذاكر الذاكرين، ويا شاكر الشاكرين، بذكرك ذكروا، وبفضلك شكروا.. يا غيَّاث.. يا مغيث .. يا مستغاث.. يا غياث المستغيثين لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع، اكلأنى كلاءة الوليد، ولا تحل عنى، وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين.. أنا عبدك وابن عبدك، ناصيتى بيدك، جار فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك، نافذ فىّ مشيئتك، إنْ تعذّب.. فأهل ذلك أنا، وإن ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل اللهم يا مولاى يا الله يا رب ما أنت له أهل. ولا تفعل -اللهم يا رب يا ألله- ما أنا له أهل، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

يا من لا تضرّه الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لى ما لا يضرك، وأعطنى ما لا ينقصك.

يا ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين، توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير..

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين..

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشدًا..

ربنا أتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنّا عذاب النار.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنا العون على الطاعة، والعصمة من المعصية، وإفراغ الصبر في الخدمة، وإيذاع الشكر في النعمة، وأسألك حسن الخاتمة، وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك، وأسألك حسن المنقلب إليك.

اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد، وأصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم فرِّج عن أمة محمد فرجًا عاجلاً..

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم..

اللهم اغفر لى، ولوالدى، وارحمهما كما ربيانى صغيرًا، واغفر لأعمامنا وعماتنا، وأخوالنا، وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين يا خير الغافرين.

ولمّا كان الدعاء مخّ العبادة أحببنا أن نستوفى من ذلك قسمًا صالحًا نرجو بركته..

وهذه الأدعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكىّ - رحمه الله - فى كتابة «قوت القلوب» وعلى نقله كل الاعتماد، وفيه البركة، فليدع بهذه الدعوات منفردًا، أو فى الجماعة، إمامًا أو مأمومًا، ويختصر منها ما يشاء..

الباب الخمسون

فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذى صلّى فيه الفجر مستقبل القبلة، إلا أن يرى انتقاله إلى رواتبه أسلم لدينه. لئلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء؛ فإن السكوت فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بيّنٌ يجده أهل المعاملة وأرباب القلوب، وقد ندب رسول الله ﷺ إلى ذلك.

ثم يقرأ سورة الفاتحة وأول سورة البقرة إلى «المفلحون»، والآيتين: وإلهكم إله واحد.. وآية الكرسى، والآيتين بعدها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ والآية قبلها.. و ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ و ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ و ﴿إن رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ.. — إلى — الْمُحْسِنِينَ﴾[1] و ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر الآية[2]: و ﴿قُلِ ادْعُو اللَّهَ..﴾ الآيتين[3]، وآخر الكهف من: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ و ﴿ذَا النُّون إذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ — إلى — ﴿خَيْرَ الْوَارِثِينَ﴾[4] ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[5] و ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ..﴾. إلى آخر السورة)[6] و ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ..﴾[7] وأول سورة الحديد إلى.. ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وآخر سورة الحشر من ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا﴾ ثم يسبّح ثلاثا وثلاثين.. وهكذا يحمد مثله، ويكبّر مثله، ويتمها مائة بـ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» .

فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظًا، أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار.. ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس؛ فإن النوم فى هذا الوقت مكروه جدًا..

فإن غلبه النوم فليقم فى مصلاّه قائمًا، مستقبل القبلة.

---

(١) من آية ٥٤ إلى آية ٥٦ من سورة الأعراف.
(٢) آية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٣) الآيتان ١١٠، ١١١ من سورة الإسراء.
(٤) من سورة الأنبياء آية ٨٧، ٨٨، ٨٩.
(٥) آية ١٧ من سورة الروم.
(٦) آية ١٨٠، ١٨١ من سورة الصافات.
(٧) آية رقم ٢٧ من سورة الفتح.

فإن لم يذهب النوم بالقيام يخْط خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك. ولا يستدير القبلة؛ ففي إدامة استقبال القبلة، وترك الكلام والنوم، ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة.

وجدنا ذلك بحمد الله ونُوصي به الطالبين.

وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر.

وهذا الوقت أوّل النهار — والنهار مظنة الآفات — فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه.

وتبتني أوقات النهار جميعًا على هذا البناء.

فإذا قارب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبعات العشر، وهي من تعليم الخضر عليه السلام، علّمها إبراهيم التيمي وذكر أنه تعلمها من رسول الله ﷺ.

وينال بالمداومة عليها جميع المتفرّق في الأذكار والدعوات.

وهي عشرة أشياء، سبعة.. سبعة: الفاتحة، والمعوذتان، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسيّ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والصلاة على النبي — ﷺ — وآله.

ويستغفر لنفسه، ولوالديه، وللمؤمنين وللمؤمنات، ويقول سبعًا: اللهم افعل بي وبهم، عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة، ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل، إنك غفور، حليم، جواد، كريم، رءوف، رحيم.

وروى أن إبراهيم التيميّ لمّا قرأ هذه — بعد أن تعلمها من الخضر — رأى في المنام أنه دخل الجنة، ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة.

وقيل: إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم.

وقيل: لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة.

فإذا فرغ من المسبَّعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة، إلى أن تطلع الشمس قدر رمح.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحبُّ إليّ من أن أعتق أربع رقاب»[*].

(*) رواه الترمذي وأبو داود.

ثم يصلى ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه، فقد نُقل عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى الركعتين.. وبهاتين الركعتين تتبيّن فائدة رعاية هذا الوقت.

وإذا صلّى الركعتين بجمع همّ، وحضور فهم، وحُسن تدبّر لما يقرأ يجد فى باطنه أثرًا، ونورًا، وروحًا، وأنسًا إذا كان صادقًا.

والذى يجده من البركة ثواب مُعجَّل له على عمله هذا.

وأحبُّ أن يقرأ فى هاتين الركعتين فى الأولى: آية الكرسى، وفى الأخرى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾[١] و ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوتِ والأَرْضِ﴾[٢] إلى آخر الآية.

وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته.

ثم يصلى ركعتين أخريين، يقرأ المعوِّذتين فيهما، فى كل ركعة سورة، وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شرِّ يومه وليلته.

ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة، فيقول: أعوذ باسمك وكلمتك التامّة من شرِّ السامة والهامة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرّ عذابك وشرِّ عبادك، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرّ ما يجرى به الليل والنهار، إنَّ ربى الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم.

ويقول بعد الركعتين الأوليين: اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبحت مُرتهنًا بعملى، وأصبح أمرى بيد غيرى فلا فقير أفقر منى..

اللهم لا تشمت بى عدوى، ولا تُسىء بى صديقى، ولا تجعل مصيبتنى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همىّ ولا مبلغ علمى، ولا تسلّط علىّ من لا يرحمنى.

اللهم إنّى أعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى توجب النقّم.

ثم يصلى ركعتين أخريين، بنيَّة الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته.

وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق.

وإلا فالاستخارة التى وردت بها الأخبار هى التى يصلِّها أمام كل أمر يريده.

---

(١) من سورة البقرة الآية: ٢٨٥.. الخ السورة.

(٢) آية ٣٥ من سورة النور.

ويقرأ في هاتين الركعتين ﴿قُلْ يأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحد﴾، ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب، ويقول فيه: كل قول وعمل أريده في هذا اليوم اجعل فيه الخيرة.

ثم يصلي ركعتين أخريين، يقرأ في الأول سورة الواقعة، وفي الأخرى سورة الأعلى، ويقول بعدها: اللهم صلى على محمد، وعلى آل محمد، واجعل حبك أحب الأشياء إليّ، وخشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عنّي حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك، واجعل طاعتك في كل شيء مني يا أرحم الراحمين.

ثم يصلي بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئًا من حزبه من القرآن.

ثم بعد ذلك، إن كان متفرغًا ليس له شغل في الدنيا ينتقل في أنواع العمل، من: الصلاة، والتلاوة، والذكر.. إلى وقت الضحى.

وإن كان ممن له في الدنيا شغل، إمّا لنفسه أو لعياله، فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل.

وهكذا ينبغي أن يفعل أبدًا، لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين، ليقيه الله سوء المخرج. ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقيه الله سوء المدخل، بعد أن يسلّم على من في المنزل من الزوجة وغيرها. وإن لم يكن في البيت أحد يسلّم أيضًا، ويقول: السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين.

وإن كان متفرغًا فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة؟ فإن كان عليه قضاء صلّى صلاة يوم أو يومين، أو أكثر، وإلا فليصلّ ركعات يطوّلها ويقرأ فيها القرآن؛ فقد كان من الصالحين من يختم القرآن في الصلاة بين اليوم والليلة، وإلا فليصلّ أعدادًا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدُ﴾ وبالآيات التي في القرآن، وفيها دعاء مثل قوله تعالى ﴿رَبنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإليَكَ الْمصير﴾[1] وأمثال هذه الآية.

يقرأ في كل ركعة آيةً منها، إمّا مرّة، أو يكررها مهما شاء.

ويقدر للطالب أن يصلي بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس، وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة.

---

(١) آية ٤ من سورة المتحنة.

وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة إلى مائتين.. إلى خمسمائة.. إلى ألف ركعة.

ومن ليس له في الدنيا شغل، وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يبطل[١] ولا يتنعم بخدمة الله تعالى؟!

قال سهل بن عبد الله التسترى: لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة.

فإذا ارتفعت الشمس، وتنصَّف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما ينتصف العصر بين الظهر والمغرب يُصلّي الضحى، فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى؛ قال رسول الله ﷺ «صلاة الضحى إذا رمضت الفصال»[٢] وهو: أن ينام الفصيل في ظلّ أمه عند حرّ الشمس.

وقيل: الضحى: إذا ضحيت الأقدام بحرّ الشمس.

وأقلّ صلاة الضحى ركعتان، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة، ويجعل لنفسه دعاءً بعد كل ركعتين، ويسبح، ويستغفر.

ثم بعد ذلك، إن كان هناك حقٌّ يُقضَى مما نُدب إليه، من: زيارة، أو عيادة يمضى فيه.. وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور، إمّا ظاهرًا، وباطنًا، وقلبًا وقالبًا، وإلا فباطنًا.

وترتيب ذلك: أنه يصلّي ما دام منشرحًا ونفسه مجيبة.

فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة؛ فإن مجرد التلاوة أخفّ على النفس من الصلاة.

فإن سئم التلاوة أيضًا يذكر الله بالقلب واللسان، فهو أخفّ من القراءة.

فإن سئم الذكر يَدَع ذكر اللسان، ويلازم بقلبه المراقبة.

والمراقبة عِلْم القلب بنظر الله تعالى إليه، فما دام هذا العلم ملازمًا لقلبه فهو مراقب، والمراقبة عين الذكر وأفضله.

---

(١) يبطل: أى يضعف.

(٢) الفصال: جمع فصيل. والفصيل هو: ولد الناقة أو البقرة إذا فصل عن أمه.

فإن عجز عن ذلك أيضًا، وتملكته الوساوس، وتزاحم فى باطنه حديث النفس فَلْينم؛ ففى النوم السلامة، وإلا فكثرة حديث النفس تقسّى القلب ككثرة الكلام؟ لأنه كلام من غير لسان، فيحرّز عن ذلك.

قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس.

والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره؛ فإنه بحديث النفس، وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع، كشخصٍ آخر فى باطنه، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر.

ويمكن للطالب المجدّ أن يُصلى من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة، أو يقرأ فى كل ركعتين جزءًا من القرآن، أو أقل، أو أكثر.

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى، وبعد الفراغ من أعدادٍ أخر من الركعات حسن.

قال سفيان: كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا؛ طلبًا للسلامة.

وهذا النوم فيه فوائد:

منها: أنه يعين على قيام الليل.

ومنها: أن النفس تستريح، ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه، والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الانتباه من نوم النهار تجد فى الباطن نشاطًا آخر، وشغلًا آخر، كما كان فى أول النهار. فيكون للصادق فى النهار نهاران يغتنمهما بخدمة الله تعالى، والدءوب فى العمل.

وينبغى أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة، حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة: ذاكرًا، أو مسبُحًا أو تاليا. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفى النَّهَارِ﴾[1] وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[2] قيل: قبل طلوع الشمس: صلاة الصبح، وقبل غروبها: صلاة العصر.

---

(١) آية ١١٤ من سورة هود.

(٢)، (٢)، (٣)، (٤) من سورة طه الآية ١٣٠.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾[٢] أراد العشاء الأخيرة. ﴿وأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾[٣] أراد: الظهر والمغرب؛ لأن الظهر صلاة فى آخر الطرف الأول من النهار، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس، وفيها صلاة المغرب.

فصار الظهر آخر الطرف الأول، والمغرب آخر الطرف الآخر، فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر، كما استقبل الطرف الأول.

وقد عاد بنوم النهار جديدًا كما كان بنوم الليل، ويصلى فى أول الزوال، قبل السنة والفرض، أربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله ﷺ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر فى أوّل أوقاتها. ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين، حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء، فيشرع فى صلاة الزوال. ويسمع الأذان، وقد توسط هذه الصلاة ثم يستعد لصلاة الظهر.

فإن وجد فى باطنه كدرًا من مخالطة، أو مجالسة اتفقت يستغفر الله ويتضرع إليه. ولا يشرع فى صلاة الظهر إلا بعد أن يجد الباطن عائدًا إلى حاله من الصفاء.

والذائقون حلاوة المناجأة لابدّ أن يجدوا صفو الأنس فى الصلاة، ويتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح، ويصير على بواطنهم من ذلك عُقَد وكدّر، وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الأهل والولد، مع كون ذلك عبادة، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العُقَد وإذهاب الكدر.

وحلّ العقد بصدق الإنابة، والاستغفار، والتفرغ إلى الله تعالى.

ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولد: أن يكون فى مجالسته غير راكن إليهم كل الركون، بل يسترق القلب فى ذلك نظرات إلى الله تعالى، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة.

إلاّ أن يكون قوى الحال، لا يحجبه الخلقُ عن الحق، فلا ينعقد على باطنه عقدة، فهو كما يدخل فى الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة، كان استرواح منغمرًا بروح قلبه؛ لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق، وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية، فلا ينعقد على باطنه عقدة.

وصلاة الزوال التى ذكرناها تحلّ العقد، وتُهيىء الباطن لصلاة الظهر، فيقرأ فى صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة فى النهار الطويل، وفى القصير ما يتيسر من ذلك.

قال الله تعالى ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[١] وهذا هو الإظهار، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرد، وقرأ الدعاء الذى بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن.

وكذلك ما ورد أن رسول الله ﷺ دعا به إلى صلاة الفجر.

ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة، وآية الكرسى، ويسبح، ويحمد، ويكبر ثلاثًا وثلاثين مرّة – كما وصفنا – ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعد صلاة الصبح، وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرًا كثيرًا وفضلاً عظيمًا.

ومن له همّة ناهضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئًا لله تعالى.

ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشاءين، على الترتيب الذى ذكرناه، من الصلاة، والتلاوة، والذكر والمراقبة. ومن دام سهره ينام نومة خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر.

ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين، يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك فى أربع ركعات فهو خير كثير.

وإن أراد أن يحيى هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك. أو بعشرين ركعة يقرأ فيها ﴿قل هو الله أحد﴾ ألف مرة، فى كل ركعة خمسين.

ويستاك قبل الزوال إن كان صائمًا، وإن لم يكن صائمًا فأىّ وقت تغيرّ فيه الفم، وفى الحديث «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب».

وعند القيام إلى الفرائض[٢] يستحب.

قيل: إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير السواك سبعين ضعفًا. وقيل هو خير[٣].

وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ:

---

(١) من آية ١٨ من سورة الروم.

(٢) وفى نسخة من الفرائض.

(٣) وفى نسخة هو خير.

فى الركعة الأولى ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِـي الآخِـرةِ حَسَـنَةً وَقِنَـا عَـذَابَ النَّـار﴾ [آية ٢٠١ من سورة البقرة].

ثم فى الثانية ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقومِ الْكَافِرِينَ﴾ [آيـة ٢٥٠ من سورة البقرة].

ثم ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا . . . ﴾ إلى آخر السورة [آية ٢٨٦ من سورة البقرة].

ثم ﴿رَبَّنَا لاَ تُزغْ قُلُوبَنَا . . . ﴾ الآية [آية ٨ من سورة آل عمران].

ثم ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى للإيمان...﴾ الآية [آية ١٩٣من سورة آل عمران].

ثم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ . . . ﴾ [آية ٥٣ من سورة آل عمران].

ثم ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا . . . ﴾ [آية ١٥٥ من سورة الأعراف].

ثم ﴿ فاطر السموات والأرض أَنْتَ وَلِى . . . ﴾ [آية ١٠١ من سورة يوسف].

ثم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ . . . ﴾ الآية [آية ٣٨ من سورة إبراهيم].

ثم ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [آية ١١٤ من سورة طه].

ثم ﴿ لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَك . . . ﴾ [آية ٨٧ من سورة الأنبياء].

ثم ﴿ رَبِّ لاَ تَذرْنِى فَرْدًا . . . ﴾ [آية ٨٩ من سورة الأنبياء].

ثم ﴿ وَقُلْ رَّب اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمين...﴾ [آية ١١٨ من سورة المؤمنون].

ثم ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا . . . ﴾ [آية ٧٤ من سورة الفرقان].

ثم ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَـىَّ وَعَلَـى وَالِـدَىَّ وَأَنْ أَعْمَـل صَالِحًـا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمتكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . . ﴾ [آية ١٩ من سورة النمل].

ثم ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [آية ١٩ من سورة غافر].

ثم ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ...﴾[آية١٥من سورة الأحقاف].

ثم ﴿ رَبَّنَا اغفِر لَنَا ولإِخْوانِنا الَّذينَ سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ [آية ١٠ من سورة الحشر].

ثم ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا . . . ﴾ [آية ٤ من سورة الممتحنة].

ثم ﴿ رَبِّ اغْفِر لِـى وَلِوَالِـدِىَّ وَلِمَـنْ دَخَـلَ بَيْتِـىَ مُؤْمِنًـا وَلِلْمؤمِنِـينَ والْمؤْمِنَـاتِ وَلاَ تـزِدِ الظَّالِمينَ إلاَّ تَبَارًا ﴾ [آية ٢٨ من سورة نوح].

مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات..

وبالمحافظة على هذه الآيات فى الصلاة – مواطئًا للقلب واللسان – يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان.

ولو ردد فرد آية من هذه فى ركعتين من الظهر أو العصر كان فى جميع الوقت مناجيًا لمولاه، وداعيًا وتاليًا، ومصليا.

والدءوب فى العمل، واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لا يصح إلا لعبد تزكّت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء فى الزهد فى الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى.

ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه فى العمل، بل ينشط وقتًا.. ويسأم وقتا.. ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شىء من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا.. وإذا صحّ فى الزهد والتقوى فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب..

فمن رام دوام الروح واستحلاء الدءوب فى العمل فعليه بحسم مادة الهوى.

والهوى روح النفس لا يزول، ولكن تزول متابعته، والنبى ﷺ ما استعاذ من وجود الهوى، ولكن استعاذ من متابعته، فقال: «أعوذ بك من هوى متبع» ولم يستعذ من وجود الشحّ؛ فإنه طبيعة النفس، ولكن استعاذ من طاعة فقال: «وشحّ مطاع».

ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب، وعلوّ الحال، فقد يكون متّبعًا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق، ومكالمتهم، أو النظر إليهم.

وقد يتّبع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم، والأكل، وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع. وهذا شغل من ليس له شغل إلا فى الدنيا.

ثم يصلى العبد، قبل العصر، أربع ركعات، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم، ولو اغتسل كان أفضل.

وكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن، وتكميل الصلاة.

ويقرأ فى الأربع قبل العصر: إذا زلزلت، والعاديات، والقارعة، وألهاكم.

ويصلى العصر، ويجعل من قراءته فى بعض الأيام: والسماء ذات البروج.

وسمعت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدمامل.

ويقرأ بعد العصر، ما ذكرنا من الآيات، والدعاء، وما تيسر له من ذلك.

فإذا صلّى العصر ذهب وقت التنفّل بالصلاة، وبقى وقت الأذكار والتلاوة.

وأفضل من ذلك: مجالسة مَن يُزهّده فى الدنيا ويسدد كلامه عُرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المؤيدين.

فإذا صحت نيّة القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار.

وإن عدمت هذه المجالسة وتعذّرت فليتروّح بالتنفّل فى أنواع الأذكار.

وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه فى هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه فى أول النهار.

ولا يخرج من المنزل إلا وهو على وضوء.

وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر. وأجازه المشايخ والصالحون.

ويقول كلما خرج من منزله: باسم الله ما شاء الله، حسبى الله، لا قوة إلا بالله، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى، وليقرأ الفاتحة، والمعوذّتين.

ولا يدع أن يتصدّق كل يوم بما تيسر له، تمرة، أو لقمة؟ فإن القليل بحسن النيّة كثير.

وروى أن عائشة رضى الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة، وقالت: إن فيها لمثاقيل ذرّ كثير.

وجاء فى الخبر «كل أمرىء يوم القيامة تحت ظل صدقته».

ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير. فقد ورد عن رسول الله ﷺ «أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[1].

ومائة مرة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فقد ورد أن «من قال فى يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله».

---

(١) رواه ابن حبان.

ويقول مائة مرة: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ومائة مرّة: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وبحمده، أستغفر الله.

ومائة مرّة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين.

ومائة مرّة : اللهم صلى على محمد.

ومائة مرّة : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأسأله التوبة.

ومائة مرّة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف حبة فى كيس له، ذكر: أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتى عشرة مرة بأنواع الذكر.

ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم والليلة.

ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة.

وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح:

سبحان الله شديد الأركان . . .

سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار . . .

سبحان من لا يشغله شأن عن شأن . . .

سبحان الله الحنان المنّان . . سبحان الله المسبّح فى كل مكان .

روى أن بعض الأبدال بات على شاطىء البحر، فسمع فى هدوء الليل هذا التسبيح، فقال: من الذى أسمع صوته ولا أرى شخصه؟. فقال: أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر، أسبّح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خُلقت. فقال: ما اسمك؟ فقال: مهليهيائيل. فقال: ما ثواب هذا التسبيح؟ قال: من قال مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يُرى له.

وروى أن عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض﴾ [1] فقال: «سألتنى عن شىء عظيم ما سألنى عنه غيرك، هو: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله عزّ وجل،

---

(١) آية ٦٣ من سورة الزمر.

وأستغفر الله الأول والآخر الظاهر الباطن، وله الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير».

من قالها عشرًا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال:

فأول خصلة: أن يُحرس من إبليس وجنوده.

الثانية: أن يُعطَى قنطارًا من الأجر.

الثالثة: يرفع له درجة فى الجنة.

الرابعة: يزوّجه الله من الحور العين.

الخامسة: أثنا عشر ملكا يستغفرون له.

السادسة: يكون له من الأجر كمن حج وأعتمر.

ويقول أيضًا فى هذا الوقت وفى أول النهار: اللهمَّ أنت خلقتنى، وأنت هديتنى، وأنت تطعمنى وأنت تسقينى وأنت تميتنى وأنت تحيينى، وأنت ربّى، لا ربَّ سواك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك.

ويقول: ماشاء الله ولا قوة إلاّ بالله. ما شاء الله كل نعمة من الله.. ماشاء الله.. الخير كلّه بيد الله ماشاء الله.. لا يصرف السوء إلا الله.

ويقول: حسبى الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة، ويقرأ المسبعات قبل الغروب، ويديم التسبيح والاستغفار ويقرأ عند الغروب أيضًا: والشمس، والليل، والمعوذتين.

ويستقبل الليل كما استقبل النار. قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرادَ أَنْ يَذَّكَّر أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1] فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل: ينبغى أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر، ولايتخللهما شىء، كما لا يتخلل بين الليل والنهار شىء.

والذكر جميعه أعمال القلب، والشكر أعمال الجوارح. قال الله تعالى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾[2] والله الموفق المعين.

---

(١) آية ٦٢ من سورة الفرقان.

(٢) آية ١٣ من سورة سبأ.

الباب الحادي والخمسون

في آداب المريد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب، وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله ﷺ وأصحابه. وقد قال الله تعالى ﴿يأيُّها الَّذِينَ آمنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى اللهِ ورسوله، واتقوا الله إن اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

روى عن عبد الله بن الزبير قال: قدم وفد على رسول الله ﷺ من بني تميم، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلاّ خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافك.. فتماريا حتى ارتفع صوتهما، فأنزل الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا..﴾ الآية.

قال ابن عباس – رضي الله عنه –: لا تقدموا: لا تتكلموا بين يدى كلامه..

وقال جابر: كان ناس يضحون قبل رسول الله، ﷺ، فنهوا عن تقديم الأضحية على رسول الله ﷺ.

وقيل: كان قوم يقولون: لو أنزل في كذا.. وكذا.. فكره الله ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها – : أى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم.

وقال الكلبي: لا تسبقوا رسول الله ﷺ بقول: ولا فعل، حتى يكون هو الذى يأمركم به.

وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار.. لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره..

وقد استوفينا هذا المعنى في باب «المشيخة».

وقيل: لا تقدّموا: لا تمشوا بين يدى رسول الله ﷺ .

وروى أبو الدرداء قال: كنت أمشي أمام أبي بكر، فقال لى رسول الله ﷺ «تمشى أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة»[٢].

وقيل: نزلت في أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شيء خاضوا فيه، وتقدّموا بالقول والفتوى، فنُهوا عن ذلك.

---

(١) أول سورة الحجرات.

(٢) متفق عليه.

وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ، ينبغى أن يلزم السكوت، ولا يقول شيئًا بحضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ، ووجد من الشيخ فسحة فى ذلك.

وشأن المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقًا يساق إليه:

فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله.. وتطلعه إلى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء لنفسه. وذلك جناية المريد وينبغى ان يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ.

على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ، بل يبادئه بما يريد؛ لأن الشيخ يكون مُستنطقًا نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله، ويستمطر، ويستسقى لهم؛ فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه: لأن الشيخ يعلم تطلّع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله.

والقول كالبذر يقع فى الأرض؛ فإذا كان البذر فاسدًا لا يُنبت، وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها..

فالشيخ يُنقّى بذكر الكلام عن شوب الهوى، ويسلمه إلى الله، ويسأل الله المعونة والسداد، ثم يقول فيكون كلامه بالحق، من الحق، للحق.

فالشيخ للمريدين أمين الإلهام.. كما أن جبريل أمين الوحى، فكما لا يخون جبريل فى الوحى لا يخون الشيخ فى الإلهام.

وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، فالشيخ مقتدٍ برسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، لا يتكلم بهوى النفس.

وهوى النفس فى القول بشيئين: **أحدهما** : طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه، وما هذا من شأن الشيوخ.

والثانى : ظهور النفس باستحلاء الكلام والعُجب، وذلك خيانة عند المحققين.

والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس تشغله مطالعة نِعَم الحق فى ذلك، فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب؛ فيكون الشيخ لما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعًا كأحد المستمعين.

وكان الشيخ أبو السعود - رحمه الله تعالى - يتكلم مع الأصحاب بما يُلقَى إليه، وكان يقول: أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم. فأشكل ذلك على بعض الحاضرين، وقال: إذا كان القائل هو يعلم ما يقول، كيف يكون كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه؟.. فرجع إلى منزله، فرأى ليلته فى المنام كأن قائلاً يقول له: أليس الغوّاص يغوص فى البحر لطلب الدرّ؟

ويجمع الصدف فى مخلاته، والدرّ قد حصل معه، ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه فى رؤية الدرّ من هو على الساحل؟. ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك.

فأحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والخمود والجمود؛ حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلاً.

وقيل أيضا فى قوله تعالى: ﴿لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[1]: لا تطلبوا منزلةً وراء منزلته. وهذا من محاسن الآداب وأعزها.

وينبغى للمريد أن لا يحدّث نفسه بطلب منزلة فوق الشيخ، بل يحب للشيخ كلّ منزلة عالية، ويتمنى للشيخ عزيز المنح، وغرائب المواهب، وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة، وهذا يعزّ فى المريدين؛ فإراداته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه، ويكون قائمًا بأداب الإرادة:

قال السرىّ — رحمه الله — حسن الأدب ترجمان العقل.

وقال أبو عبد الله بن حنيف: قال لى رويم: يا بنىّ اجعل عملك ملحًا وأدبك دقيقًا.

وقيل: التصوّف كله أدب؛ لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب؛ فمن يلزم الأدب يبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول.

ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[2] : كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر، وكان جهورى الصوت، فكان إذا كلّم إنسانًا جهر بصوته، وربما كان يكلم النبى ﷺ فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى الآية تأديبًا له ولغيره.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١.

(٢) سورة الحجرات الآية ٢.

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بـن علـى، قـال: أخبرنـا أبـو الفتـح الهـروى، قـال: أخبرنا أبو نصر الترياقى، قال: أخبرنا أبو محمد الجراحىّ، قـال: أخبرنـا أبـو العبـاس المحبوبى، قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا محمد بن المثنـى، قـال: حدثنـا مؤمل بن إسماعيل، قـال: حدثنـا نـافع بـن عمـر بـن جميـل الجمحـى، قـال: حدثنـى حابس بن أبى مليكه، قال: حدثنى عبد الله بن الزبير: أن الأقرع بـن حـابس قـدم علـى رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: استعمله على قومه. فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله.

فتكلما عند النبى ﷺ حتى علت أصواتهما. فقال أبو بكر لعمر: مـا أردت إلا خلافـى. وقال عمر: ما أردت خلافك فأنزل الله تعالى الآيـة. فكـان عمـر بعـد ذلـك إذا تكلّـم عنـد النبى ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهم.

وقيل: لما نزلت الآية إلى أبى بكر أن لا يتكلم عند النبى ﷺ إلا كأخ السرار.

فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ؛ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحـك وكـثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ.

فرفع الصوت تنحية جلباب القلبَ الوقار[1].

والوقار إذا سكن القلبَ عقل اللسان ما يقول: وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يسـتطيع المريـد أن يشبع النظـر إلى الشيخ وقـد كنـت «أحمُّ»[2] فيدخل علىّ عمى وشيخى أبو النجيب السهروردى رحمه الله – فيترشح جسدى عَرقًا.

وكنت أتمنى العرق لتخفّ الحمى – فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علـىّ، ويكـون فى قدومه بركة وشفاء.

وكنت ذات يوم فى البيت خاليـًا، وهناك منديل وهبـه لى الشـيخ، وكـان يتعمـم بـه، فوقع قدمى على المنديل اتفاقًا، فتألم باطنى من ذلك، وهالنى الـوطء بـالقدم علـى منديـل الشيخ، وانبعث من باطنى من الاحترام ما أرجو بركته.

قال ابن عطاء فى قوله تعالى ﴿لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ زجر عن الأدنى؛ لئلا يتخطـى أحـد إلى ما فوقه من ترك الحرمة.

وقال سهل فى ذلك: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

---

(١) وفى نسخة: تنحية جلباب الوقار، وتستقيم العبارة إذا كانت (.. فرفع الصوت تنحية القلب جلباب الوقار).

(٢) أى: أمرض بالحمى.

وقال أبو بكر بن طاهر: لا تبدءوه بالخطاب، ولا تجيبوه إلا على حدود الحرمة، ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[١]. أى: لا تغلظوا له فى الخطاب، ولا تنادوه باسمه: يا محمد، يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضًا، ولكن فخموه، واحترموه وقولوا له: يا نبى الله.. يا رسول الله.

ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ، وإذا سكن الوقار القلبَ علم اللسانُ كيفيةَ الخطاب.

ولّما كَلِفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كَلَف النفس وهواها، فإذا امتلأ القلب حرمة ووقارًا تعلّم اللسان العبارة.

وروى: لمّا نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى، فمرّ به عاصم بن عدىّ، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتخوّف أن تكون قد نزلت فىّ: ﴿أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُمْ وَأنْتُمْ لاَ تشعرون﴾[٢].

وأنا رفيع الصوت على النبى ﷺ أخاف أن يحبط عملى وأكون من أهل النار.. فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابتًا البكاء، فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسى فسدّى علىّ الضبّة بمسمار، فضربته بمسمار، حتى إذا خرجت عطفته[٣]، وقال:

لا اخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله ﷺ.

فلما أتى عاصم النبىَ، وأخبره بخبره قال: «اذهب فادعه».

فجاء عاصم إلى المكان الذى فيه رآه.. فلم يجده. فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفرس فقال له:

إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسر الضبّة.. فأتيا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيّت[٤] وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فىّ فقال له رسول الله ﷺ: «أمَا ترضى أن تعيش سعيدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنّة؟».

---

(١) سورة الحجرات الآية ٢.

(٢) سورة الحجرات الآية ٢.

(٣) عطفته: أى أمالت المسمار زيادة فى الإحكام والغلق.

(٤) قوى الصوت رفيعه.

فقال: قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله، ولا أرفع صوتى أبدًا على رسـول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ..﴾[1].

قال أنس: كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا.. فلما كان يوم اليمامة، فى حرب مسيلمة، رأى ثابت مـن المسلمين بعـض الانكسـار.. وانـهزمت طائفـة منـهم، فقال: أفٍ لهؤلاء وما يصنعون!!

ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل هذا!!

ثم ثبتا.. ولم يزالا يقاتلان حتى قتلا، واستشهد ثابت كما وعده رسول الله ﷺ وعليـه درع، فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنـام فقـال لـه: اعلـم أن فلانـا.. رجـل مـن المسلمين—نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستنّ فـى طيلـه، وقد وضـع لى درعـى برمـة، فـأت خـالد بـن الوليـد فأخـبره حتـى يسـترد درعـى، وأت أبا بكر— خليفة رسول الله ﷺ فقل له: إنّ علـىّ ديْنًـا حتـى يقضـى عنـى. وفـلان—مـن عبيدى— عتيق.

فأخبر الرجل خالدًا فوجد الدرع والفرس على ما وصفه، فاستردّ الدرع.

وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا، فأجاز أبو بكر وصيته.

قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هـذه، كرامـة ظـهرت لثابت؛ بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله ﷺ.

فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسـوله، وأن الـذى يعتمـده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله ﷺ واعتمده مع رسول الله ﷺ.

فلما قام القوم بواجب الأدب أخبر الحق عـن حـالهم وأثنـى عليـهم، فقـال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقوىَ﴾[2] أى: اختبر قلوبهم، وأخلصها، كمـا يمتحـن الذهـب بالنار فيخرجُ خالصَّه، وكما أن اللسـان ترجمـان القلـب، وتـهذّب اللفـظ لتـأدّب القلـب، فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ.

---

(١) آية رقم ٣ من سورة الحجرات.

(٢) من آية رقم ٣ من سورة الحجرات.

قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر وفى مجالسة السادات من الأولياء يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلا، والخير فى الأول والعقبى. ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾(١).

ومما علّمهم الله تعالى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

وكان هذا الحال من وفد بنى تميم، جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فنادوا: يا محمد، اخرج إلينا؛ فإن مدحنا زين، وذمّنا شين. قال: نسمع رسول الله ﷺ.. فخرج إليهم وهو يقول «إنما ذلكم الله الذى ذمّه شين ومدحه زين». فى قصة طويلة.. وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة.

وفى هذا تأدّب للمريد فى الدخول على الشيخ والإقدام عليه، وتركه الاستعجال، وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته.

سمعت أن الشيخ عبد القادر — رحمه الله — كان إذا جاء إليه فقير زائر، يخبر بالفقير، فيخرج.. ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير، ويسلم عليه، ولا يجلس معه، ويرجع إلى خلوته.

وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه..

فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار؛ لتركه الخروج إلى الفقير، وخروجه لغير الفقير، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ، فقال: الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية، وهو أهل، وليس عنده أجنبية، فنكتفى معه بموافقة القلوب ونقنع بها، عن ملاقاة الظاهر — بهذا القدر، وأما من هو من غير جنس الفقراء، فهو واقف مع العادات والظاهر، فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ.

قيل لأبى منصور المغربى: كم صحبت أبا عثمان؟ قال: خدمته، لا صحبته؛ فالصحبة مع الإخوان والأقران، ومع المشايخ الخدمة.

وينبغى للمريد أنه كلما أشكل عليه شىء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: كيف كان ا لخضر يفعل أشياء ينكرها موسى، وإذا أخبره الخضر بسرّها يرجع موسى عن إنكاره.

---

(١) آية رقم ٥ من سورة الحجرات.

(٢) آية رقم ٤ من سورة الحجرات.

فما ينكره المريد؛ لقلّة علمه بحقيقة ما يوحد من الشيخ، فللشيخ فى كل شىء عذر بلسان العلم والحكمة.

سأل بعض أصحاب الجنيد مسألة عن الجنيد، فأجابه الجنيد.. فعارضه فى ذلك!!

فقال الجنيد: فإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون. فقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تأدّب به حرم بركة ذلك الأدب.

وقيل: من قال لأستاذه: لا، لا يفلح أبدًا.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على، قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال: أخبرنا أبو نصر الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى، قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى، قال: حدثنا هناد، عن أبى معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «اتركونى ما تركتكم، وإذا حدثتكم فخذوا عنى، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».

قال الجنيد — رحمه الله: رأيت مع أبى حفص النيسابورى إنسانًا كثير الصمت، لا يتكلم. فقلت لأصحابه: مَن هذا؟

فقيل لى: هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له، واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه، ما يسوِّغ له أبو حفص أن يتكلّم بكلمة واحدة.

وقال أبو يزيد البسطامى: صحبت أبا علىّ السندى، فكنت ألقنّه ما يقيم به فرضه، وكان يعلمنى التوحيد، والحقائق صرفًا.

وقال أبو عثمان: صبحت أبا حفص وأنا غلام حدث، فطردنى وقال: لا تجلس عندى. فلم أجعل مكافأتى له على كلامه أن أولّى ظهرى إليه، فانصرفت أمشى إلى خلف ووجهى مقابل له حتى غبت عنه، واعتقدت أن أحفر لنفسى بئرًا على بابه، وأنزل، وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذنه.. فلما رأى ذلك منىّ قرّبنى، وقبلنى، وصيرّنى من خواص أصحابه إلى أن مات — رحمه الله —

ومن آدابهم الظاهرة: أن المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلاّ لوقت الصلاة؛ فإن المريد من شأنه التبتل للخدمة، وفى السجادة إيماءٌ إلى الاستراحة والتعزز.

ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حدّ التمييز، وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال فى السماع وتقيّده.

واستغراقه فى الشيخ بالنظر إليه، ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع ومن الأدب، أن لا يكتم على الشيخ شيئًا من حاله، ومواهب الحقّ عنده، وما يظهر له من كرامة وإجابةٍ. ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه، وما يستحى من كشفه يذكره إيماءً وتعريضًا؛ فإن المريد منى انطوى ضميره على شىء لا يكشفه للشيخ تصريحًا أو تعريضًا يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحلّ العقدة.

ومن الأدب: أن لا يدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن قَيّمٌ بتأديبه وتهذيبه، وأنه أقوم بالتأديب من غيره.

ومتى كان عند المريد تطلّع إلى لشيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه، ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ فيه؛ فإن المريد كلما أيقن تفرّد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته، والمحبَّة والتألف مع الواسطة بين المريد والشيخ.

وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال؛ لأن المحبة علامة التعارف، والتعارف علامة الجنسية، والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ أو بعض حاله.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان، قال أخبرنا أبو الفضل حميد؛ قال: أخبرنا الحافظ أبو نعيم، قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال حدثنا أنس، قال: حدثنا عتبة بن رزين، عن أبى أمامة الباهلى، عن رسول الله ﷺ قال «مَن علّم عبدًا آية من كتاب الله فهو مولاه، ينبغى له أن لا يخذ له، ولا يستأثر عليه، فمن فعل ذلك فقد فَصَم عروةً من عرى الإسلام»[1].

ومن الأدب: أن يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الأمور كلياتها، ولا يستحقر كراهة الشيخ ليُسيِّر حركاته معتمدًا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته.

قال إبراهيم بن شيبان: كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن شبان يُسافر بنا فى البرارى والفلوات، وكان معه شيخ اسمه «حسن» وقد صحبه سبعين سنة، فكان إذا جرى من أحدنا خطأٌ وتغيَّر الشيخ تتشفَّع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان.

---

(١) رواه ابن حبان والدارقطنى.

ومن أدب المريد مع الشيخ: أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ؛ فإن الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر.

فإن كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له، وما كان من عند الله لا يختلف.

وإن كان فيه شبهة تزول الواقعة بطريق الشيخ، ويكتسب المريد علمًا بصحة الوقائع والكشوف.

فالمريد لعله فى واقعته يخامره كمون إرادة فى النفس، فيتشبك كمون الإرادة بالواقعة منامًا كان ذلك أو يقظةً، ولهذا سرّ عجيب، ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس، وإذا ذكره للشيخ فما فى المريد من كمون إرادة النفس منقود فى حق الشيخ، فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ.

وإن كان ينزع واقعته إلى كمون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد، ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله، وصحة إيوائه إلى جناب الحق وكمال معرفته.

ومن الأدب مع الشيخ: أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ فى شىء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرّغ، فكما أنّ للدعاء أوقاتًا وآدابًا وشروطًا - لأنه مخاطبة لله تعالى - فللقول مع الشيخ أيضًا آداب وشروط؛ لأنه من معاملة الله تعالى -

ويسألُ الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق، لما يحبُّ من الأدب، وقد نبّه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله ﷺ فى مخاطبته فقال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[1] يعنى: أمام مناجاتكم.

قال عبد الله بن عباس: سأل الناسُ رسول الله ﷺ، فأكثروا، حتى شقّوا عليه وأحفوْه بالمسألة؛ فأدبّهم الله تعالى، وفطمهم عن ذلك، وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدّموا صدقة.

وقيل: كان الأغنياء يأتون النبى ﷺ ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره النبىّ عليه الصلاة والسلام طول حديثهم ومناجاتهم؛ فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته.

---

(١) آية رقم ١٢ من سورة المجادلة.

فأما أهل العُسرة فلأنهم لم يجدوا شيئًا، وأما أهل اليسرة فبخلوا وصفوا، فاشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، ونزلت الرخصة: وقال تعالى ﴿أَأَشْفَقْتُم أَنْ تُقَدِمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾[١].

وقيل: لما أمر الله بالصدقة لم يناج رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب، فقدّم دينارًا.. فتصدّق به.

وقال على: فى كتاب الله آيةٌ ما عمل بها أحد قبلى، ولا يعمل بها أحد بعدى.

وروى أن رسول الله ﷺ لمّا نزلت الآية دعا عليا وقال: «ما ترى فى الصدقة، كم تكون؟ دينارًا؟».

قال على: لا يطيقونه. قال: كم؟. قال على: تكون حبّة أو شعيرة، فقال رسول الله ﷺ: «إنك لزهيد».

ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية.

وما نبّه الحق عليه بالأمر بالصدقة، وما فيه من حسن الأدب، وتقييد اللفظ والاحترام ما نسخ، والفائدة باقية.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان، قال: أخبرنا أبو الفضل أحمد، قال: أخبرنا الحافظ أبو نعيم، قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا مطلب بن شعيب، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثنا ابن لُهيعة عن أبى قبيل، عن عبادة بن الصامت قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يُجلّ كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه»[٢].

فاحترام العلماء توفيق وهداية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق.

---

(١) آية رقم ١٣ من سورة المجادلة.

(٢) متفق عليه.

الباب الثانى والخمسون

فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلاميذ

أهم الآداب : أن لا يتعرّض الصادق المتقدم على القوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحذر أن يكون ذلك ابتلاءً وامتحانًا من الله تعالى .

والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق ، والشهرة ، وفى الخمول السلامة .

فإذا بلغ الكتاب أجله ، وتمكّن العبد من حاله ، وعَلم - بتعريف الله إيّاه - أنه مُرادٌ بالإشارة والتعليم للمريدين ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه .

وكل مريد ومسترشد - ساقه الله تعالى إليه - يراجع الله تعالى فى معناه[1] ، ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه ، وفى القول معه .

ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله ، مستعين به فى الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى - رحمه الله - يوصى بعض أصحابه ويقول : لا تكلّم أحدًا من الفقراء إلا فى أصفّى أوقاتك .

وهذه وصية نافعة ؛ لأن الكلمة تقع فى سمع المريد كالحبة تقع فى الأرض .

وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تَهلك وتَضيع ، وفساد حبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تُكدِّر بحرًا من العلم ؛ فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغى أن يستمد القلبُ من الله تعالى كم يستمد اللسان من الجنان .

وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحقّ عند العَبد ، فيكون ناظرًا إلى الله ، مصغيًا إليه متلقيًا ما يرد عليه ، مؤديًا للأمانة فيه .

---

(١) أى فى داخله وأعماقه وباطنه .

ثم ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد ، ويتفرّس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده ؛ فمن المريدين من يصلح للتعبّد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار .

ومن المريدين من يكون مستعدًا صالحًا للقرب وسلوك طريق المقرّبين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية .

ولكل من الأبرار والمقرّبين مبادٍ ونهايات . فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له .

والعجب أن الصحراويّ يعلم الأراضي والغروس ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتّى منه من الغزل ودقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له ؟!

وكان رسول الله ﷺ يكلّم الناس عل قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ؛ فمنهم من كان يأمره بالإنفاق ، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصُفَّة ، فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس ، وما يصلح لكل واحد ، فأمّا في رتبة الدعوة فقد كان يُعمم الدعوة ؛ لأنه مبعوث لإثبات الحجة ، وإيضاح المحجة ، يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرّس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ : أن يكون له خلوة خاصة ، ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدّعي نفسه قوّة ، ظنًا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه ، وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قيام الليل ، وصلوات يصلّيها ، ويدوم عليها ، وأوقات يخلو فيها .

فطبع البشر لا يستغني عن السياسة ، قلّ ذلك أو كثر ، لطُف ذلك أو كثف .

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله ، واغترَّ بطيبة قلبه ، واسترسل في الممازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناخًا للبطّالين بلقمة تُؤكل عنده ؛ وبرفق يوجد منه ، فيقصده مَن ليس قصدُه الدين ، ولا بُغيتُه سلوكَ طريق المتقين . فافتتن وأفْتَن ، وبقي في خطة القصور ووقع في دائرة الفتور ، فما يستغني الشيخ عن الاستمداد

من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه ، فيكون له فى كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفى كل حركة بين يدى الله خضوع .

وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدّعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة ؛ لقلّة معرفتهم صفات النفس ، واغترارهم بيسير من الموهبة ، وقلّة تأدبّهم بالشيوخ .

كان الجنيد – رحمه الله – يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته مزيدًا لخلوته ، وفى هذا سرّ، وذلك : أن الآدمىّ ذو تركيب مختلف ، فيه تضادّ وتغاير – على ما أسلفنا – من كونه مترددًا بين السفلىّ والعلوى ، ولما فيه من التغاير له حظّ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة ، والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل ، وتارة فى عدم الروح فى العمل ، وإن لم تكن فى صورة العمل ، ففى وقت الفترة للمريدين والسالكين تصييع واسترواح للنفس ، وركون إلى البطالة .

فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسمُ فترته إلى الخلق ، فأفلح الخلق بقسم فترته ، وما ضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين ؛ فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدَّة ، وحدَّة الطلب إلى الإقبال على الله .

والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة ، أكثر من عود الفقير بحدَّة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور، بقلب متعطش وافر النور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار، قادمة بحدّة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حُسن خُلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ ، واستعماله التواضع .

حكى الرقىُّ قال: كنت بمصر، وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوسًا ، فدخل الزقاق، فقام عند اسطوانة يركع ، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه ، فلما فرغ جاء إلينا وسلّم علينا ، فقلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ . فقال : ما عذَّب الله قلبى بهذا قط ، يعنى : ما تقيدتُ بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم ؛ قال بعضهم : إذا رأيت الفقير فألقه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه .

فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرَّج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض . ولا يترك حقوقهم اعتمادًا على إرادتهم وصدقهم ، وقال بعضهم : لا تضيع حقَّ أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال : وافيت من الحج ، فابتدأت بالجنيد ، وسلّمت عليه وقلت : حتى لا يتعنَّى[1] ثم أتيتُ منزلى فلما صليت الغداة التفتُّ وإذا بالجنيد خلفى ، فقلت : يا سيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك ، لكيلا تتعنَّى إلى هاهنا . فقال لى : يا أبا محمد ، هذا حقّك وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفًا فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة : أن يرفقوا به ، ويوقفوه على حدّ الرخصة ، ففى ذلك خير كثير .

وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حرّ ، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء ، وتَدرّب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابى : كان شاب يعرف بـ (إبراهيم الصائغ) وكان لأبيه نعمةٌ ، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى ، فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من الدراهم فكان يشترى له الرقاق والشواء والحواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا وقد تعوّد النعمة ، فيجب أن نرفق به ، ونؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التنزّه عن مال المريد ، وخدمته ، والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه ؛ لأنه جاء لله تعالى ، فيجعل نفعه وإرشاده خالصًا لوجه الله تعالى ، فما يُسدِى الشيخُ للمريد من أفضل الصدقات .

وقد ورد (ما تصدّق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثّه فى الناس) .

---

(١) التعنّى : التعب والمشقة .

وقد قال الله تعالى : تنبيهًا على خلوصى ما لله وحراسته من الشوائب ﴿إِنَّمَا نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُم جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[1] .

فلا ينبغى للشيخ أن يطلب على صدقته جزاءً ، إلاّ أن يظهر له فى شىء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه ، أو صلاح يتراءى للشيخ فى حق المريد بذلك ، فيكون التلبُّس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد ، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ ، قال الله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ أجُورَكُمْ وَلاَ يَسْألكُمْ أموالكم إنْ يَسْألكُمُوهَا فَيُحفكُمْ تَبْخَلو وَيُخْرِجْ أضْغَانَكُمْ﴾[2] . ومعنى يحفكم : أى يجهدكم ويلح عليكم .

قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان . وهذا تأديب من الله الكريم . والأدب أدب الله .

قال جعفر الخلدى : جاء رجل إلى الجنيد ، وأراد أن يخرج عن ماله كله ، ويجلس معهم على الفقر، فقال له الجنيد: لا تخرج من مالك كله، احبس منه مقدار ما يكفيك ، وأخرج الفضل، وتفوّت بما حبست، واجتهد في طلب الحلال، لا تخرج كلاً ما عندك ، فلست آمنُ عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبى أفضل الصلاة والسلام عليه إذا أراد أن يعمل عملاً تثبَّت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشىء يكسبه من الحال ما لا يتطلّع به إلى المال ، فحينئذٍ يجوز له أن يفسح للمريد فى الخروج من المال ، كما فسح رسول الله ﷺ لأبى بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيوخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروهًا ، أو علم من حاله اعوجاجًا ، أو أحَسَّ منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عُجب : أن لا يُصرِّح له بالمكروه ، بل يتكلّم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمّة مجملاً ، فتحصل بذلك الفائدة للكلّ ، فهذا أقرب إلى المداراة ، وأكثر أثرًا لتألف القلوب .

وإذا رأى من المريد تقصيرًا فى خدمة ندبه إليها : يحمل تقصيره ، ويعفو عنه ، ويحرّضه على الخدمة بالرفق واللين .

---

(١) آية رقم ٩ من سورة الإنسان .

(٢) آية رقم ٣٧ من سورة محمد .

وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ ، فيما أخبرنا به ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو افتح الكرخى قراءةً قال: أخبرنا أبو نصر الترياقى قال : أخبرنا أبو محمد الجرحى، قال: أخبرنا أبوالعباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال : حدثنا قتيبة ، قال : حدثنا راشد بن سعد، عن أبى هلال الخولانى ، عن ابن عباس بن جليد الحجرى ، عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال : (كل يوم سبعين مرة)[1] .

وأخلاق المشايخ مهذّبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهم أحق الناس بإحياء سنّته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح . فسر المريد لا يتعدى ربَّه وشيخه .

ثم لا يحقر الشيخ فى نفس المريد ما يجده فى خلوته من كشف أو سماع خطاب ، أو شىء من خوارق العادات ، ويعرّفه أن الوقوف مع شىء من هذا يشغل عن الله ويسدّ باب المزيد ، بل يعرّفه أنَّ هذه نعمة تُشكر ، ومن ورائها نعم لا تُحصى ، ويعرفه أن شأن المريد طلبُ المنعم لا النعمة ، حتى يبقى سرّه محفوظًا عن نفسه وعند شيخه .

ولا يذيع سرّه ، فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السرِّ يُوصف به النسوان وضُعفاء العقول من الرجال .

وسبب إذاعة السرِّ أن للإنسان قوتين : آخذة ، ومعطية ، وكلتاهما تتشوّف إلى الفعل المختص بها ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى وَكَل المعطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار ؛ فكامل العقل كلما طلبت القوةُ الفعلَ قيّدها ، ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها ، فَيجلُّ حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم .

وينبغى للمريد أن يحفظ سرَّه من بثّه ؛ ففى ذلك صحته وسلامته ، وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين فى موردهم ومصدرهم .

---

(١) رواه الطبرانى .

الباب الثالث والخمسون

فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضَى للصحبة وجود الجنسية، وقد يدعو إلها أعم الأوصاف، وقد يدعو إليها أخصُّ الأوصاف؛ فالدعاء بأعم الأوصاف: كَميل جنس البشر بعضهم إلى بعض.

والدعاء بأخصّ الأوصاف : كميل أهل كلِّ ملَّة بعضهم إلى بعض .

ثم أخصُّ من ذلك: كميل اهل الطاعة بعضهم إلى بعض، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض، فإذا علم هذا الأصل. وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى، فَلْيتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص، وينظر ما الذى يميل به إلى صحبته؟ ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع، فإن رأى أحواله مسدَّدة فليبشّر نفسه بحسن الحال؛ فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حُسن الحال.

وإن رأى أن أفعاله غير مسددَّة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام؛ فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفرَّ منه كفراره من الأسد؛ فإنهما إذا اصطحبا ازدادًا ظلمة واعوجاجًا.

ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حُسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة أخيه فليعلم أنَّ الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلَّته، والميل بطريقه واقع، وله بحسبه أحكام، وللنفس بسببه سكون وركون، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص، ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية، وتَلَذذّات جبلية، لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد، ووجه ذلك: أن أهل الفساد عَلِم فساد طريقهم فأخذ حذره، وأهل الصلاح غَرَّه صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية، ثم حصل استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله، فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب، والتخلّف عن بلوغ الأرب.

فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة، ويأخذ من الصحبة أصفى الأقسام، ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام.

قال بعضهم: هل رأيت شرًّا قطّ إلا ممن تعرف؟!

ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة، ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة؛ كإبراهيم بن أدهم، وداود الطائى، وفضيل بن عياض، وسليمان الخواص. وحُكى عنه أنه قيل له: جاء إبراهيم بن أدهم أما تلقاه؟

قال: لأن ألقى سبعًا ضاريًا أحبُّ إلىّ من أن ألقى إبراهيم بن أدهم!! لأنى إذا رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى بإظهار أحسن أحوالها، وفى ذلك الفتنة.

وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها. وهذا واقع بين المتصاحبين، إلا من عصمه الله تعالى.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قال: أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد، قال: أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة قال: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال: أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى، قال: أخبرنا محمد بن بكر بن عبد الرازق قال حدثنا سليمان بن الأشعث قال: حدثنا عبد الله ابن سلمة، عن مالك، عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة، عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه عن الفتن»[1].

قال الله تعالى إخبارًا عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى﴾[2] استظهر بالعزلة على قومه.

قيل: العزلة نوعان: فريضة، وفضيلة.

فالفريضة: العزلة عن الشر وأهله. والفضيلة: عزلة الفضول وأهله.

ويجوز أن يقال: الخلوة غير العزلة، فالخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس وما تدعو إليه، وما يشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود.

قال أبو بكر الورّاق: ما ظهرتُ الفتنة إلاّ بالخُلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا. وما سلم إلا من جانب الخُلْطة.

وقيل: السلامة عشرة أجزاء، تسعة فى الصمت، وواحد فى العزلة.

---

(١) من آية ٤٨ من سورة مريم.

(٢) رواه الحاكم والدارقطنى.

وقيل: الخلوة أصل، والخلطة عارض فليلزم الأصل، ولا يخالط إلا بقدر الحاجة، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة، وإذا خالط يلازم الصمت، فإنه أصل والكلام عارض. ولا يتكلم إلا بحجة فخطر الصحبة كثيرًا، يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم. والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار فى ذلك ما أخبرنا به الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبى سليمان، قال: حدثنا مسلم بن سليمان النجار، قال: حدثنا محمد بن يونس الكريمي، قال: حدثنا محمد بن منصور الجشمي، قال: حدثنا مسلم بن سالم قال: حدثنا السرى بن يحيى عن الحسن، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «ليأتينَّ على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فرَّ بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن حجر إلى حجر كالثعلب الذى يروغ» قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «إذا لم تنل المعيشةُ إلا بمعاصى الله، فإذا كان ذلك الزمان حلّت العزوبة»[١].

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرنا بالتزوج؟ قال: «إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة».

وقد رغّب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله، ورأوا أن الله تعالى مَنَّ على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانًا فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿هُوَ الذى أيدكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلفَ بَيْن قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْض جَمِيعًا مَا ألفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَينهم﴾[٣].

وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى: سعيد بن المسيب، وعبد الله بن المبارك وغيرهما.

---

(١) رواه النسائى والترمذى.
(٢) آية رقم ١٠٣ من سورة آل عمران.
(٣) آية رقم ٦٣ من سورة الأنفال.

وفائدة الصحبة: أنها تفتح مسامّ الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض.

قيل: أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات، ويُتَصلَّب الباطن برزين العلم، ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات، ثم التخلّص منها بالإيمان، ويقع بطريق الصحبة والأخوة والتعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب وتستروح الأرواح بالتشامّ، ونتفق فى التوجّه إلى الرفيق الأعلى، ويصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام.

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ «المؤمن كثير بإخوانه».

وقال تعالى مخبرًا عمن لا صديق له: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1].

والحميم فى الأصل: الهميم، إلاّ أنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجها، إذ هما من حروف الحلق.

والهميم: مأخوذ من الاهتمام، أى: يهتم بأمر أخيه، فالاهتمام بمهم الصديق حقيقة الصداقة.

وقال عمر: إذا رأى أحدكم ودًّا من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك.

وقد قال القائل:

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: يا داود، مالى أراك منتبذًا وحدك؟ قال: إلهى، قَلَيتُ الخلق من أجلك. فأوحى الله إليه: ياداود، كن يقظانًا مرتادًا لنفسكِ إخوانًا، وكل خِدْن لايوافق على مسرتى فلا تصحبه، فإنه عدو يقسِّى قَلبك ويباعدك منى.

وقد ورد فى الخبر «إنَّ أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، فالمؤمن آلف مألوف».

وفى هذا دقيقة، وهى: أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفًا مألوفًا؛ فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلى. وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتَمَّ معرفة ويقينا، وأوزن عّقلاً، وأتَمَّ أهلية واستعدادًا.

وكان أوفر الناس حظًا من هذا الوصف الأنبياء، ثم الأولياء.

---

(١) من آية ١٠٠ من سورة الشعراء.

وأتمُّ الجميع فى هذا : نبينا صلوا الله وسلامه عليه.

وكل من كان من الأنبياء أتمُّ ألفةَ كان أكثر تبعًا.

ونبينا ﷺ كان أكثرهم ألفةً وأكثرهم تبعًا وقال: «تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[1].

وقد نبّه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ ، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف.

ون كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء.

ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة فى أول أمره، وكان يخلو في غار حراء، ويتحنث الليالى ذوات العدد، وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفًا مألوفًا، وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف، فتركوا العزلة طلبًا لهذه الفضيلة. وهذا خطأ.

وسرُّ طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتَمُّ من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا فى أوّل الباب: أنَّ فى الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف الأعم؛ فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح، فإذا وفّوا التصفية حقّها اشرأبت الأرواح إلى جنسها بالتألّف الأصلى الأوّلى، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مُصَفّاة. واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح، وظهرت صفة الجبلة من الألفة المكملة آلفةً مألوفةً فصارت الألفة من أهم الأمور عند من يألف فيؤلف.

ومن أدلّ الدليل على أن الذى اعتزل آلف مألوف، حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذمَّ العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبًا فيها فى وقتها، والصحبة مرغوبًا فيها فى وقتها.

قال محمد بن الحنفية - رحمه الله - : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد فى معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له منه مخرجًا.

---

(١) رواه الطبرانى والخطيب البغدادى.

(٢) من آية ١٥٩ من سورة آل عمران.

وكان بشر بن الحارث يقول: إذا قصرَّ العبد فى طاعة الله سلب الله تعالى من يؤنسه، فالأنيس بهيئة الله للصادقين رفقًا من الله تعالى، وثوابًا للعبد مُعَّجلا، والأنيس قد يكون مفيدًا كالشيخ، وقد يكون مستفيدًا كالمريدين.

فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس؛ فإن كان قاصرًا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به، وإن كان غير قاصر يُقيِّضُ الله تعالى من يؤنسه من المريدين، وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله، ومنه الله، وفى الله.

وروى عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «المتحابون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة، مشرفون على أهل الجنة، يضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، فيقول أهل الجنة: انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله عز وجل، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم: هؤلاء المتحابون فى الله عزّ وجل»[1].

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ: إنّى أحبك فى الله.

فقال له: أبشر.. ثم أبشر.. ثم أبشر؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس، ولايفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال ﷺ: «المتحابون فى الله عزّ وجل».

وروى عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجلّ: حقّت محبتى للمتحابين فىّ والمتزاورين فىّ والمبتاذلين فىّ، والمتصادقين فىّ»[2].

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة، قال أخبرنا أحمد بن الحسين ابن خيرون، قال: أخبرنا أبو عبد الله، أحمد بن عبد الله المحاملى، قال أخبرنا القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربى، قال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) ذكره الطبرانى.

«ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟. قالوا: وما هو؟ قال ﷺ: إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها الحالقة»[1].

وبإسناد إبراهيم الحربى، عن عبد الله بن عمر عن أبى أسامة، عن عبد الله بن الوليد، عن عمران بن رباح قالت: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت أبا هريرة يقول الخبر، وفى الخبر تحذير عن البغضة، وهو: أن يجفو المختلى الناس مقتًا لهم وسوء ظن بهم، وهذا خطأ، وإنما يريد أن يخلو مقتًا لنفسه، وعلمًا بما فى نفسه من الآفات، وحذرًا على نفسه من نفسه، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شرّه، فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد.

والإشارة بالحالقة يعنى: أن البغضة حالقة للدين؛ لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت.

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح، بإسناده.. إلى إبراهيم الحربىّ، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان وقال: إن لله تعالى مَلَكًا نصفه من نار ونصفه من ثلج.. وإن من دعائه: اللهمّ فكما ألّفت بين هذا الثلج وهذه النار، فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج، ألّف بين قلوب عبادك الصالحين.

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ فى وقته العزيز بقاب قوسين فى وقت لا يسعه فيه شىء للطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك المقام العزيز وقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة، وعزيمتهم فى التواصل فى الدنيا والآخرة جازمة.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو أن رجلاً صام النهار وقام النهار، وتصدق، وجاهد ولم يحب فى الله ولم يبغض فى الله ما نفعه ذلك.

أخبرنا رضى الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة، إن لم يكن سماعًا، قال: أخبرنا أبو المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى، قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول: سمعت عبد الله بن المعلم يقول: سمعت أبا بكر التلمسانى يقول: أصحبوا مع الله، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله، لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله.

---

(١) متفق عليه.

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال: أخبرنا عمر بن أحمد الصفار النيسابورى إجازة، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى، قال: سمعت أبا نصر الأصفهانى يقول: سمعت أبا جعفر الحداد يقول: سمعت على بن سهل يقول: الأنس بالله تعالى أن تَستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله.

وقد نبّه القائل نظمًا على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة، وفائدتهما، وما يحذر فيهما بقوله:

وحدة الإنسان خيرٌ … من جليس السوء عنده

وجليس الخير خيرٌ … من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون

فى أداء حقوق الصحبة والأخوّة فى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَق وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(٢).

وقال فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(٣).

وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة، فمن اختار صحبة أو أخوّة فأدّبه فى أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرّع، ويسأل البركة فى الصحبة، فإنه يفتح على نفسه بذلك إمّا بابًا من أبواب الجنة، وإمّا بابًا من أبواب النار، فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيرًا فهو باب من أبواب الجنة. قال تعالى ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

وقيل: إن أحد الأخوين فى الله تعالى يقال له: ادخل الجنة، فيسأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يُعطَى أخوه مثل منزلته. فإن قيل له: لم يكن يعمل مثل عملك. فيقول: إنى كنت أعمل لى وله. فَيعطى جميع ما يسأل لأخيه، ويرفع أخوه إلى درجته.

وإن فتح الله عليهما بالصحبة شرًّا، فهو باب من أبواب النار، قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾(٥).

وإن كانت الآية قد وردت فى قصة مشهورة، ولكن الله تعالى نبّه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله.

واختيار الصحبة والأخوة اتفاقًا من غير نية فى ذلك، وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد، والمنافع والمضار.

---

(١) آية رقم ٢ من سورة المائدة.

(٢) آية رقم ١٧ من سورة البلد.

(٣) آية رقم ٢٩ من سورة الفتح.

(٤) آية رقم ٦٧ من سورة الزخرف.

(٥) آية رقم ٢٨ من سورة الفرقان.

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى كلام له: وهل يفسد الناس إلا الناس؟!

فالفساد بالصحبة متوقع، والصلاح متوقع، وما من هذه سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى، وصدق الاختيار وسؤال البركة، والخيرة فى ذلك وتقديم صلاة الاستخارة ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل، وكل عمل يحتاج إلى النية، وإلى حسن الخاتمة. وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل «سبعة يظلهم الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه.. فمنهم: اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه» إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول.

قيل: ما حسد الشيطان متعاونين على برٍّ حَسدَه متآخين فى الله، متحابيْن فيه؛ فإنه يجهد نفسه ويحث قَبيله على إفساد ما بينهما.

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوّة.

والأخوة فى الله تعالى مواجهة، قال الله ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1] ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءًا، أو كره منه شيئًا ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فما واجهه، بل استدبره.

قال الجنيد رحمه الله – ما تواخى اثنان فى الله، واستوحش أحدهما؛ إلا لعلّة فى أحدهما.

فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال. وما كان لله فالله مطالِب بالصفاء فيه، وكل ما صفا دام. والأصل فى دوام صفائه عدن المخالفة، قال رسول الله ﷺ «لا تُمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تِعده وعدًا فتخلفه»[2].

قال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنى كنت معهم على نفسى.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى إجازة، قال: أخبرنا عمر بن أحمد الصفار، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى، قال: سمعت عبد الله الدارانى يقول: سمعت أبا عمرو الدمشقى الرازى يقول: سمعت أبا عبد الله بن الجلاد يقول وقد سأله رجل: على أىّ شرط أصحب الخلق؟

---

(١) آية رقم ٤٧ من سورة الحجر.

(٢) رواه البزار.

فقال: إن لم تبرّهم فلا تؤذهم، وإن لم تَسرّهم فلا تسؤهم.

وبهذا الإسناد قال أبو عبد الله: لا تضيّع حقَّ أخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقًا لم يضيّعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه.

ومن حقوق الصحبة: أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير.

وقيل: كان لبعضهم زوجة، وكان يعلم منها ما يكره، فكان يقال له استخبارًا عن حالها، فيقول: لا ينبغي للرجل أن يقول فى أهله إلا خيرًا، ففارقها وطلقها، فاستخبر عن ذلك، فقال: امرأةٌ بَعدُت عنّى، وليست منّى فى شىء، كيف أذكرها؟

وهذا من التخلّق بأخلاق الله تعالى، إنه سبحانه يُظهر الجميل ويستر القبيح.

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع، فهل يُبغضه أم لا؟

اختلف القول فى ذلك: كان أبو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته.

وقال غيره: لا يبغض الأخُ بعد الصحبة، ولكن يبغض عمله، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] ولم يقل إنى برىء منكم.

وقيل: كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء، وكان أبو الدرداء يُميّزه على غيره، فابتُلى الشاب بكبيرة من الكبائر، وانتهى إلى أبى الدرداء ما كان منه، فقيل له: لو أبعدتَه وهجرته!!

فقال: سبحان الله، لا يُترك الصاحب بشىء كان منه.

قيل: الصداقة لُحمة كلُحمة النسب.

وقيل لحكيم مرّة: أيُما أحبُ إليك: أخوك أو صديقك؟ فقال:

إنما أحبُّ أخى إذا كان صديقى.

وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهرًا وباطنًا، وأمَّا الملازمة باطنًا إذا وقعت المباينة ظاهرًا فتختلف باختلاف الأشخاص، ولا يطلق القول فيه إطلاقًا من غير تفصيل؛ فمن الناس من كان تغيّره رجوعًا عن الله وظهور حكم سوء السابقة، فيجب بغضه، وموافقة الحق فيه.

---

(١) آية رقم ٢١٦ من سورة الشعراء.

ومن الناس مَن كان تغيّره عَثرةً حدثت، وفترة وقعت يُرجى عودُه، فلا ينبغى أن يُبغض، ولكن يُبغض عملهُ فى الحالة الحاضرة، ويُلحظ بعين الودّ منتظرًا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح، فقد ورد أن النبى ﷺ، لمّا شتم القومُ الرجلَ الذى أتى بفاحشة، قال: «مَه»، وزجرهم بقوله «ولا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم»[1].

قال إبراهيم النخعىّ: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يُذنبه؛ فإنه يركبه اليوم ويتركه غدًا.

وفى الخبر: «اتقوا زلّة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فَيئته».

وروى أن عمر – رضى الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال: ما فعل أخى؟ فقال له: ذاك أخو الشيطان. قال له: «مَـه». قال له: إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر. فقال: إذا أردت الخروج فآذنى. قال فكتب إليه ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾[2] ثم عاتبه تحت ذلك.. وعذله، فلما قرأ الكتاب بكى فقال: صدق الله تعالى.. ونَصح عمر، فتاب ورجع.

وروى أن رسول الله ﷺ رأى ابن عمر يلتفت يمينًا وشمالاً، فسأله، فقال:

يا رسول الله، آخيتُ رجلاً، فأنا أطلبه ولا أراه. فقال «يا عبد الله إذا آخيت أحدًا فاسأله عن اسمه واسم أبيه، وعن منزله، فإن كان مريضًا عدته، وإن كان مشغولاً أعنته»[3].

وكان يقول ابن عباس، رضى الله عنهما: ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثًا من غير حاجة تكون له فعلمت ما مكافأته فى الدنيا.

وكان يقول سعيد بن العاص: لجليسى علىّ ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدّث أقبلتُ عليه، وإذا جلس أوسعتُ له. وعلامة خلوص المحبة لله تعالى: أن لا يكون فيها شائبة حظٍ عاجل: من رفق، أو إحسان؛ فإنّ ما كان معلولاً يزول بزوال علته، ومن لا يستند فى خلّته إلى علّة يُحكم بدوام خَلّته.

---

(١) رواه الديلمى.

(٢) آية ١ ، ٢ ، ٣ من سورة غافر.

(٣) رواه الطبرانى.

ومن شرط الحبّ في الله تعالى إيثار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا. قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم وَلاَ يَجِدُونَ فى صُدُورهِمْ حَاجَةً ممَّا أوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كان بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] فقوله تعالى: ﴿لاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورهِمْ حاجَةً مِمَّا أوتُوا﴾ أى: لا يحسدون إخوانهم على مالهم.وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة، أحدهما: انتزاع الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا.

والثانى: الإيثار بالمقدور. وفى الخبر عن سيد البشر ﷺ: «المرء على دين خليله، ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه».

وكان يقول أبو معاوية الأسود: إخوانى كلهم خير منى. قيل: وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لى الفضلَ عليه، ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى.

ولبعضهم نظمًا:

تذلل لمن إن تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله

وجانب صداقة من لم يزل ... على الأصدقاء يرى الفضْل له

---

(١) آية رقم ٩ من سورة الحشر.

الباب الخامس والخمسون

فى آداب الصّحبة والأخوّة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة، فقال: حفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادّخار، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا.

فمن أدبهم: التغافل عن زلل الإخوان، والنصح فيما يجب فيه النصيحة، وكتم عيب صاحبه، واطلاعه على عيبٍ يُعلم منه.

قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيوبى.

وهذا فيه مصلحةٌ كلية تكون للشخص ممن يُنبهه على عيوبه.

قال جعفر بن يرقان: قال لى ميمون بن مهران: قل لى فى وجهى ما أكره؛ فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكرهه؛ فإن الصادق يحب من يَصْدقُه، والكاذب لا يحب الناصح، قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ لاَ تُحِبونَ النَّاصِحينَ ﴾ [1] والنصيحة ما كانت فى السرّ.

ومن آداب الصوفية: القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم؛ فبذلك يظهر جوهر الفقير.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة، فقال له العباس: قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده. فقال: إذن لا يردّه إلى مكانه غير يدك، ولا يكون لك سُلَّم غير عاتق عمر. فأقامه على عاتقه وردّه إلى موضعه.

ومن أدبهم: أن لا يرون لنفسهم ملكًا يختصون به، قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول «نَعْلى» أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى المظفر، عن والده أبى القاسم القشيرى قال: سمعت أبا حاتم الصوفى، قال: سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك. وقال أحمد بن القلانسى: دخلت على قوم من الفقراء يومًا بالبصرة فأكرمونى وبجلونى، فقلت يومًا لبعضهم: أين إزارى؟. فسقطت من أعينهم.

---

(١) آية ٧٩ من سورة الأعراف.

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسانٌ شارطه على ثلاثة أشياء: أن تكون الخدمة والأذان له، وأن تكون يدُه فى جميع ما يفتح اللهم عليهم من الدنيا كيدِه، فقال رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على هذا، فقال: أعجبنى صدقك وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين، ويعمل فى الحصاد، وينفق على أصحابه.

وكان من أخلاق السلف: أن كل من احتاج إلى شىء من مال أخيه استعمله من غير مؤاخذه. قال الله تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم﴾ [1] أى مشاع هم فيه سواء.

ومن أدبهم: لأنهم إذا استثقلوا صاحبًا يتهمون أنفسهم، ويتسببون فى إزالة ذلك من بواطنهم؛ لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة[2] فى الصحبة.

قال أبو بكر الكتانى: صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلاً، فوهبت له شيئًا بنيّة أن يزول ثقله من قلبى، فلم يزُل، فخلوتُ به يومًا وقلت له: ضع رجلك على خدّى فأبى. فقلت له: لابدّ من ذلك. ففعل، فزال ما كنت أجده فى باطنى.

قال الرقىّ: قصدت من الشام إلى الحجاز، حتى سألتُ الكتّانىّ عن هذه الحكاية.

ومن أدبهم: تقديم من يعرفون فضله والتوسعةُ له فى المجلس، والإيثار بالموضع.

روى أن رسول الله ﷺ كان جالسًا فى صُفَّةٍ ضيقة، فجاءه قوم من البدريين، فلم يجدوا موضعًا يجلسون فأقام رسول الله ﷺ مَن لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ [3].

وحكى أن علىّ بن بندار الصوفى ورد على أبى عبد الله بن خفيف زائرًا، فتماشيا، فقال له أبو عبد الله: تقدّم.

فقال: بأى عذر؟ فقال: بأنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُه.

ومن أدبهم: ترك صحبة مَن هَمُّه شىء من فضول الدنيا. قال الله تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلا الْحَياة الدُّنيا ﴾ [4].

ومن أدبهم: بذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف. قال أبو عثمان الحيرى: حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك، ولا تطمع فى ماله، وتنصفه من نفسك،

---

(١) آية رقم ٣٨ من سورة الشورى.

(٢) الوليجة: بطانة الإنسان وخاصته يقال هو: وليجتهم أى أنه لصيق بهم.

(٣) آية رقم ١١ من سورة المجادلة.

(٤) آية رقم ٢٩ من سورة النجم.

ولا تطلب منه الإنصاف، وتكون تبعًا له، ولا تطمع أن يكون تبعًا لك، وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك.

ومن أدبهم في الصحبة: لين الجانب، وترك ظهور النفس بالصوّلة.

قال أبو علي الروزبادي: الصوّلةُ على من فوقك قحةٌ، وعلى مَن مثلِك سوءُ أدب، وعلى من دونك عجز.

ومن أدبهم: أن لا يجرى في كلامهم: لو كان كذا.. لم يكن كذا.. وليت كان كذا.. وعسى أن يكون كذا؛ فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضًا.

ومن أدبهم في الصحبة: حذر المفارقة، والحرص على الملازمة.

قيل: صحب رجل رجلاً.. ثم أراد المفارقة، فاستأذن صاحبه، فقال: بشرط ألاّ تصحب أحدًا إلا إذا كان فوقنا وإن كان فوقنا أيضًا فلا تصحبه لأنك صَحبتنا أولاً. فقال الرجل: زال عن قلبى نيّة المقارنة ومن أدبهم: التعطّف على الأصاغر.

قيل: كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد ويُطعم الأصحاب، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام، وربّما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل، فقالوا ليلةً: تعالوا نأكل فطورنا دونه، حتى يعود بعد هذا يسرع!! فأفطروا وناموا، فرجع إبراهيم فوجدهم نيامًا، فقال: مساكين، لعلهم لم يكن لهم طعام.. فعمه إلى شيء من الدقيق فعجنه، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعًا محاسنه[1] على التراب. فقالوا له في ذلك، فقال: قلت لعلكم لم تجدوا فطورًا فنمتم. فقالوا: انظروا بأى شيء عاملناه، وبأى شيء يعاملنا.

ومن أدبهم: أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين؟ ولم؟ وبأى سبب؟.

قال بعض العلماء: إذا قال الرجل للصاحب: قم بنا، فقال: إلى أين؟ فلا تصاحبه.

وقال آخر: من قال لأخيه أعطني من مالك، فقال: كم تريد؟ ما قام بحق الإخاء.

وقد قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم: أن لا يتكلفوا للإخوان.

قيل: لما ورد أبو حفص العراق تكلّف له الجنيد أنواعًا من الأطعمة؛ فأنكر ذلك أبو حفص، وقال:

صير أصحابى مثل المخانيث يُقدّم لهم الألوان!!

---

(١) المقصود هنا وجهه ويداه..

والفتوة عندنا: ترك التكلّف، وإحضار ما حضر؛ فإنّ بالتكلّف ربما يؤثر مفارقة الضيف. ويترك التكلّف يستوى مقامه وذهابه.

ومن أدبهم فى الصحبة: المداراة، وترك المداهنة.

وتشتبه المداراة بالمداهنة. والفرق بينهما: أن المداراة ما أدرت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه، واحتملت منه ما تكره.

والمداهنة: ما قصدتَ به شيئًا من الهوى من طلب حظٍ أو إقامة جاه.

ومن أدبهم فى الصحبة: رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط.

نقل عن الشافعى رحمه الله أنه قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط.

ومن أدبهم: ستر عورات الإخوان.

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا فكشف الريح عنه ثوبه؟.

قالوا: نستره ونغطيه. قال: بل تكشفون عورته.

قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال: أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويُشيعها بأعظم منها.

ومن أدبهم: الاستغفار للإخوان بظهر الغيب، والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم.

حكى أن أخوين ابتُلى أحدهما بهوى فأظهر[1] عليه أخاه فقال: إنى ابتليت بهوى، فإن شئت أن لا تعقد على محبتى لله فأفعل، فقال: ما كنت لأحلّ عقد إخائك لأجل خطيئتك.

وعقد بينه وبين الله عقدًا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله من هواه.

وطوى أربعين يومًا كلما يسأله عن هواه يقول: مازال.

وبعد الأربعين لأخبره أن الهوى قد زال. فأكل وشرب.

ومن أدبهم: أن لا يُحوجوا صاحبهم إلى المداراة، ولا يلجئوه إلى الاعتذار، ولا يتكلّفوا للصاحب ما يشق عليه.

---

(١) أظهره على السرّ أى أطلعه.

بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم.

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: شرّ الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة أو الجأك إلى اعتذار أو تكلّفت له.

وقال جعفر الصادق: أثقل إخوانى علىّ من يتكلّف لى، وأتحفظ منه، وأخفّهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى.

فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة. والحكايات فى ذلك يطول نقلها.

وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكىّ رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئًا كثيرًا، فقد أودع كتابه كل شىء حسن من ذلك.

وحاصل الجميع أن العبد ينبغى أن يكون لمولاه[1] لا لنفسه، وإذا صاحب شخصًا تكون صحبته إيّاه لله تعالى، وإذا صحبه لله يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى، وكلّ من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله علمًا بمعرفة النفس وعيوبها ويعرّفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب، ويُوقفه من أداء الحقوق على بصيره ويفقهه فى ذلك كله، ولا يفوته شىء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق.

فكلُّ تقصير يُوجد من خبث النفس، وعدم تزكيتها، وبقاء صفاتها عليه.

فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة، وبالتفريط أخرى. وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق.

والحكايات والمواعظ والآداب، وسماعها لا يعمل فى النفس زيادة تأثير، ويكون كبئر يقلّب فيه الماء من فوقه، فلا يمكث فيه ولا ينتفع به.

وإذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياة، وتفقهت، وعلمت، وتأدّت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

---

(١) وزادت بعض النسخ (العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه.. إلخ).

الباب السادس والخمسون

فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى، قال: أخبرنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينى، قال: أخبرنا كريمة المروزية قالت: أخبرنا أبو الهيثم الكشمهينى قال: أخبرنا أبو عبد الله الفربرى، قال: أخبرنا أبو عبد الله البخارى قال: حدثنا عمر بن حفص قال: حدثنا أبى، قال حدثنا الأعمش، قال: حدثنا زيد بن وهب قال: حدثنا عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما: نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات فيكتب: عمله، وأجله، ورزقه، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار» [١]

وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِين ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرار مَكين﴾ [٢] أى: حريز، لاستقرارها إلى بلوغ أمدها، ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ ثُمَّ أنشأنَاهُ خَلْقًا آخر﴾ [٣] قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه.

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام. والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام. وقد عظّم الله شأن الروح، وأسجل على الخلق بقلّة العلم حيث قال: ﴿ وَمَا أوتيتُمْ منَ الْعلم إلا قَليلاً﴾ [٤].

وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال: ﴿ وَلَقَدْ كرَّمْنَا بَنى آدَمَ﴾ [٥].

---

(١) متفق عليه

(٢) آية رقم ١٣ من سورة المؤمنون.

(٣) آية رقم ١٤ من سورة المؤمنون.

(٤) آية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

(٥) آية رقم ٧٠ من سورة الإسراء.

وروى أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة: يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال: وعزتّى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان.

ومع هذه الكرامة، واختياره سبحانه وتعالى إيّاهم على الملائكة لّما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم، وقال: ﴿وَيَسْألونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الروح مِن أمْرِ رَبى...﴾ الآية [١].

قال ابن عباس: قالت اليهود للنبى ﷺ: أخبرنا ما الروح؟ وكيف تعذب الروح فى الجسد وإنما الروح من أمر الله؟

ولم يكن نزل إليه فيه شىء. فلم يجبهم.. فأتاه جبريل بهذه الآية.

وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة، فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه..

لا جرم، لّما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطلعة إلى الفضول، المتشوفة إلى المعقول، المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه، والمتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه، وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت فى التيه، وتنوّعت آراؤها فيه، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شىء كالاختلاف فى ماهية الروح.

ولو لزمت النفوس حدّها، معترفةً بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى.

فأمّا أقاويل من ليس متمسكًا بالشرائع فتننزه الكتاب عن ذكرها، لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلّت عن الرشاد وطبعت على الفساد، ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء، فهم كما قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ أعْيُنهمْ فِى غطَاء عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لاَ يَستطيعُونَ سَمْعًا﴾[٢] ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أكنَّة مِماّ تَدْعُونَا إليهِ وفِى آذانِناَ وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وبَيْنكَ حِجَابٌ﴾[٣].

---

(١) آية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

(٢) آية رقم ١٠١ من سورة الكهف.

(٣) آية رقم ٥ من سورة فصلت.

فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا، فأصروا على الجهالات، وحجبوا بالمعقولِ عن المأمول، والعقل حجةُ الله تعالى يهدى به قومًا ويضل به قومًا آخرين، فلم ننقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه.

أما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا فى الروح، فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد، لا باستعمال الفكر، حتى تكلّم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضا، وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبى ﷺ.

وقد قال الجنيد: الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه، ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من «موجود»، ولكن نجعل للصادقين محملاً لأقوالهم وأفعالهم.

ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة، حيث حرّم تفسيره وجوز تأويله. إذ لا يسع القول فى التفسير إلاّ نقْلٌ، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل، وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فللقول فيه وجه ومحمل.

قال أبو عبد الله النباجّى: الروح جسم يلطف عن الحس، ويكبر عن اللمس، ولا يعبَّر عنه بأكثر من «موجود» وهو وإن منع عن العبارة، فقد حكم بأنه جسم، فكأنه عُبِّر عنه.

وقال ابن عطاء الله: خلق الله الأرواح قبل الأجساد، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى الأرواح ﴿ثُمَّ صَوَّرناكُم﴾ يعنى الأجساد.

وقال بعضهم: الروح لطيف قائم فى كثيف، كالبصر جوهر لطيف، قائم فى كثيف، وفى هذا القول نظر.

وقال بعضهم: الروح عبارة، والقائم بالأشياء هو الحق. وهذا فيه نظر أيضا، إلاّ أن يحمل على معنى الإحياء. فقد قال بعضهم: الإحياء صفة المحيى، كالتخليق صفة الخالق وقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبى﴾ [1] . وأمره كلامه.

وكلامه ليس بمخلوق: أى صار الحىّ حيًّا بقوله: كن حيًّا.

وعلى هذا لا يكون الروح معنًى فى الجسد.

فمن الأقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه.

---

(١) آية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله ﷺ فقال قوم: هو جبرائيل.

ونقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ولكل وجه منه سبعون ألف لسان، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة.

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: أن الروح خلقٌ من خلق الله، صُورهم على صورة بنى آدم، وما نزل من السماء ملَك إلا ومعه واحد من الروح.

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان، وليسوا بناسٍ.

وقال مجاهد: الروح على صورة بنى أدم، لهم أيد، وأرجل، ورءوس، يأكلون الطعام وليسوا بملائكة.

وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبْلُع السموات والأرضين السبع فى لقمة لفعل، صورةُ خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش، والملائكة معه فى صفّ واحد. وهو ممن يشفع لأهل التوحيد. ولو لا أن بينه وبين الملائكة سترًا من نور لحرق أهل السموات من نوره.

فهذه الأقاويل لا تكون إلاّ نقلاً وسماعًا، بَلَغهم عن رسول الله ﷺ ذلك.

وإذا كان الروح المسئول عنه شيئًا من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد، فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح، ولا يكون الكلام فيه ممنوعًا.

وقال بعضهم: الروح لطيفة تسرى من الله تعالى إلى أماكن معروفة لا يعبّر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره.

وقال بعضهم: الروح لم يخرج من «كن» لأنه لو خرج من «كن» كان عليه الذل، قيل: فمن أى شيء خرج؟ قال: من بين جماله وجلاله سبحان وتعالى بملاحظة الإشارة خصًا بسلامه، وحَيّاها بكلامه، فهى معتقة من ذلّ «كن»

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح: مخلوقة هى؟ قال: نعم، ولولا ذلك ما أقررتْ بالربوبية حيث قال: (بلى)، والروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلاً لا حجة عليه ولا له.

وقيل: إنها جوهر مخلوق، ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر، وأنورها، وبها تتراءى المغيبات، وبها يكون الكشف لأهل الحقائق.

وإذا حجبت الروح عن مراعاة السِّير أساءت الجوارح الأدب، ولذلك صارت الروح بين تجلٍ واستتار، وقابض ونازع، وقيل: الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء.

وقيل: الأرواح أقسام: أرواح تجول فى البرزخ، وتُبصر أحوال الدنيا والملائكة، وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين، وأرواحٌ تحت العرش، وأرواح طيارة إلى الجنان، وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعى إلى الله أيام الحياة.

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان، قال: أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض، حتى يردّها إلى جسدها.

وقيل: إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا، وتحدثوا، وتساءلوا، ووكل الله بها ملائكة، تعرض عليها أعمال الأحياء، حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا: نعتذر إلى الله ظاهرًا عنه؛ فإنه لا أحد أحبُّ إليه العذرَ من الله تعالى.

وقد ورد فى الخبر عن النبى ﷺ: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضًا وإشراقًا فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم»[1].

وفى خبر آخر: «إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى، فإن كان حسنًا استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها[2] أعيان فى الجسد، وليست بمعان وأعراض.

سئل الواسطى: لأى علّة كان رسول الله ﷺ أحلم الخلق؟

قال: لأنه: خُلِق روحُه أولاً، فوقع له صحبة التمكين والاستقرار، ألاّ تراه يقول: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد» أى: لم يكن روحًا ولا جسدًا.

وقال بعضهم: الروح خلق من نور العزة، وإبليس من نار العزّة، ولهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[3] ولم يدر أن النور خير من النار، فقال بعضهم: قَرن الله تعالى

---

(١) رواه الترمذى ووثقه ابن حبان

(٢) أى الروح.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢.

العلمَ بالروح؛ فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء، وهذا فى علم الله، لأن عِلم الخلقِ قليل لا يبلغ ذلك.

والمختار عند أكثر متكلمى الإسلام: إن الإنسانية والحيوانية عرضان خُلقا فى الإنسان، والموت يعدمهما..

وأن الروح هى الحياة بعينها، صار البدن بوجودها حيًا: وبالإعادة إليه فى القيامة يصير حيًا.

وذهب بعض متكلمى الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر، وهو اختيار «أبى المعالى الجوينى».

وكثير منهم مال إلى أنه عَرض، إلاَّ أنه ردهم عن ذلك الأخبارُ الدالة على أنه جسم؛ لِما ورد فيه من العروجِ والهبوط والتردد فى البرزخ؛ فحيث وُصف بأوصافٍ دلَّ على أنه جسم؛ لأن العَرَض لا يوصف بأوصاف؛ إذ الوصف معنى، والمعنى لا يقوم بالمعنى. واختار بعضهم أنه عرض.

سئل ابن عباس رضى الله عنهما، قيل: أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان؟ فقال: أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان، قيل له: فأين تذهب الجسوم إذا بليت؟ قال: فأين يذهب لحمها إذا مرضت؟!

وقال بعض من يُتهم بالعلوم المردودة المذمومة ويُنسب إلى الإسلام: الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف.

وقال بعضهم: إنها إذا فارقت البدن تحلّ معها القوة الوهمية بتوسط النطقية، فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات، لأن تجردها من هيئات البدن عند المفارقة غير ممكن، وهى عند الموت شاعرة بالموت، وبعد الموت متخلية بنفسها مقبورة، وتتصور جميع ما كانت تعتقده فى حال الحياة. وتُحِسُّ بالثواب والعقاب فى القبر، وقال بعضهم: أسلم المقالات أن يقال: الروح شىء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن ما دام متصلاً به، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد، كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت؛ فإن الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر فى شعاع الشمس.

ولمّا رأى المتكلمون أنه يقال لهم: الموجودات محصورةٌ: قديم، وجسم، وجوهر، وعرض، فالروح من أىّ هؤلاء؟.

فاختار قوم منهم أنه عرض، وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا، واختار قوم أنه قديم لأنه أمر، والأمر كلام، والكلام قديم.. فما أحسن الإمساكَ عن القول فيما هذا سبيله.

وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد.. وهكذا النفوس؛ لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير، ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه الملك فيُلْهم الخير عند ذلك، وتتحرك للشرِّ ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب، فيرى الشيطان الظلمة فَيُقْبل بالإغواء.

وحيثُ وجدتُ أقوالُ المشايخ تشير إلى الروح أقول: ما عندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به؛ إذ ميلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك، فأقول والله أعلم:

الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر، والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق، والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده، والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحسّ والحركة، ينبعث من القلب، أعنى بالقلب هاهنا: المضغة اللحمية المعروفة الشكل، المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب، وهذه الأرواح لسائر الحيوانات، ومنه تفيض قوى الحواس، وهو الذى قوامه بإجراء سنّة الله بالغذاء غالبًا، ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط، ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنّس الروح الحيوانى وما بين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى فصار نَفسًا محلاً للنطق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتقوَاهَا﴾[1] فتسويتها بورود الروح الإنسانى عليها، وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى وصار تكونّ النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر، كتكوّن حواء من آدم فى عالم الخلق.

وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إليها﴾[2] فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفْسًا، وتكوّن من

---

(١) آية رقم ٨ من سورة الشمس.

(٢) آية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

سكون الروح إلى النفس القلبُ، وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق. وهذه اللطيفة من عالم الأمر.

وكان تكوّن القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكوّن الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق، ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكوّن القلب، فمن القلوب قلب متطلّع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه، وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلب مصفّح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان. فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدّها القيح والصديد، فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها».

والقلب المكنوس ميال إلى «الأم» التى هى النفس الأمارة بالسوء.

ومن القلوب قلب متردد فى ميله إليها، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة.

والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البارّ، والزوج للزوجة الصالحة، وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة، فمنكوس من وجه، ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه؛ إذ لابد له منهما.

وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل؛ فمن قائل إن محله الدماغ، ومن قائل إن محله القلب، كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك، واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البارّ وإلى تارة وإلى العاق أخرى، وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق، فإذا رؤى فى تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب.

فالروح العلوى يهم بالارتفاع إلى مولاه شوقًا وحنوا وتنزهًا عن الأكوان، ومن الأكوان: القلب والنفس فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنوّ الولد الحنين البارّ إلى الوالد، وتحنّ النفس إلى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها، وإذا حنَّتْ النفس ارتقت من الأرض، وانزوت عروقها الضاربة فى العالم السفلى، وانطوى هواها، وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا، وتجافت عن دار الغرور، وأنابت إلى دار الخلود وقد تخلد النفس

التى هى الأم إلى الأرض بوضعها الجبلىّ، لتكوّنها من الروح الحيوانى المجنّس ومستندها فى ركونها إلى الطبائع التى هى أركان العالم السفلى. قال الله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لرفعناه بِهَا وَلَكِنَّه أخْلَد إلى الأرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[1].

فإذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميَّال إلى الوالدة المعوّجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم.

وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب لِما جُبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده، فعند ذلك يتخلّف عن حقيقة القيام بحق مولاه، وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم﴾.

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان: أين موضع العقل منك؟ قال: القلب؛ لأنه قالب الروح والروح قالب الحياة.

وقال أبو سعيد القرشىّ: الروح روحان: روح الحياة، وروح الممات؛ فإذا اجتمعا عقل الجسم وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحىّ ميتًا، وروح الحياة ما به مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما.

وقال بعضهم: الروح نسيم طيّب يكون به الحياة، والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات.

ويقال: فلان حارُّ الرأس. وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى ما يظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة، وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها وتبديلها، والأفعال الرديئة تزال، والأخلاق الرديئة تبدّل.

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى، قال: أخبرنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد «الفرخزادى» قال أخبرنا أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال: أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيانى قال حدثنا محمد بن اليقطينى، قال حدثنا أحمد بن عبدالله بن يزيد العقيلى، قال حدثنا صفوان بن صالح، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، عن أبى لُهيعة عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ

---

(١) آية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[١] وقف، ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها، وزكّها أنت خير من زكّاها».

وقيل: النفس لطيفة مودعة فى القالب، منها الأخلاق والصفات المحمودة، كما أن العّين محل الرؤية، والأذنَ محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق، وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة، والروح محل الأوصاف المحمودة، وجميعُ أخلاق النفس وصفاتها من أصلين: أحدهما الطيش، والثانى الشره، وطيشها من جهلها، وشرها من حرصها. وشُبِّهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان أمْلَس مُصوّب، لا تزال متحركةً بجبلَّتها ووضعها.. وشُبّهتْ فى حرصها بالفراش الذى يُلقىٍ نفسه على ضوء المصباح، ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه.

فمن الطيش توجد العجلة، وقلةُ الصبر، والصبرُ جوهر العقل، والطيش صفة النفس، وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر؛ إذ العقل يقمع الهوى.

ومن الشره يظهر الطمع والحرص، وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود، فحرص على أكل الشجرة.

وصفات النفس لها أصول من أصل تكوّنها، لأنها مخلوقة من تراب، ولها بحسبه وصف، وقيل وصف الضعف فى الآدمىّ من التراب، ووصف البخل فيه من الطين، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون، ووصف الجهل فيه من الصلصال.

وقيل: قوله (كَالْفَخَّار) فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار فى الفخار؛ فمن ذلك: الخداع، والحيل، والحسد.

فمن عرَف أصول النفس وجبلاّتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها.

فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبِّر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل، وهو رعاية طرفىّ الإفراط والتفريط ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه، ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة.

وكمال إنسانيته يتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك، ثم تنكشف له الأخلاق التى تنازع بها الربوبية، من: الكبر والعزّ، ورؤية النفس، والعجب.. وغير ذلك.

---

(١) آية رقم ٩ من سورة الشمس.

فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية.

والله تعالى ذكر «النفس» فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف:

بالطمأنينة، قال ﴿يَأيتُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾(١).

وسمّاها لّوامة، قال: ﴿لاَ أقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(٢).

وسمّاها أمّارة، فقال: ﴿إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(٣).

وهى نفس واحدة.. ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينة خَلع على النفس خِلع الطمأنينة؛ لأن السكينةَ مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظّ اليقين.

وعند توجّه القلب إلى محل الروح تتوجّه النفس إلى محل القلب، وفى ذلك طمأنينتها.

وإذا انزعجت من مقارِّ جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعةً إلى مقار الطمأنينة فهى لوّامة؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة، ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمّارة بالسوء.

وإذا أقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة، فهى على ظلمتها أمارة بالسوء.

فالنفس والروح يتطاردان؛ فتارة يملك القلب دواعى الروح، وتارة يملكه دواعى النفس.

وأمّا السرّ فقد أشار القوم إليه. ووجدت فى كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف.

وقالوا: السرّ محل المشاهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة.

والسرّ الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله. وإنما المذكور فى كلام الله الروحُ والنفسُ وتنوّع صفاتها، والقلب، والفؤاد، والعقل.

وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكرَ السرّ بالمعنى المشار إليه، ورأينا الاختلاف فى القول فيه، وأشار قوم إلى أنه دون الروح، وقوم إلى أنه ألطف من الروح، فنقول-والله أعلم-:

الذى أسموه سرًا ليس هو بشىء مستقل بنفسه، له وجود وذات كالروح والنفس..

---

(١) آية رقم ٢٧ من سورة الفجر.

(٢) آية رقم ٢ من سورة القيامة.

(٣) آية رقم ٥٣ من سورة يوسف.

وإنما لما صفت النفس وتزكت، انطلق الروح من وثائق ظلمة النفس، فأخذ فى العروج إلى أوطان القرب، وانتزح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعًا إلى الروح، فاكتسب وصفا زائدًا على وصفه، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف، حيث رأوه أصفى من القلب فسموّه سرًّا.

ولّما صار للقلب وصف زائد على وصفه، بتطلعه إلى الروح، اكتسب وصفًا زائدًا فى عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرًّا:

والذى زعموا أنه ألطف من الروح: روح متصفة وصف أخصّ مما عهدوه.

والذى سموه قبل الروح سرًّا: هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه.

وفى مثل هذا التّرقّى من الروح والقلب تترقّى النفس إلى محل القلب، وتنخدع من وصفها فتصير نفسًا مطمئنة ترتد كثيرًا من مردات القلب من قبل. إذ صار القلب يريد ما يريده مولاه، متبرئا عن الحول والقوة والإرادة والاختيار، وعندها ذاق طعم صرف العبودية؛ حيث صار حرًا عن إرادته واختياراته.

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان.

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له اقعد، فقعد، ثم قال له: انطلق فنطق، ثم قال له: اصمت، فصمت، فقال: وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى، وسلطانى، وجبروتى ما خلقت خلقا أحبَّ إلىَّ منك ولا أكرم علىّ منك، بل أعرف، وبك أُحمد، وبك أطاع، وبك آخذ، وبك أُعطى، وإيّاك أعاتب، ولك الثواب وعليك العقاب، وما أكرمتك بشىء أفضل من الصبر»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام «لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقله عقله»[٢].

وسألت عائشة رضى الله عنها النبىّ ﷺ قالت: قلت يا رسول الله: بأى شىء يتفاضل الناس؟ قال: «بالعقل فى الدنيا والآخرة، قالت: قلت: أليس يُجزى الناس بأعمالهم؟ قال: يا عائشة، وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل، فبقدر عقولهم يعملون، وعلى قدر ما يعملون يجزون».

---

(١) رواه الديلمى والطبرانى.

(٢) رواه الترمذى.

وقال عليه الصلاة والسلام «إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى، وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلاً، قيل: وكيف يكون أحسنهما عقلا؟ قال: أورعهما عن محارم الله، وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع».

وقال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتًا، فإن الرجلين يستوى علمهما وبرّهما وصومهما، وصلاتهما، ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذّرة فى جنب أحد..» [1].

وروى عن وهب بن منبه أنه قال: إنى أجد فى سبعين كتابًا أن جميع ما أُعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله ﷺ كهيئة رملةٍ وقعت من بين جميع رمال الدنيا.

واختلف الناس فى ماهية العقل. [والكلام فى ذلك يكثر، ولا نؤثر نقل الأقاويل، وليس ذلك من غرضنا]. فقال قوم: العقل من العلوم؛ فإنّ الخالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل، وليس العقل جميع العلوم، فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل.

وقالوا: ليس من العلوم النظرية، فإن من شرط ابتداء النظر تقدّم كمال العقل، فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها، فإن صاحب الحواس المختلة عاقل، وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية.

وقال بعضهم: العقل ليس من أقسام العلوم؛ لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا. ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلاً.

وقالوا: هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم.

ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى، وهو من أجلّ المشايخ، أنه قال: العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم.

وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل: أنه لسان الروح؛ لأن الروح من أمر الله، وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها، ومنها يفيض نور العقل، وفى نور العقل تتشكل العلوم؛ فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب، وهو بصفته

---

(١) رواه ابن حبان.

منكوس متطلع إلى النفس تارة، ومنتصف مستقيم تارة؛ فمن كان العقل فيه منكوسًا إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء.

ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيَّد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب، واهتدى إلى المكوِّن، ثم عرف الكوْن بالمكوّن، مستوفيًا أقسام المعرفة بالمكوّن والكون، فيكون هذا العقل عقل الهداية.

فما أحبَّ اللّه إقباله فى أمر دلّه على إقباله عليه. وما كرهه اللّه فى أمرٍ دلّه على الإدبار عنه، فلايزال يتبع محابَّ اللّه تعالى ويجتنب مساخطه.

وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغيّ.

وقال بعضهم: العقل على ضربين: ضرب يبصر به أمر دنياه، وضرب يبصر به أمر آخرته. وذكر أن العقل الأول من نور الروح، والعقل الثانى من نور الهداية، فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم، والعقل الثانى موجود فى الموحدين مفقود من المشركين.

وقيل: إنما سُمى العقل عقلاً؛ لأن الجهل ظلمة، فإذا غلب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالاً للجهل.

وقيل: عقل الإيمان مسكنه فى القلب، ومتعمله[1] فى الصدور بين عينى الفؤاد.

والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح — وهو عقل واحد — ليس هو على ضربين، ولكنه إذا انتصب، واستقام تأيّد بالبصيرة، واعتدل، وَوَضع الأشياء فى مواضعها.

وهذا العقل هو الفعل المستضىء بنور الشرع؛ لأن انتصابه واعتداله هَدَاهُ إلى الاستضاءة بنور الشرع، لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية، ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب، بقدرة اللّه وآياته، واستقامة عقله بتأييد البصيرة، فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل، والتى يضيق عنها نطاق العقل؛ لأنها تُستمد من كلمات اللّه التى ينفد البحر دون نفادها.

والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرًا، كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر، ببعضه دون اللسان.

ولهذا المعنى من جَمُد على مجرّد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى من الملك، والملك ظاهر الكائنات.

---

(١) متعمله أى مكان عمله.

ومن استضاء عقله بنور الشرع تـأيّد بالبصيرة فـاطّلع علـى الملكـوت، والملكـوت بـاطن الكائنات، اختُص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول.

وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان: عقل للهداية مسكنه فـي القلـب، وذلـك للمؤمنـين الموقنين ومتعلمه فى الصدر بين عينى الفؤاد.

والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ، ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد.

فبالأول يدبّر أمر الآخرة، وبالثانى يدبّر أمر الدنيا، والذى ذكرناه أنـه عقـل واحـد إذا تأيّد بالبصيرة دبّر الأمرين. وإذا تفرّد دبَّر أمرًا واحدًا. وهو أوضح وأبين.

وقد ذكرنا فى أول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والأمّارة ما يتنبه الإنسـان بـه علـى كونه عقلاً واحدًا مؤيدًا بالبصيرة تارةً، ومنفردًا بوصفه تارة. والله الملهم للصواب.

الباب السابع والخمسون

فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى، قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال أخبرنا أبو النصر الثرياتى، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى، قال أخبرنا هناد قال أخبرنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرّة، عن الهمدانى، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال، رسول الله ﷺ :

«إن للشيطان لمةً[1] بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان» ثم قرأ ﴿ الشَّيْطَانُ يَعدكُمُ الْفَقْرَ وَيَأمركُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾[2].

وإنما يتطلع إلى معرفة اللمتين، وتمييز الخواطر طالبٌ مريدٌ يتشوّف إلى ذلك تشوّف العطشان إلى الماء؛ لِما يعلم من وقع ذلك وخطره وخلاصه وصلاحه وفساده، ويكون ذلك عبدًا مرادًا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين، وأكثر التشوّف إلى ذلك للمقربين، ومن أخذ به فى طريقهم.

ومن أخذ فى طريق الأبرار قد يتشوّف إلى ذلك بعض التشوّف؛ لأن التشوّف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم.

ومَن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين، ولا يهتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد، كما قال بعضهم: لى قلب إن عصيته عَصيت الله وهذا حال عبد استقام قلبه، واستقامة القلب لطمأنينة النفس وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان لأن النفس كلما تحركت كدّرت صفو القلب، وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه؛ لأن صفاء القلب محفوف بالتذكرّ والرعاية.

---

(١) اللَّمة: (بفتح اللام) المسُّ يقال لمة من الجنون أى: مسٌّ أو شىء قليل.

(٢) آية رقم ٢٦٨ من سورة البقرة.

وللذكر نور يتقيه الشيطان، كاتقاء أحدنا للنار، وقد ورد فى الخبر «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تعالى تولّى وخنس، وإذا غفل التقم قلبه فحدّثه ومنّاه»(١).

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيض لَهُ شَيْطَانًا فَهو لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٢).

وقال الله تعالى: ﴿ إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرونَ ﴾ (٣).

فبالتقوى وجود خالص الذكر، وبها ينفتح بابه، ولايزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره، ثم يحميها من الفضول وما لا يعنيه، فتصير أقواله وأفعاله ضرورة، ثم تنتقل تقواه إلى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول، حتى يتقى حديث النفس.

قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس، ويرى الإصغاء إلى ما تحدّثُ به النفس ذنبًا فيتقيه.

ويتقد القلبُ عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب فى كبد السماء، ويصير القلب سماءً محفوظا بزينة كواكب الذكر؛ فإذا صار كذلك بَعد عن الشيطان.

ومثل هذا العبد يندر فى حقّه الخواطر الشيطانية ولَمّاته.. ويكون له خواطر النفس. ويحتاج إلى أن يتقيها ويميزها بالعلم؛ لأن منها خواطر لا يضر إمضاؤها، كمطالبات النفس بحاجاتها، وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحظوظ..

ويتعينٌ التمييز عند ذلك واتهام النفس بمطالبات الحظوظ قال الله تعالى: ﴿ يَأَيُّها الَّذِيَن آمنُوا إنْ جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَيِنُوا ﴾ (٤) أى فتثبتوا.

وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة حيث رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق، فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والعصيان حتى همَّ رسول الله ﷺ بقتالهم، ثم بعث خالدًا إليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة فأنزل الله تعالى الآية فى ذلك.

---

(١) رواه الطبرانى.

(٢) آية رقم ٣٦ سورة الزخرف.

(٣) آية رقم ٢٠١ الأعراف.

(٤) آية رقم ٦ من سورة الحجرات.

فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر، وصار ذلك تنبيهًا من الله عباده على التثبت فى الأمور.

قال سهل: فى هذه الآية: الفاسق الكذّاب.

والكذب صفة النفس؛ لأنها تُملى أشياء وتسّول أشياء على غير حقائقها، فتعيَّن التثبت عند خاطرها وإلقائها، فيجعل العبُد خاطرَ النفس نبأ يوجب التثبت، ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى.

فقد قال بعضهم: أدنى الأدب أن تقف عند الجهل، وآخر الأدب: أن تقف عند الشبهة.

ومن الأدب عند الاشتباه: إنزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها، وإظهارُ الفقر والفاقة إليه والاعترافُ بالجهل وطلبُ المعرفة والمعونة منه، فإنه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان ويتبين هل الخاطر لطلب حظٍ أو لطلب حق؟ فإذا كان للحق أمضاه، وإن كان للحظ نفاه.

وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم؛ لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم.

ثم من الناس من لا يسعه فى صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظّ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب.

ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله، وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة عالم بالإذن، فيمضى خاطر الحظ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسنُ به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه، عالم بحاله محكم لعلم الحال، وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد؛ لأنه أمرٌ خاص لعبد خاص.

وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس فى مقام تخلّصه من لمات الشيطان تُكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الأربعة فى حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا نادرًا لضيق مكانه من النفس؛ لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس، واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض.

ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرًا لدخول الابتلاء عليه؛ ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقرَّبين من إذا صار قلبه

سماء مزَّينًا بزينة كوكب الذكر، يصير قلبه سماويًا يترقًى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته فى طبقات السموات، وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات بعروج باطنه، كما كان ذلك لرسول الله ﷺ بظاهره وقلبه.

فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بأنوار القرب، وبُعد النفس عنه، وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضًا، لأن الخاطر رسول، والرسالة إلى مَن وبَعُد.. وهذا قريب.

وهذا الذى وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم، بل يعود فى هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطرها فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك، وذلك أن الخواطر تستدعى وجودًا، وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه. وخاطر الحق انتفى لمكان القرب. وخاطر النفس بَعُد عنه لبُعد النفس، وخاطر الملك تخلّف عنه كتخلّف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله ﷺ حيث قال: لو دنوتُ أنملةً لاحترقت.

قال محمد بن على الترمذى: المحدًث والمكلًم إذا تحققا فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس، فكما أن النبوّة محفوظة من إلقاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من إلقاء النفس وفتنها، ومحروس بالحق والسكينة لأن السكينة حجاب المتكلم والمحدث مع نفسه.

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرىّ بالبصرة يقول: الخواطر أربعة:

خاطر من النفس، وخاطر من الحق، وخاطر من الشيطان، وخاطر من الملك.

فأما الذى من النفس: فيحسُّ به من أرض القلب. والذى من الحق: من فوق القلب، والذى من الملك؛ عن يمين القلب، والذى من الشيطان: عن يسار القلب.

والذى ذكره إنما يصحّ لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد، وتصفىّ وجوده، واستقام ظاهره وباطنه، فيكون قلبه كالمرآة المجلوَّة: لا يأتيه الشيطان من ناحيةٍ إلا ويُبصره، فإذا أسودّ القلب وعلاه الرين لا يُبصر الشيطان.

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ «أن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن نزع واستغفر وتاب صقُل، وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه»[1] قال الله تعالى: ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَىَ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [2].

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان.

(٢) آية رقم ١٤ من سورة المطففين.

سمعت بعض العارفين يقول كلامًا دقيقًا كوشف به فقال: الحديث فى باطن الإنسان، والخيال الذى تراءى لباطنه ويخيل بين القلب وصفاء الذكر: هو من القلب وليس هو من النفس.

وهذا بخلاف ما تقرر. فسألته عن ذلك، فذكر أن بين القلب والنفس مناغاة ومحادثات وتألفًا وتوددًا وكلما انطلقت النفس فى شيء بهواها من القول أو الفعل تأثّر القلب بذلك وتكدّر؛ فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس، وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتبة للنفس، وذكّر النفس شيئًا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك.

فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتَحه فمعرفته من أهم شأن العبد، لأن الأفعال من الخواطر تنشأ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» هو علم الخواطر، قال: لأنها أول العقل، وبفسادها فساد العقل.

وهذا لعمرى لا يتوجّه؛ لأن رسول الله ﷺ أوجب ذلك على كل مسلم، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر فمنها ما هو بذر السعادة ومنها ما هو بذر الشقاوة.وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا خامس لها:

إمّا ضعف اليقين، أو قلّة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها، أو متابعة الهوى بجرم قواعد التقوى، أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس.

فمن عصم عن هذه الأربعة: يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان. ومن إبتلى بها: لا يعلمها ولا يطلبها وانكشاف بعض الخواطر دون البعض، لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض.

وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومُهم بمعرفة النفس، وبمعرفة النفس، ومعرفتها صعبة المنال لا تكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى.

واتفق المشايخ على أنّ من كان أكله من الحرام لا يفرّق بين الإلهام والوسوسة.

وقال أبو علىّ الدقاق من كان قوته معلومًا لا يفرق بين الإلهام والوسوسة.

وهذا لا يصحّ على الإطلاق إلا بقيد؛ وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد بإذن يسبق إليه فى الأخذ منه والتقوّت به.

ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر إنما ذلك يقال فى حق من دخل فى معلوم باختيار منه وإيثار؛ لأنه ينحجب لموضع اختياره، والذى أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم.

وفرّقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان، وقالوا:

إنّ النفس تطالب وتلحّ.. فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها، والشيطان إذا دعا إلى زلّة ولم يُجب يوسوس بأخرى، إذ لا غرض له فى تخصيص، بل مراده الإغواء كيفما لأمكنه.

وتكلم الشيوخ فى الخاطرْين إذا كانا من الحقّ، أيهّما يتبع؟ قال الجنيد: الخاطر الأول؛ لأنه إذا بقى رجع صاحبه إلى التأمّل. وهذا شرط العلم.

وقال ابن عطاء: الثانى أقوى لأنه لأنه ازداد قوّةً بالأول.

وقال عبد الله بن خفيف: هما سواء؛ لأنهما من الحق، فلا مزّيةَ لأحدهما على الآخر.

قالوا: الواردات أعمُّ من الخواطر، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبةٍ، والواردات تكون تارة خواطر وتارةً تكون وراد سرور، ووارد حزن، ووارد قبض، ووارد بسط.

وقيل: بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى، وبنور المعرفة يُقبل من الملك، وبنورا الإيمان ينهى النفس وبنور الإسلام يردّ على العدو.

ومن قصر عن درك حقائق الزهد، وتطّلع إلى تمييز الخواطر يزن الخاطر أولاً بميزان الشرع، فما كان من ذلك نفلاً أو فرضًا يمضيه، وما كان من ذلك محرّمًا أو مكروها ينفيه، فإن استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذّ أقربهما إلى مخالفة هوى النفس، فإن النفس قد يكون لها هوى كامن فى أحدهما، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون.

وقد يلمّ الخاطر بنشاط النفس، والعبد يظن أنه بنهوض القلب.

وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس.

يقول بعضهم: منذ عشرين سنة ما سكن قلبى إلى نفسى ساعة.

فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشتبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراسخون.

وأكثر ما تدخل الآفاتُ على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل، وذلك لقلّة العلم بالنفس والقلب، وبقاء نصيب الهوى فيهم.

وينبغى أن يعلم العبد قطعًا أنه مهما بقى عليه أثر من الهوى وإن دقَّ وقلَّ يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر.

ثم قد يغلظ فى تمييز الخواطر من هو قليل العلم، ولا يؤاخذ بذلك ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة.

وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين؛ لما كوشفوا به من دقيق الخفاء فى التمييز. ثم استعجالهم مع علمهم وقلّة التثبت.

وذكر بعض العلماء أن لمةً الملك ولَّمة الشيطان وحدتا لحركة النفس والروح، وأن النفس إذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تُنكت فى القلب همّة سوء، فينظر الشيطان إلى القلب فَيُقبل بالإغواء والوسوسة.

وذكر أن حركة النفس تكون: إمَّا هوى، وهو عاجل حظ النفس، أو أمنية وهى عن الجهل الغريزى أو دعوى حركة أو سكون، وهى آفة العقل ومحنَةُ القلب.

ولا تُردّ هذه الثلاثة إلاّ بأحد ثلاثة: بجهل أو غفلة، أو طلب فضول.

ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه، فإنها ترد بخلاف مأمور، أو على وفق منهىّ، ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات.

وذكر أن الروح إذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من ذلك النور فى القلب هِمَّةٌ عالية بأحد معانٍ ثلاثة: إما بغرض أمر به، أو بفضل ندب إليه، أو بمباح يعود صلاحه إليه.

وهذا الكلام يدل على أن حركتى الروح والنفس هما الموجبتان لِلمَّتين.

وعندى - والله أعلم - أن اللمتين يتقدَّمان على حركة الروح والنفس؛ فحركة الروح من لمةً الملَك، والهمة العالية من حركة الروح، وهذه الحركة من الروح ببركة لَمة الملَك، وحركة النفس من لمة الشيطان، ومن حركة النفس الهمة الدنيئة، وهى من شؤم لمة الشيطان.

فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان، وظهر سرّ العطاء والابتلاء من معط كريم، وميلٍ حكيم.

وقد تكون هاتان اللمتان متداركين، وينمحى أثُر إحداهما بالأخرى.

والمتفطّن، المتيقّظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب أنس، ويبقى أبدًا متفقدًا حاله، مطالعًا آثار اللمّتين.

وذكر خاطر خامس: وهو خاطر العقل، متوسط بين الخواطر الأربعة، يكون مع النفس والعدوّ لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد، ليدخل العبد فى الشىء بوجود عقل؛ إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب. وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارًا ويستوجب به الثواب.

وذكر خاطر سادس: وهو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزيد العلم.

ولا يبعد أن يقال: الخاطر السادس وهو خاطر اليقين، حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق، وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك، وتارة من خاطر النفس، وليس من العقل خاطر على الاستقلال؛ لأن العقل - كما ذكرنا - غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم، ويتهيأ بها الانجذاب إلى دواعى النفس تارة وإلى دواعى الملك تارة، وإلى دواعى الروح تارة وإلى دواعى الشيطان تارة، فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة..

ورسول الله ﷺ لم يذكر غير اللمّتين. وهاتان اللمتان هما الأصل، والخاطران الآخران فرع عليهما؛ لأن لمة الملَك إذا حركت الروح، واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق.

وإذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء، فتثبت الخواطر الربّانية عند ذلك - كما ذكرناه قبل - لموضع قربه.

فيكون أصل خواطر الحق لّمة الملك، ولمة الشيطان إذا حركت النفس هوت بجبلتها إلى مركزها من الغريزة والطبع، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها، فصارت خواطر النفس نتيجة لّمة الشيطان، فأصلا لّمتان، وينتجان آخريين. وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما. والله أعلم.

الباب الثامن والخمسون

فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك.

ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما؛ فتراءى للبعض الشىء حالاً، وتراءى للبعض مقامًا. وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما.

ولابدّ من ذكر ضابط يفرّق بينهما، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق:

فالحال سُمىّ حالاً لتحوّله، والمقام مقامًا لثبوته واستقراره.

وقد يكون الشىء بعينه حالاً ثم يصير مقامًا، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس، ثم تعود، ثم تزول، فلايزال العبد – حال المحاسبة – يتعاهد الحال، ثمَّ يحوِّل الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حال المحاسبة، وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة، فتصير المحاسبةُ وطنه ومستقره ومقامه، فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة. ثم ينازله حال المراقبة، فمَن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال. ثم يحوِّل حال المراقبة، لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك اللهُ عبدَه بالمعونة، فتصير المراقبة مقامًا بعد أن كانت حالاً.

ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بتنازل حال المراقبة.

ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة.

فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرّت مراقبته وصارت مقامه.

ونازل المشاهدة أيضًا يكون حالاً يحول بالاستتار ويظهر بالتجلّى، ثم يصير مقامًا وتتخلّص شمسه عن كسوف الاستتار.

ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقّيات من حال، إلى حال إلى أعلى منه، كالتحقيق بالغناء والتخلّص إلى البقاء، والترقّى من عين اليقين إلى حقّ اليقين، وحقُّ اليقين نازل

يخرق شَغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة، وقد قال رسول الله ﷺ «اللهم إنى أسألك إيمانًا يباشر قلبى»[١].

قال سهل بن عبد الله: للقلب تجويفان، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر، وهو قلب القلب وسويداؤه.

والتجويف الثانى: ظاهر القلب وفيه العقل. ومَثَل العقل فى القلب مثل النظر فى العين، وهو صِقال[٢] لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذى فى سواد العين، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات.

وهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه، وهى حقُّ اليقين، هى: أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها.

ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجُرِّ من التراب، إذ يكون ترابًا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرًا. فالمشاهدة هى الأوَّل والأصل، يكون منها الغناء كالطين، ثم البقاء كاللبن، ثم هذه الحالة، وهى آخر الفروع. ولما كان الأصل فى الأحوال هذه الحالة، وهى أشرف الأحوال، وهى محضُ موهبةٍ لا تكتسب سُميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالاً، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه، فأطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب، وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب، والمواهب محفوفة بالمكاسب، فالأحوال مواجيد، والمقامات طرق المواجيد.

ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب، وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب.

فالأحوال: مواهب علوية سماوية، والمقامات، طُرقها.

وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه: سلونى عن طرق السموات فإنّى أعرف بها من طرق الأرض: إشارةٌ إلى المقامات والأحوال، فَطُرق السموات: التوبة، والزهد، وغير ذلك من المقامات فإنَّ السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويًا، وهى طرق السماوات ومُتنزَّل البركات.

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) صقل الشىء: جَلاه وكشف صدأه. والصقال الكاشف.

وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب سماوىّ.

قال بعضهم: الحال هو الذكر الخفىّ، وهذا إشارة إلى شىء مما ذكرناه.

وسمعت المشايخ بالعراق يقولون: الحال ما مَنَّ الله.

فكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون: هذا ما مَنَّ العبد.

فإذا لاح للمريد شىء من المواهب والمواجيد قالوا: هذا ما مَنَّ اللهُ. وسموه «حالاً» إشارة منهم إلى أن الحال موهبة.

وقال بعض مشايخ خراسان: الأحوال مواريث الأعمال.

وقال بعضهم: الأحوال كالبروق، فإن بقى، فحديث النفس.

وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق، وإنما يكون ذلك فى بعض الأحوال، فإنها تطرق، ثم تَستلبها النفس، فأمَّا على الإطلاق فلا، والأحوال لا تمتزج بالنفس، كالدُّهن لا يمتزج بالماء وذهب بعضهم إلى أنَّ الأحوال لا تكون إلاّ تكون إلاّ إذا دامت، فأما إذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر، وهى مقدمات الأحوال، وليست بأحوال.

واختلف المشايخ فى أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل إحاكم حكم مقامه.

قال بعضهم: لا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون أن يُحكم حكم مقامه.

وقال بعضهم: لا يكمل المقام الذى هو فيه إلا بعد ترقّيه إلى مقام فوقه، فينظر من مقامه العالى إلى ما دونه من المقام فيحكم أمر مقامه.

والأوْلى أن يقال - والله أعلم -: الشخص فى مقامه يعطى حالاً من مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه، فبوجدانه ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه، ويتصرف الحق فيه كذلك.

ولا يضاف الشىءُ إلى العبد أنه يرتقى أو لا يرتقى، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات، والأحوال مواهب ترقّى إلى المقامات التى يمتزج فيها الكسب بالموهبة.

ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال.

فعلى ما ذكرناه يتضّح تداخل المقامات والأحوال.. حتى التوبة.

ولا تُعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام، وفى الزهد حال ومقام، وفى التوكّل حال ومقام، وفى الرضا حال ومقام.

قال أبو عثمان الحيرى: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته.

أشار إلى الرضا، ويكون منه حالاً ثم يصير مقامًا.

والمحبَّة حال ومقام، ولا يزال العبد يَتَتوَّب بطروق حال التوبة.. حتى يتوب.

وطروق حال التوبة بالانزجار أولاً. قال بعضهم: الزجر هيجان فى القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيردّه إلى اليقظة، فإذا تيقّظ أبصر الصواب من الخطأ.

وقال بعضهم: الزجر ضياء فى القلب يبصر به خطأ قصده.

والزجر فى مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه:

زجر من طريق العلم، وزجر من طريق العقل، وزجر من طريق الإيمان.

فينازل التائب حال الزجر، وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة.

ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقامًا.

وهكذا فى الزهد لا يزال يتزهّد ينازله حال تُريه لذّة ترك الاشتغال بالدنيا، وتُقَبْح له الإقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد ويستقرّ زهده، ويصير الزهد مقامه، ولا تزال نازلة حال التوكّل تقرع باب قلبه حتى يتوكّل.

وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا، ويصير ذلك مقامه.

وها هنا لطيفة: وذلك أن مقام الرضا والتوكل يَثْبت ويُحكَم ببقائه مع وجود داعية الطبع، ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع، وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع، لكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع، وظهور حكم الطبع فى وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضا، ولكن يفقد حال الرضا؛ لأن الحال لمّا تجردت موهبةً أحرقت داعية الطبع، فيقال: كيف يكون صاحب مقام فى الرضا ولا يكون صاحب حال فيه، والحال مقدِّمة المقام.. والمقام أثبت؟.

نقول: لأن المقام لما كان مشوبًا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه، والحال لمَّا كانت موهبة من الله نَزَهَت عن مزج الطبع، فحال الرضا أشرف، ومقام الرضا أمكن. ولابدّ

للمقامات من زائد الأحوال، فلا مقام إلا بعد سابقة حال، ولا تفرّد للمقامات دون سابقة الأحوال.

وأما الأحوال، فمنها ما يصير مقامًا، ومنها ما لا يصير مقامًا. والسرُّ فيه ما ذكرناه: أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن، فلما كان في الأحوال الموهبة غالبة لم تتقيد، وصارت الأحوال إلى ما لا نهاية لها، ولطف سنيُّ الأحوال أن يصير مقامًا، ومقدورات الحق غير متناهية، ومواهبة غير متناهية، ولهذا قال بعضهم: لو أعطيت روحانية عيسى، ومكالمة موسى، وخلّة إبراهيم عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك، لأن مواهب الله لا تنحصر، وهذه أحوال الأنبياء ولا تُعطَى الأولياء، ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلّع العبد، وتطلّبه، وعدم قناعته بما فيه من أمر الحق تعالى؛ لأن سيد الرسل صلوات الله وسلام عليه نبّه على عدم القناعة، وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه الصلاة والسلام: «كل يوم لم أزدد فيه علمًا فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم».

وفي دعائه ﷺ: «اللهم ما قصر عنه رأيي، وضعف فيه علمي ولم تبلغه نيَّتي وأمنيتي من خير وعدتَه أحدًا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدًا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه».

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر، والأحوال مواهب، وهي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها وتنفد أعداد الرمال دون أعدادها، والله المنعم المعطي.

الباب التاسع والخمسون

فى الإرشادات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك.

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله، قال: أخبرنا أبو منصور بن خيزون إجازة، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على بن محمد الجوهرى إجازة، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن صاعد، قال: أخبرنا الحسين بن الحسن المروزى، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك، قال: أخبرنا الهيثم بن جميل، قال: أخبرنا كثير بن سليم المدائنى قال: سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، إنى رجل ذرب اللسان، وأكثر ذلك على أهلى؛ فقال له رسول الله ﷺ: «أين أنت من الاستغفار؟ فإنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرّة».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر «فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى كل يوم مائة مرّة»[١].

وروى أبو بردة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة»[٢].

وقال الله تعالى ﴿وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أيُّه الْمُؤمِنُونَ لَعَلكُمْ تُفْلِحُون﴾[٣] وقال الله عزّ وجل ﴿إن اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[٤].

وقال الله تعالى ﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾[٥].

التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) آية ٢٢ من سورة البقرة .

(٤) آية رقم ٣١ من سورة النور.

(٥) آية رقم ٨ من سورة التحريم.

وهى أوَّل المقامات، وهى بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له؛ وإنّى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء، بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه، فصارت مع الإيمان أربعة.

ثم رأيتها فى إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التى جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقّق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات، ويكاشف بالقَدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزَّلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها تهيأت وتأكدت، فأحَدُ الثلاثِ بعد الإيمان: التوبةُ النصوح، والثانى: الزهد فى الدنيا.

والثالث: تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرًا وباطنًا من الأعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور.

ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهى:

قلّة الكلام، وقلّة الطعام، وقلّة المنام، والاعتزال عن الناس.

واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه.

وتبيَّن بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج فى صحة هذه، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها، أولها — بعد الإيمان — : التوبة، وهى فى مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحَّت تشتمل على مقامات وأحوال، ولابدّ فى ابتدائها من وجود زاجر، ووجدان الزاجر حالٌ، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب. وحال الزاجر مفتاح التوبة ومبدؤها.

قال رجل لبشر الحافى: مالى أراك مهمومًا؟ قال: لأنى ضَال ومطلوب: ضللت الطريق والمقصد، وأنا مطلوب به، ولو تبينت كيف الطرق إلى المقصد لطلبت، ولكن سنة الغفلة أدركتنى وليس منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر.

وقال الأصمعى: رأيت أعرابيًا بالبصرة يشتكى عينيه، وهما يسيل منهما الماء، فقلت له: ألاَ تمسح عينيك؟ فقال: لا؛ لأن الطبيب زجرنى، ولا خير فيمن لا ينزجر.

فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى. ولابدَّ وجودها للتائب. ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه.

قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق انتبه.

وقال أبو يزيد: علامة الانتباه خمس: إذا ذكر نفسه افتقر، وإذا ذكر ذنبه استغفر، وإذا ذكر الدنيا اعتبر، وإذا ذكر الآخرة استبشر، وإذا ذكر المولى اقشعر.

وقال بعضهم: الانتباه أوائل دلالات الخير؛ إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أدّاه ذلك الانتباه إلى التيقّظ، فإذا تيقّظ ألزمه تيقظُه الطلبَ لطريق الرشد فَيطلُب. وإذا طَلب عرف أنه على غير سبيل الحق، فيطلُب الحق، ويرجع إلى باب توبته، ثم يعطى بانتباهه حال التيقّظ.

قال فارس: أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار، وقيل: التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة.

وقيل: إذا صحّت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة.

وقيل: اليقظة طردةٌ[1] من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلّهم على طلب التوبة.

فإذا تمت يقظته نُقل بذلك إلى مقام التوبة، فهذه أحوال ثلاثة تتقدّم التوبة.

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبةُ إلا بالمحاسبة.

نُقل عن أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2]. من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلّهم على طلب التوبة.

فإذا تمت يقظته نُقل بذلك إلى مقام التوبة، فهذه أحوال ثلاثة تتقدّم التوبة.

ثم التوبة فى استقامتها تحتاج إلى المحاسبة، ولا تستقيم التوبةُ إلا بالمحاسبة.

نُقل عن أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر على الله. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[3].

---

(١) وفى نسخة: خردة والطردة الدفعة.

(٢) آية رقم ١٨ من سورة الحاقة.

(٣) آية رقم ١٨ من سورة الحاقة.

فالمحاسبة بحفظ الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات.

ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمةً منه، لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه، كى لا يستعبده الهوى وتسترقه الدنيا.

فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية.

ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى.

ويسدُّ مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية.

ولا يدخل فى الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار؛ لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة، والمتفقِّد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح، ويحقق مقام المحاسبة، فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى، فلا تزال صلاته منوِّرة تامة بنور وقته، ووقته منورًا معمورًا بنور صلاته.

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات فى قرطاس، ويَدَع بين كل صلاتين بياضًا، وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خطّ خطًا، وكلما تكلّم أو تحرّك فيما لا يعنيه نقط نقطة، ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضيِّق المحاسبةُ مجارى الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لموضع صدقه فى حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة.

قال الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته.

وسئل الواسطى: أى الأعمال أفضل؟ قال: مراعاة السرّ، والمحاسبة فى الظاهر، والمراقبة فى الباطن ويكمل أحدهما بالآخر، وبهما تستقيم التوبة.

والمراقبة والرعاية حالان شريفان، ويصيران مقامين شريفين يصحّان بصحة مقام التوبة، وتستقيم التوبة على الكمال بهما، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة.

أخبرنا أبو زرعة، إجازة، عن ابن خلف أبى بكر الشيرازى قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت الحسن الفارسيّ يقول: سمعت الجريرى يقول: أمرنا هذا مبنىّ على فصلين: وهو أن تُلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهرك قائمًا.

وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السرّ لملاحظة الحق في كل لحظة ولفظة. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[١] وهذا هو علم القيام.

وبذلك يتمُّ علم الحال. ومعرفةُ الزيادة والنقصان: وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله، وكلٌّ هذا ملازم لصحّة التوبة، وصحة التوبة ملازم لها، لأن الخواطر مقدّمات العزائم، والعزائم مقدِّمات الأعمال لأن الخواطر تحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح، ولا تتحرك الجوارح إلا بتحرك القلب بالإرادة، وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة، فصار من تمام المراقبة التوبةُ؛ لأن مَن حصر الخواطر كفى مؤونة الجوارح؛ لأن بالمراقبة اصطلام[٢] عروق إرادة المكاره من القلب، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة.

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف، عن السلمي، قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة وسياسة العمل بالعلم، وإذا صحَّت التوبة صحت الإنابة.

قال إبراهيم بن أدهم: إذا صدق العبد في توبته صار منيبًا؛ لأن الإنابة ثاني درجة التوبة.

وقال أبو سعيد القرشي: المنيب: الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله.

قال بعضهم: الإنابة الرجوع منه إليه، لا من شيء غيره، فمن رجع من غيره إليه ضيَّع أحد طرفي الإنابة.

والمنيب على الحقيقة: من لم يكن له مرجع سواه، فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحًا لا وصف له قائمًا بين يدى الحق، مستغرقًا في عين الجمع ومخالفة النفس، ورؤية عيوب الأفعال.

والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة.

قال أبو سليمان: ما استحسنت من نفسي عملاً فأحتسبه.

وقال أبو عبد الله السجزي: من استحسن شيئًا من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته، لا أن يرجع إلى ابتدائه فيروّض نفسه ثانيًا، ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال.

---

(١) آية رقم ٣٣ من سورة الرعد.

(٢) الاصطلام: الاجتماع.

ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة، وهو فى تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد فى المجاهدة إلا بوجود الصبر.

وروى فضالة بن عبيد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد من جاهد نفسه»[1] ولا يتم ذلك إلا بالصبر وأفضل الصبر الصبرُ على الله: بعكوف الهمّ عليه. وصدق المراقبة بالقلب، وحسم مواد الخواطر. والصبر ينقسم إلى: فرض، وفضل، فالفضل كالصبر على أداء المفترضات، والصبر عن المحرمّات.

ومن الصبر الذى هو فضل: الصبر على الفقر، والصبر عند الصدمة الأولى، وكتمان المصائب والأوجاع، وترك الشكوى والصبر على إخفاء الفقر، والصبر على كتم المنح والكرامات، ورؤية العبر والآيات.

ووجوه الصبر — فرضًا وفضلاً — كثيرة، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر.

فإذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة، والصبر من أعزّ مقامات الموقنين، وهو داخل فى حقيقة التوبة.

قال بعض العلماء: أى شيء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيّف وتسعين موضعًا!! وما ذكر شيئًا بهذا العدد.

وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه.

ومن الصبر: الصبر على النعمة؛ وهو أن لا يصرفها فى معصية الله تعالى. وهذا أيضًا داخل فى صحة التوبة.

وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء.

وروى عن بعض الصحابة: بُلينا بالضرّاء فصبرنا، وبُلينا بالسرّاء فلم نصبر.

ومن الصبر: رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب، والصبر عن محمدة الناس، والصبر على الخمول.

والتواضعُ والذلُّ: داخل فى الزهد، وإن لم يكن داخلاً فى التوبة.

وكلّ ما فات من مقام التوبة من المقامات السنيَّة، والأحوال وُجد فى الزهد، وهو ثالث الأربعة التى ذكرناها.

---

(١) رواه الدارقطنى والطبرانى.

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس، وطمأنينتها من تزكيتها، وتزكيتها بالتوبة؛ فالنفس إذا تركّت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية، وقلّة الصبر من وجوه الشراسة للنفس وإبائها واستعصائها.

والتوبةُ النصوح تلين النفس، وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين؛ لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفئ ميزانها المتأججة بمتابعة الهوى، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه، وتطمئن فى مجارى الأقدار.

قال أبو عبد الله البناجى: لله عباد يستحيون من الصبر، ويتلقّفون مواضع أقداره بالرضا تلقفًا.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت ومالى سرورٌ إلا مواقع القضاء: قال رسول الله ﷺ لابن عباس حين أوصاه: «اعمل لله باليقين فى الرضا، فإن لم يكن فإن فى الصبر خيرًا كثيرا»[1].

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ «من خير ما أعطى الرجل: الرضا بما قسم الله تعالى له».

فالأخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تُحصى. والرضا ثمرة التوبة النَّصوح.

وما تخلّف عبد عن الرضا إلا بتخلّفه عن التوبة النصوح.

فإذن تجمع التوبة النصوح: حال الصبر، ومقام الصبر، وحال الرضا، ومقام الرضا.

والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين، وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح؛ لأن خوفه حمله على التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه ما خاف، فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن.

ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة، دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال: «كيف تجدك»؟ قال: أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال: «ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا، وآمنه مما يخاف»[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن ماجه.

وجاء فى تفسير قوله تعالى ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(١) هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول: قد هلكت، لا ينفعنى عملٌ.

فالتائب خاف، فتاب، ورجا المغفرة، ولا يكون التائب تائبًا إلا وهو راج خائف.

ثم إنَّ التائب حيث قيّد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله، فقد شكر النعم؛ لأن كلّ جارحة من الجوارح نعمة، وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعة، وأىّ شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم؟!

فإذن جَمَعَ مقَامُ التوبة هذه المقامات كلها، فقد جمع مقام التوبة: حال الزجر، وحال الانتباه، وحال التيقظ.

ومخالفة النفس، والتقوى، والمجاهدة، ورؤية عيوب الأفعال، والإنابة والصبر، والرضا، والمحاسبة، والمراقبة، والرعاية، والشكر، والخوف، والرجاء.

وإذا صحَّت التوبة النصوح، وتركّت النفس انجلت مرآة القلب، وبان قبح الدنيا فيها، فيحصل الزهد. والزاهد يتحقق فيه التوكّل؛ لأنه لا يزهد فى الموجود إلا لاعتماده على الموعود، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل.

وكلما بقى على العبد بقية فى تحقيق المقامات كلها بعد توبته يستدركه: بزهده فى الدنيا. وهو ثالث الأربعة.

أخبرنا شيخنا، قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزى، قال: حدثنا عبد الله بن المبارك، قال حدثنا الهيثم بن جميل قال: أخبرنا محمد بن سليمان، عن عبد الله بن بريدة، قال: قدم رسول الله ﷺ من سفر، فبدأ بفاطمة، رضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى البيت سترًا وزوائد فى يديها، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل..

ثم جلس، فجعل ينكت فى الأرض ويقول: مالى وللدنيا.. مالى وللدنيا..

فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل الستر، فأخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له:

اذهب إلى النبى ﷺ، فقل له: قد تصدقّت به فضعه حيث شئت.

---

(١) آية رقم ١٩٥ من سورة البقرة.

فَأتى بِلالٌ النبيَّ ﷺ، فقال: قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت.

فقال النبى ﷺ: «بأبى وأمىّ قد فعلت، بأبى وأمى قد فعلت. اذهب فبعه».

وقيل فى قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1] قيل: الزهد فى الدنيا.

سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الزهد؟ فقال: هو أن لا تُبالى بمن أكَل الدنيا مؤمن أو كافر.

وسئل الشبلى عن الزهد، فقال: ويلكم، أىّ مقدار لجناح بعوضة أن يُزهد فيها؟!

وقال أبو بكر الواسطى: إلى متى تصول بترك كنيف؟ وإلى متى تصول بإعراضك عمّا لا تزن عند الله جناح بعوضة؟

فإذا صحّ زهد العبد صحّ توكله أيضًا؛ لأن صدق توكله مكّنه من زهده فى الموجود.

فمن استقام فى التوبة، وزهد فى الدنيا، وحقّق هذين المقامَيْن استوفى سائر المقامات، وتكوّن فيها، وتحقّق بها.

وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط إحداهما بالأخرى: أن يتوب العبد، ثم يستقيم فى التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا، ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى إلى تطهير الجوارح عمَّا لا يُعنى، فلا يسمح بكلمة فضول ولا حركة فضول، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن، وتستولى المراقبة على الباطن: وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه، ثم خواطر الفضول.

فإذا تمكّن من رعاية الخَطَرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح، وتستقيم توبته. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾[2].

أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمرًا له ولأتباعه وأمّته.

وقيل: لا يكون المريد مريدًا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا عشرين سنة.

---

(١) آية رقم ٧ من سورة الكهف.

(٢) آية رقم ١١٢ من سورة هود.

ولا يلزم من هذا وجود العصمة، ولكن الصادق التائب فى النادر إذ ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك. والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا.

فإذا تاب توبةً نصوحًا، ثم زهد فى الدنيا حتى لا يهتم فى غَداته لعشائه، ولا فى عشائه لغدائه، ولا يرى الادِّخار، ولا يكون له تعلّق هم بغدٍ، فقد جمع فى هذا الزهد، والفقر، والزهد أفضل من الفقر، وهو فقر وزيادة، لأن الفقير عادم للشىء اضطرارًا، والزاهد تارك للشىء اختيارًا.

وزهده يحقّق توكله، وتوكّله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقّق خوفه، وخوفُه يحقق رجاءه. ويجمع بالتوبة والزهد كلَّ المقامات.

والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يُعْوِز هذه الثلاثة رابع به تمامها وهو «دوام العمل» لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة، وتيسير بعضها متوقّف على وجود الرابع وهو «دوام العمل» وكثير من الزهّاد المتحققين بالزهد، المستقيمين فى التوبة تخلّفوا عن كثير من سنىّ الأحوال، لتخلّفهم عن هذا الرابع. ولا يراد الزهد فى الدنيا، إلا لكمال الفراغ المستعان به على إدامة العمل لله تعالى.

والعمل لله: أن يكون العبد لا يزال ذاكرًا أو تاليا، أو مصليا أو مراقبًا، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى، أو مُهِمّ لابَدَّ منه طبيعى.

فإذا استولى العمل قلبى على القلب مع وجود الشغل الذى أدّاه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل. فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكًا بدوام العمل فقد أكمل الفضل، وما آلى جهدًا فى العبودية.

قال أبو بكر الوراق: من خرج من قالب العبودية صنُع به ما يصنع بالآبق.

وسئل سهل بن عبد الله التسترى: أىّ منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية؟

قال: إذا ترك التدبير والاختيار.

فإذا تحقّق العبد بالتوبة، والزهد، ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى، ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى؛ لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه.

قال يحيى بن معاذ الرازى: ما دام العبد يتعرف يقال له: لا تختر، ولا تكن مع اختيارك، حتى تعرف، فإذا عَرف وصار عارفًا يقال له: إن شئت اختر، وإن شئت لا تختر، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت، وإن تركت الاختيار، فباختيارنا تركت الاختيار. فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار.

والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز — الذى هو الغاية والنهاية: وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار — إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها؛ لأن ترك التدبير فناء، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده وردّه إلى الاختيار تصرف بالحق، وهو مقام البقاء، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق، وهو العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرّة، واستقام ظاهره وباطنه فى العبودية، وعَمر العلم والعمل ظاهره وباطنه، وتَوطّن حضرةَ القرب بنفس بين يدى الله عزّ وجلّ متمسكةٍ بالاستكانة والافتقار، متحققة بقول رسول الله ﷺ: «لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع، أكلأنى كلاءة الوليد ولا تتخل عنى»[1].

---

(١) رواه الطبرانى.

الباب الستون

فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب

قولهم فى التوبة

قال رويم: معنى التوبة أن يتوب من التوبة.

قيل: معناه قول رابعة: أستغفر الله العظيم من قلّة صدقى فى قولى أستغفر الله.

وسئل الحسن المغازلى عن التوبة: فقال: تسألنى عن توبة الإنابة، أو عن توبة الاستجابة؟.

فقال السائل: وما توبة الإنابة؟. فقال: أن تخاف من الله عزّ وجل من أجل قدرته عليك.

قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحى من الله لقربه منك.

وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كلّ خاطر يلمّ به سوى الله تعالى. ويستغفر الله منه. وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل:

وجودُك ذنبٌ لا يُقاس به ذَنْب

قال ذو النون: توبة العوامّ عن الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم.

سئل أبو محمد سهل عن الرّجل يتوب من الشىء، ويتركه، ثم يخطر ذلك الشىءُ بقلبه أو يراه، أو يسمع به فيجد حلاوته.

فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولابدّ من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى، وينكره بقلبه. ويُلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.

قال: وإن غَفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم، وتعمل الحلاوة فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضرّه.

وهذا الذى قاله سهل كافٍ، بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته.

والعارف القوىّ الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه، ويسهل عليه ذلك.

وأسباب سهولة ذلك متنوّعة للعارف وقد تمكّن من قلبه حلاوة حبّ الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين. فأىّ حلاوة تبقى فى قلبه، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حُبّ الله.

وسئل السوسىّ عن التوبة. فقال: التوبةُ من كلّ شىءٍ ذَمَّه العلمُ إلى ما مَدَحه العلم.

وهذا وصف يعمُّ الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم؛ لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء للّيل مع طلوع الشمس.

وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام.

وهذا العلم يكوِّن علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخصّ أوصاف التوبة وأعم أوصافها.

وقال أبو الحسن الثورى: التوبة أن تتوب عن كل شىء سوى الله تعالى.

قولهم فى الورع

قال رسول الله ﷺ: «ملاك دينكم الورع».

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف، عن أبى عبد الرحمن السلمى إجازة، قال أخبرنا أبو سعيد الخلال، قال: حدثنى ابن قتيبة، قال حدثنا عمر بن عثمان، قال: حدثنا بقية عن أبى بكر أبى مريم، عن حبيب بن عبيد، عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ توضّأ على نهر، فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر، وقال: «يبلغه الله عزّ وجل قومًا ينفعهم».

قال عمر بن الخطاب: لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذلّ لصاحب دنيا.

قال معروف الكرخى: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبىّ أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عِرقٌ إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق.

سئل الشبلى عن الورع، فقال: الورع أن تتورّع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان الدارانى: الورع أوّل الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل.

سئل الخواص عن الورع: فقال: أن لا يتكلّم العبد إلا بالحق غضب أو رضى، وأن يكون اهتمامه بما يُرضى الله تعالى.

أخبرنا أبو زرعة - إجازة - عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال: سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت محمد بن داود الدينورى يقول: سمعت ابن الجلاء يقول:

أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته[1] ورشائه[2] ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا.

وقال الخواص: الورع دليل الخوف، والخوف دليل المعرفة، والمعرفة، دليل القربة.

قولهم فى الزهد

قال الجنيد: الزهد: خلوّ الأيدى من الأملاك، والقلوب من التتبع.

وسئل الشبلى عن الزهد، فقال: لا زهد فى الحقيقة؛ لأنه إمَّا أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد، أو يزهد فيما هو له، فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده؟! فليس إلا ظلف[3] النفس وبذل مواساة: يشير إلى الأقسام التى سبقت بها الأقلام.

وهذا لو اطّرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولكن مقصود الشبلى أن يقلل الزهد فى عين المعتدِّ بالزهد لئلا يغترَّ به، قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أُوتى زهدًا فى الدنيا، ومنطقًا، فاقربوا منه فإنه يُلقى الحكمة».وقد سمىّ الله عزّ وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيرٌ ﴾[4] قيل: هم الزاهدون.

وقال سهل بن عبد الله: للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأوّل كل اسم منه ترك الدنيا.

---

(١) الركوة: الدلو الصغير.

(٢) رشائه: حبله.

(٣) ظلف: ظلف نفسه عن الشيء كفّ عنه.

(٤) آية رقم ٨٠ من سورة القصص.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُم مِنهم أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[١] قيل: عن الدنيا.

وفى الخبر : «العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا، فإذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم».

وجاء فى الأثر: «لا تزال «لا إله إلا الله» تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم؛ فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله. قال الله تعالى: كذبتم لستم بصادقين».

وقال سهل: أعمال البرِّ كلها فى موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم.

وقيل: مَن سمى باسم الزهد فى الدنيا فقد سمِّى بألف اسم محمود؛ ومن سمَى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمَى بألف اسم مذموم.

وقال السرىّ: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا، ويجمع هذا: الحظوظ المالية، والجاهيَّة، وحبّ المنزلة عند الناس، وحبّ المحمدة والثناء.

وسئل الشبلى عن الزهد، فقال: الزهد غفلة؛ لأن الدنيا لا شىء، والزهد فى لا شىء غفلة.

وقال بعضهم: لمّا رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم.

وعندى أن الزهدَ فى الزهدِ غيرُ هذا. وإنما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد؛ لأن الزاهد اختار الزهد وأراده. وإرادته تستند إلى عمله، وعلمه قاصر، فإذا أقيم فى مقام تَركَ الإرادةَ، وانسلخَ من اختياره، كاشفَه الله تعالى بمراده، فيترك الدنيا بمراد الحقّ لا بمراد نفسه، فيكون زهده بالله تعالى حينئذٍ.

أو يعلم أنَّ مراد الله منه التلبُّسُ بشىء من الدنيا، فما يدخل بالله فى شىء من الدنيا لا يُنقص عليه زهدَه فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله، وبإذن منه زهدًا فى الزهد.

والزَّاهد فى الزُّهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها؛ إن تركها تركها بالله، وإن أخذها أخذها بالله، وهذا هو الزهد فى الزهد.

وقد رأينا من العارفين من أقيم فى هذا المقام.

---

(١) آية رقم ٢٤ من سورة السجدة.

وفوق هذا المقام مقام آخر فى الزهد: وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام البقاء، فيزهد زهدًا ثالثًا، ويترك الدنيا بعد أن مُكِّن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة. ويكون تركه الدنيا فى هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق؛ فقد يختار تركها حينا تأسيًّا بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها فى مقام الزهد (فى الزهد) رفقٌ أُدخل عليه لموْضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق.

وقد يتناوله باختياره رفقًا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم: وهذا مقام التصرّف لأقوياء العارفين: زهدوا ثالثًا بالله، كما رغبوا ثانيًا بالله، كما زهدوا أولاً لله.

قولهم فى الصبر

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله، وهو أفضل الخدمة وأعلاها.

وقال بعضهم: الصبر أن تصبر فى الصبر: أى لا تطالع فيه الفرج، قال الله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أولئك الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [1].

وقيل: لكل شىء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

فالصبر: عَرك النفس ، وبالعرك تلين .

والصبر جار فى الصابر مجرى الأنفاس ؛ لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهىّ ومكروه ، ومذموم ظاهرًا وباطنًا ، والعلم يدلّ والصبر يقبل ، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر .

ومن كان العلم سائسَه فى الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه.

والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر، ومصدرهما الغريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما، وبالصبر يتحامل على النفس، وبالعلم

---

(١) آية رقم ١٧٧ من سورة البقرة.

يترقّى الروح، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس، ليستقرّ كل واحد منهما في مستقره. وفي ذلك صريح العدل، وصحة الاعتدال.

وبانفصال أحدهما عن الآخر - أعني العلم والصبر - ميل أحدهما على الآخر أعني النفس والروح، وبيان ذلك يدقّ.

وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [١] كلٌّ أجيرٍ أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب.

وقال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [٢] أضاف الصبر إلى نفسه؛ لشرف مكانه وتكمّل النعمة به.

قيل: وقف رجل على الشبلي، فقال: أيّ صبر أشدُّ على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله. فقال: لا فقال: الصبر لله. فقال: لا. فقال: الصبر مع الله. فقال: لا. فغضب الشبلي وقال: ويحك، أيّ شيء هو؟ فقال الرجل: الصبر عن الله. قال: فصرخ الشبلي صرخة كاد أن تتلف روحه.

وعندي في معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشدّ الصبر على الصابرين وجه، وذلك:

أن الصبر عن الله يكون في أخصّ مقامات المشاهدة يُرجع العبد عن الله استحياءً وإجلالاً. وتنطبق بصيرته خجلاً وذوبانًا، ويتغيب في مفاوز استكانته وتخفّيه لإحساسه بعظيم أمر التجليّ، وهذا من أشدِّ الصبر؛ لأنه يود استدامة هذا الحال تأديةً لحق الجلال، والروح تودُّ أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال. وكما أنَّ النفس منازعةٌ لعموم حال الصبر، فالروح في هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك.

وقال أبو الحسن بن سالم: هم ثلاثة: متصبِّر، وصابر وصبّار.

فالمتصبّر: من صبر في الله، فمرّة يصبر، ومرّة يجزع.

والصابر: من يصبر في الله، ولله، ولا يجزع. ولكن تُتوقع منه الشكوى. وقد يُمكَن منه الجزع.

وأما الصّبار: فذاك الذى صبره في الله ولله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغيّر من جهة الوجود والحقيقة، لا من جهة الرسم والخِلقة.

وإشارته في هذا ظهورُ حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

---

(١) آية رقم ١٠ من سورة الزمر.

(٢) آية رقم ١٢٧ من سورة النحل.

وكان الشبلى يتمثّل بهذين البيتين:

إن صوتَ المحبّ من ألم الشو ... ق وخوف الفراق يُورثُ ضُرّا
صابر الصّبر فاستغاث به الصبرُ ... فصاح المحبُّ للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر، وجعل الحظَّ الأعلى للرسول ﷺ حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، فقال: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إلا باللهِ ﴾ .

وسئل السرىُّ عن الصبر، فتكلّم فيه، فدبَّ على رجله عقرب فجعل يضربه بإبرته، فقيل له: لِم لا تدفعه؟ فقال: أستحى من الله تعالى أن أتكلّم فى حال ثم أخالف ما أتكلم فيه.

أخبرنا أبو زرعة إجازة - عن أبى بكر بن خلف إجازة، عن أبى عبد الرحمن قال: سمعت محمد بن خالد يقول: سمعت الفرغانى يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم الإيمان بالعقل، وأكرم العقل بالصبر؛ فالإيمان زين المؤمن، والعقل زين الإيمان، والصبر زين العقل.

وأنشد عن إبراهيم الخوّاص رحمه الله:

صَبَرتُ على بعض الأذى خوفَ كلّه ... ودافعتُ عن نفسى لنفسى فَعزّت
وجرَّعتُها المكروهَ حتى تدرَّبت ... ولو لم أجرّعْها إذن لا شمأزّت
ألاَ رُبَ ذل ساق للنفس عزّةً ... ويارُبَّ نفس بالتذلّل عزّت
إذا ما مَددتُ الكفَّ ألتمس الغِنى ... إلى غير مَن قال اسألونى فشلّت
سأصبر جَهدى إنَّ فى الصبر عزّةً ... وأرضى بدنيايا وإنْ هى قلّتِ

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : ما أنعم الله على عبد من نعمةٍ، ثم انتزعها، فعاضه مما انتزعه الصبر، إلا كان ما عاضه خيرًا مما انتزعه منه، وأنشد لسمنون:

تجرعتُ من حاليْه: نُعْمَى وأبؤسًا ... زمانًا إذا أجرى عزاليه احتسى
فكم غمرةٍ قد جرّعتنى كؤوسُها ... فجرّعتُها من بحر صبرى أكْؤسًا
تدرَّعتُ[1] صبرى والتحفت[2] صروفه[3] ... وقلت لنفسى: الصبرَ أو فاهلكى أسى
خُطوبٌ لو أنَّ الشُّمَّ[4] زاحمن خطبها ... لساخت ولم تدرك لها الكفُّ ملمسا

---

(١) تدّرعت: لبست الصبرَ وجَعلته كالدرع، تدرع لبس الدرع.

(٢) التحف: تغطى بلحاف.

(٣) صروفه: حوادثه.

(٤) الشم: الحبال.

قولهم فى الفقر

قال ابن الجلاء: الفقر أن لا يكون لك؛ فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر.

وقال الكتانى: إذا صحّ الافتقار إلى الله تعالى صحّ الغنى بالله تعالى؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

وقال النورى: نعتُ الفقراء السكونُ عند العدم، والبذل عند الوجود.

وقال غيره: والاضطراب عند الموجود.

وقال الدراج: فتشت كنف أستاذى أريد «مكحلةً» فوجدت فيها قطعة، فتحيرّتُ..

فلما جاء قلت له: إنى وجدتُ فى كنفك هذه القطعة، قال: قد رأيتُها.. رُدَّها.. ثم قال: خذها واشتر بها شيئًا، فقلت: ما كان أمر هذه القطعة بحقّ معبودك؟ فقال: ما رزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها، فأردت أن أوصى أن تُشدَّ فى كفنى فأردّها إلى الله.

وقال إبراهيم الخوَّاص: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين.

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق، فقال: لا يَسأل، ولا يردُّ، ولا يَحبس.

وقال أبو على الروزبادى رحمه الله: سألنى الزقّاق فقال: يا أبا علىّ. لِم ترك الفقراء أخْذ البلغة[١] فى وقت الحاجة؟ قال: قلت لأنهم مستغنون بالمعطِى عن العطايا؛ قال: نعم، ولكن وقع لى شىء آخر.

فقلت: هات أفدنى، ما وقع لك؟ قال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود؛ إذ لله فَاقَتُهم، ولا تضرّهم الفاقةُ؟ إذ لله وجودهم.

قال بعضهم: الفقر وقوف الحاجة على القلب، ومحوها عمّا سوى الربّ.

وقال المسوحى: الفقير الذى لا تغنيه النعم ولا تفقره المحن.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها[٢].

---

(١) البُلغة [بضم الباء] ما يتبلغ به من العيش: وما لا يكفى فى العيش ويُكتفى به.

(٢) الرسم: العلامة. ويطلق على ما يقابل الحقيقة .

وقال أبو بكر الطوسيّ: بقيت مدّة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء، فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى، حتى سألت نصر بن الحمامى، فقال لى: لأنه أوّل منزل من منازل التوحيد، فقنعت بذلك.

وسُئلَ ابنُ الجلاَّء عن الفقر، فسكت حتى صلّى، ثم ذهب، ورجع، ثم قال: إنّى لم أسكت إلا لدرهم كان عندى، فذهبت فأخرجتُه. واستحييت من الله أن أتكلّم فى الفقر وعندى ذلك. ثم جلس وتكلّم.

قال أبو بكر بن طاهر عن حكم الفقير: أن لا يكون له رغبة، فإن كان ولابدَّ لا تجاوز رغبتُه كفايته.

قال فارس: قلت لبعض الفقراء مرّة - وعليه أثر الجوع والضّر -: لِم لا تسأل فيطعموك؟

فقال: إنّى أخاف أن أسألهم، فيمنعونى، فلا يفلحون.

وأنشد لبعضهم:

قالوا غدا عيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق عبده الجرعا

فقرٌ وصبرٌ هما ثوبان تحتهما ... قلب يرى ربّه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى ... والعيد ما دمت لى مرأى ومستمعا

قولهم فى الشكر

قال بعضهم: الشكر هو الغَيبة عن النعمة برؤية المنعم.

وقال يحيى بن معاذ الرازى: لستَ بشاكر مادمت تشكر، وغاية الشكر التحيّر. وذلك أن الشكر نعمةٌ من الله يجب الشكر عليها.

وفى أخبار داود عليه السلام: إلهى، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟

فأوحى الله إليه: إذا عرفتَ هذا فقد شكرتنى.

ومعنى الشكر فى اللغة: هو: الكشف والإظهار، يقال: شكر، وكشر، إذا كشف عن ثغره وأظهره فنشْر النعم، وذكرُها، وتعدادُها باللسان: من الشكر.

وباطن الشكر: أن تستعين بالنعم على الطاعة، ولا تستعين بها على المعصية، فهو شكر النعمة.

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم:

أوْليتنى نعمًا أبوح بشكرها ... وكفيتنى كلّ الأمور بأسرها

فلأشكرنّك ما حييتُ، إن أمت ... فلتشكرنّك أعظمى فى قبرها

قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وظُلم فغفر، وظلم فاستغفر» قيل: فما باله؟ قال: ﴿أولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدونَ﴾.

قال الجنيد: فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

وفى الحديث: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله».

وقال بعضهم فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٢). قال، الظاهرة: العوافى(٣) والغنى، والباطنة: البلاوى والفقر. فإن هذه نعم أخروية لما يُستوجب بها من الجزاء.

وحقيقة الشكر: أن يرى جميع المقضىّ له به نِعمًا - غير ما يضرّه فى دينه -؛ لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئًا إلا وهو نعمة فى حقّه؛ فإمّا عاجلةٌ يعرفها ويفهمها، وإمّا آجلة بما يقضى له من المكاره. فإما أن تكون درجة له، أو تمحيصًا، أو تكفيرا.

فإذا علم أن مولاه أنصحُ له من نفسه، وأعلمُ بمصالحه، وأنَّ كل ما منه نعم، فقد شكر.

قولهم فى الخوف

قال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله»(٤).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) آية رقم ٢٠ من سورة لقمان.

(٣) العوافى: جمع عافية. والعافية: الصحة التامة.

(٤) متفق عليه.

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كان داود النبى عليه السلام يعوده الناس، يظنون أنَّ به مرضًا، وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه»[١].

قال أبو عمر الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يُعذَّب عليه.

وقيل: الخائف الذى لا يخاف غير الله. قيل: أى لا يخاف لنفسه، إنما يخاف إجلالاً له. والخوف للنفس خوفُ العقوبة.

وقال سهل: الخوف ذكَر، والرجاء أنثى، أى منهما تتولَّد حقائق الإيمان. قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإِيَّاكُمْ أنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[٢].

قيل: هذه الآية قطب القرآن؛ لأنَّ مدار الأمر كلِّه على هذا.

وقيل: إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين: وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان. فقال تعالى: ﴿هُدى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرهَبُونَ﴾[٣] وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنَ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤] وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٥].

وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم، وكمال العلم بالخوف.

وقال أيضا: العلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة.

وقال ذو النون: لا يُسقى المحبُّ كأسَّ المحبَّة إلا من بعد أن ينضج الخوفُ قلبهَ.

وقال فضيل بن عياض: إذا قيل لك: نخاف الله اسكت؛ فإنك إن قلت لا، كفرت، وإن قلت نعم، كذبت. فليس وصفُك وصفَ من يخاف.

---

(١) متفق عليه.

(٢) آية رقم ١٣١ من سورة النساء.

(٣) آية رقم ١٥٤ من سورة الأعراف.

(٤) آية رقم ٢٨ من سورة فاطر.

(٥) آية رقم ٨ سورة البينة.

قولهم فى الرجاء

قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزّ وجل: «أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. ثم يقول: وعزّتى وجلالى لا أجعل من آمن بى ساعة من ليل أو نهار كمن لا يؤمن بى»[1].

وقيل: جاء أعرابىّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: من يلى حسابَ الخلق؟ فقال: الله تبارك وتعالى. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم، فتبسّم الأعرابى، فقال النبى ﷺ: «مم ضحكت يا أعرابى»؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح.

وقال شاه الكرمانى: علامة الرجاء حسن الطاعة. وقيل: الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال. وقيل: قرب القلب من ملاطفة الربّ.

قال أبو على الروزبادى: الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتمّ فى طيرانه.

قال أبو عبد الله بن خفيف: الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو.

قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين، ولا يكون خائفًا إلا وهو راج، ولا راجيًا إلا وهو خائف، لأن موجب الخوف الإيمان، وبالإيمان رجاء، وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف.

ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه: خَفِ الله تعالى خوفًا لا تأمن فيه مكره، وارجُه أشدَّ من خوفك.

قال: فكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد؟ قال: أمَا علمتَ أن المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما، ويرجو بالآخر؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان.

قولهم فى التوكل

قال السرىّ: التوكّل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال الجنيد: التوكّل أن تكون لله كما لم تكن، فيكون الله لك كما لم يزل.

وقال سهل: كل المقامات لها وجه وقَفَا، غير التوكّل فإنه وجه بلا قَفا.

---

(١) متفق عليه.

قال بعضهم: يريد: توكلُ العناية لا توكّل الكناية.

والله تعالى جعل التوكّل مقرونًا بالإيمان فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنونَ﴾[٢] وقال لنبيه: ﴿وتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾[٣].

وقال ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وقال أبو بكر الرقاق: التوكل ردّ العيش إلى يوم واحد وإسقاط همّ غد.

وقال أبو بكر الواسطى: أصل التوكّل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكلّ فى أمانيه، ولا يلتفت بسرّه إلى توكلّه لحظةً فى عمره.

وقال بعضهم: من أراد أن يقوم بحق التوكلّ فليحفر لنفسه قبرًا يدفنها فيه، وينس الدنيا وأهلها؛ لأن حقيقة التوكّل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله.

وقال سهل: أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدى الله كالميِّت بين يدى الغاسل، يقلّبه كيف أراد، ولا يكون له حركة ولا تدبير.

وقال حمدون القصّار: التوكّل هو الاعتصام بالله تعالى.

وقال سهل أيضا: العلم كلُّه بابٌ من التعبّد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

وقال: التقوى واليقين مثل كفتى الميزان، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان.

ويقع لى: أن التوكلّ على قدر العلم بالوكيل، فكل من كان أتم معرفة كان أتمَّ توكلا، ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله.

ثم إنَّ قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل فى القسمة، وأن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلاً وموازنة؛ فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل فى النفس، وكل ما أحسَّ بشىءٍ يقدح فى توكّله يراه من منبع النفس، فنقصان التوكّل يظهر بظهور النفس، وكماله يثبت بغيبة النفس، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكّلهم، وإنما شغلهم فى تغييب النفس بتقوية مواد القلب، فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فَصَحَّ التوكل والعبد غير ناظر إليه، وكلما تحرك من النفس بقية يردُ على ضميرهم سرَّ قوله تعالى:

(١) آية رقم ٢٣ من سورة المائدة.
(٢) آية رقم ١٣ من التغابن.
(٣) آية رقم ٥٨ من سورة الفرقان.

﴿إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُون مِنْ دُونِهِ مِنْ شَىْءٍ﴾(١) فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون فى نفسه، ويصير التوكل حينئذ اضطرارًا.

ولا يقدح فى توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح فى توكل الضعفاء فى التوكل من وجود الأسباب والوسائط؛ لأنه يرى الأسباب مواتًا لا حياة لها إلا بالتوكل، وهذا توكّل خواص أهل المعرفة.

قولهم فى الرضا

قال الحارث: الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم.

وقال ذو النون: الرضا سرور القلب بِمُرِّ القضاء.

وقال سفيان عند رابعة: اللهم ارض عنا. فقالت له: أما تستحى أن تطلب رضا من لستَ عنه براضٍ!!

فسألها بعض الحاضرين: متى يكون العبد راضيًا عن الله تعالى؟

فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة.

وقال سهل: إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الهمَّ والحزن فى الشكّ والسخط».

وقال الجنيد: الرضا: هو صحة العلم الواصل إلى القلوب؟ فإذا باشر القلب حقيقة العلم أدّاه إلى الرضا. وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء؟ فإنهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة؟ لأنه فى الجنّة لا يستغنى عن الرضا والمحبة.

وقال ابن عطاء الله: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد؟ لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط.

---

(١) آية رقم ٤٢ من سورة العنكبوت.

(٢) آية رقم ٢٩ من سورة الرعد.

(٣) رواه مسلم.

وقال أبو تراب: ليس ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار.

وقال السرى: خمس من أخلاق المقرَّبين: الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحبُّ له بالتحببّ إليه، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه.

وقال الفضيل: الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئًا.

وقال ابن شمعون: الرضا بالحق، والرضا له، والرضا عنه؟ فالرضا به مدبرًا ومختارًا، والرضا عنه قاسمًا ومعطيًا، والرضا له إلهًا وربًا.

سئل أبو سعيد: هل يجوز أن يكون العبد راضيًا ساخطًا؟

قال: نعم، يجوز أن يكون راضيًا عن ربّه، ساخطًا على نفسه وعلى كلّ قاطع يقطعه عن الله.

وقيل للحسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما: إنَّ أبا ذرّ يقول: الفقر أحبّ إلىّ من الغنى، والسقم أحبُّ من الصحة.

قال: رحم الله أبا ذرّ، أما أنا فأقول: من اتّكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختار الله له.

وقال على رضى الله عنه: من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدًا، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال.

وقال يحيى: يرجع الأمر كلّه إلى هذين الأصلين: فعل منه لك، وفعلٌ منك له، فترضى بما عمل، وتخلص فيما تعمل.

وقال بعضهم: الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها.

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟

قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يُعامل به، يقول: إن أعطيتنى قبلت، وإن منعتنى رضيت، وإن تركتنى عَبَدتُ، وإن دعوتنى أجبت.

وقال الشبلى – رحمه الله – بين يدى الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر. فقال: صدقت، قال: فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء.

وهذا إنما قاله الجنيد – رحمه الله – تنبيهًا منه على أصل الرضا، وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه، وانشراح القلب من نور اليقين، قال الله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُو عَلَى نُور مِنْ رَّبِّهِ﴾[1].

فإذا تمكّن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة، وعاين حُسنَ تدبير الله تعالى، فَيُنْتزع السخط والضجر؟ لأنَّ اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق؟ لأنَّ المحبَّ يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه، كما قيل:

وكلُّ ما يفعل المحبوب محبوب

(١) آية رقم ٢٢ من سورة الزمر.

الباب الحادى والستون

فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى - رحمه الله، قال: أخبرنا أبو طالب الزينى، قال: أخبرتنا كريمة المرزوية، قالت: أخبرنا أبو الهيثم الكشمهينى، قال: أخبرنا أبو عبد الله الفربرى، قال: أخبرنا أبو عبد الله البخارى، قال: حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار».

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن، قال أخبرنا أبو عمرو بن حيوة قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه، قال حدثنى بشر بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن أبى عبلة، عن العرباض بن سارية، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو :

«اللهم اجعل حبّك أحبَّ إلى من نفسى، وسمعى وبصرى، وأهلى ومالى، ومن الماء البارد»[1].

فكأنَّ رسول الله ﷺ طلب خالص الحبّ، وخالصُ الحبّ هو: أن يحبَّ الله تعالى بكليته، وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائمًا بشرط حالِه بكحم العلم، والجبلّةُ تتقاضاه بضدّ العلم، مِثل أن يكون راضيًا والجبلّة قد تكره،

ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم، لا إلى الاستعصاء بالجبلّة، فقد يحبُّ الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ويحب الأهل والولد بحكم الطبع.

وللمحبة وجوه، وبواعث المحبة فى الإنسان متنوعة، فمنها: محبة الروح، ومحبة القلب، ومحبة النفس، ومحبة العقل، فقول رسول الله ﷺ، وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد — معناه: استئصال عروق المحبَّة بمحبة الله حتى يكون حب الله تعالى غالبًا؛ فيحبُّ الله تعالى بقلبه وروحه وكليته، حتى يكون حبَّ الله تعالى أغلبَ فى الطبع أيضا والجبلة من حبّ الماء البارد.

---

(١) متفق عليه.

وهذا يكون حبًّا صافيا لخواص تَنْغمرُ به وبنوره نار الطبع والجبلّة.

وهذا يكون حبٌّ الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب.

قال الواسطى: فى قوله تعالى ﴿يُحبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] كما أنه بذاته بحبُّهم كذلك يحبون ذاته، فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات.

وقال بعضهم: المحبّ شرطه أن تلحقه سكرات المحبة؛ فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبُّه فيه حقيقة، فإذن الحبّ حبان: حبّ عام، وحبّ خاص.

فالحبّ العام مقسَّر بامتثال الأمر، وربمّا كان حبًّا من معدن العلم بالآلآء والنعماء.

وهذا الحب مخرجه من الصفات.

وقد ذكر جمع من المشايخ الحبَّ فى المقامات؛ فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد فيه مدخل.

وأما الحب الخاص فهو حبّ الذات عن مطالعة الروح، وهو الحَبّ الذى فيه السكرات، وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده، واصطفاؤه إياه.

وهذا الحب يكون من الأحوال؟ لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم من قول النبى ﷺ (أحبٌّ إلىَّ من الماء البارد) لأنه كلام عن وجدان روح تلتذُّ بحبّ الذات، وهذا الحب روح، والحبُّ الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح ولّما صحَّت محبَّتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] لأن المحبَّ يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه، وينشد:

لِعينٍ تُفَدَّى ألفُ عيْن وتُتقى ويُكرِمَ ألفُ للحبيب المكرَّم

وهذا الحبّ الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها، وهو فى الأحوال كالتوبة فى المقامات فمن صحَّت توبته على الكمال تحقّق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل.. على ما شرحناه أولاً: ومَن صحّت محبّته هذه تحقّق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحوّ وغير ذلك.

والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسمان، لأنها مشتملة على الحبِّ العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ فى طريق المحبوبين، وهو طريق خاص من طريق المحبة

---

(١) من آية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) من آية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

يتكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح، وعند ذلك لا يتقلب فى أطوار المقامات. لأن التقلّب فى أطوار المقامات والترقّى من شىء منها إلى شىء طريقُ المحبِّين.

ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] ومن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[2].

أثبتَ كَون الإنابة سببًا للهداية فى حقّ المحب

وفى حقّ المحبوب حرّج بالاجتباء غير مُعللٍ بالكسب فقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأَتَمِّ وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسه، وهو يُقيدها ويحبسها بترقّيه منها، وانتزاعه صفوها وخالصها؛ لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها.

والمقامات كلُّها مصفية للنعوت والصفات النفسانية، فالزهد يصفيه عن الرغبة، والتوكل يصفيه عن قلّه الاعتماد المتولّد عن جهل النفس، والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة، والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجمودها.

فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها، فماذا ينزع الزهد منه من الرغبةِ ورغبةُ الحبّ أحرقت رغبته؟

وماذا يُصفّ منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته ؟

وماذا يُسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعةُ ممن لم تسلم كلّيتُه؟

قال الروزبارى: ما لم تخرج من كُلّيتك لا تدخل فى حدّ المحبة.

وقال أبو يزيد: من قتلته محبّته فَدِيتُه رؤيته، ومن قتله عشقه فديته منادمته.

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف، عن أبى عبد الرحمن قال: سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول: سمعت الحسين بن علويه يقول: قال أبو يزيد ذلك.

---

(١) آية رقم ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٢) آية رقم ١٣ من سورة الشورى.

فإذن، التقلّب فى أطوار المقامات لعوامّ المحبين، وطىّ بساط الأطوار لخواص المحبين وهم: المحبوبون: تخلّفت عن هممهم المقامات، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات؛ وهى مواطن من يتعثّر فى أذيال بقاياه.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص: إلى ماذا أدّى بك التصوف؟

فقال: إلى التوكّل.

فقال: تسعى فى عمران باطنك!! أين أنت من الفناء فى التوكّل برؤية الوكيل؟

فالنفس إذا تحركت بصفتها متفلتةً من دائرة الزهد يردّها الزاهد إلى الدائرة بزهده. والمتوكل إذا تحركت نفسه بردّها بتوكله، والراضى يردّها برضاه.

وهذه الحركات من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم، وفى ذلك تنسيم روح القرب من بعيد، وهو: أداء حق العبودية مبلغ العلم، وبحسبه الاجتهاد والكسب.

ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلّص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحقّ.

ومن اكتسى ملابس نور (أهل) القرب بروح دائمة العكوف محميّة عن الطوارق والصروف لا يزعجه طلب، ولا يوحشه سَلَب.

فالزهد، والتوكل، والرضا كائن فيه، وهو غير كائن فيها، على معنى: أنه كيف تقلّب كان زاهدًا وإن رغب، لأنه بالحقّ، لا بنفسه، وإن رؤى منه الالتفاتُ إلى الأسباب فهو متوكل. وإن وُجد منه الكراهة فهو راض، لأن كراهته لنفسه، ونفسه للحق، وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها، صار عين الداء دواؤه، وصار الإعلالُ شفاءه. وناب طلب الله له مناب كل طالب مِن زهدٍ وتوكل ورضا، أو صار مطلوبه من الله ينوب عنه كل مطلوب من زهد وتوكّل ورضا.

قالت رابعة: محبُّ الله لا يسكن أنينُه وحنينُه حتى يسكن مع محبوبه.

وقال أبو عبد الله القرشى: حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببتَ كُلَّك ولا يبقى لك منك شىء.

وقال أبو الحسين الورّاق: السرور بالله من شدّة المحبة له، والمحبة فى القلب نارٌ تحرقُ كلَّ دنس.

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبِّين أشدُّ من صبر الزاهدين؛ واعجبًا، كيف يصبر الإنسان عن حبيبه؟

وقال بعضهم: من ادّعى محبة الله من غير تورّع عن محارمه فهو كذّاب، ومن ادّعى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادّعى حبَّ رسول الله ﷺ من غير حبّ الفقراء فهو كذاب.

وكانت رابعة تنشد:

تَعصى الإلـه وأنت تُظهـر حبَّـه ... هـذا لعمـرى فى الفعال بديـع
لو كـان حُبُّـك صـادقًـا لأطعتُـه ... إنَّ المحـبَّ لمـن يحـبّ مطـيع

وإذا كان الحبُّ للأحوال كالتوبة للمقامات فَمن ادّعى حالاً يعتبر حُبُّه، ومن ادّعى محبةً تُعتبر توبته. فإنَّ التوبة قالب روح الحب، وهذا الروح قيامه بهذا القالب، والأحوال أعراض قِوامها بجوهر الروح.

وقال سحنون: ذهب المحبُّون لله بشرف الدنيا والآخرة؛ لأن النبى ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[1] فهم مع الله تعالى.

وقال أبو يعقوب السوسى: لا تصحُّ المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هذا بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبًا من غير محبّة.

سئل الجنيد عن المحبة، قال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحبّ. هذا معنى قوله تعالى [فى الحديث القدسى][2]: «فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا».

وكذلك أن المحبة إذا صَفَت، وكَمُلت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة، وكمال وصف المحبة أزال الموانع من الحبّ، وبكمال وصف المحبة تجذب صفة المحبوب تعطّفًا على المحب المخلص من موانع قادحة فى صدق الحب. ونظرًا إلى قصوره بعد استنفاد جهده، فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك:

أنـا مَن أهـوى ومـن أهـوى أنـا ... نحـن روحـان حـللنا بدنـا
فـإذا أبصـرتنـى أبصـرتـه ... وإذا أبصرتُـه أبصرتنـا

وهذا الذى عبَّرنا عنه حقيقة قول رسول الله ﷺ: «تخلّقوا بأخلاق الله»[3]، لأنه بنزاهة النفس، وكمال التزكية يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) إضافة من عندنا.
(٣) رواه الطبرانى.

ولكن سنّة الله جارية أن يُزكّى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده.

وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها، ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك؛ لكون عطايا الله غير متناهية.

وتارةً يتسلّى بما منح فيكون ذلك وصولَه الذى يُسكن نيران شوقه.

وبباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول الوصول عند المحب..

ولولا باعث الشوق رجع القهقرى، وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه.

ومَن ظنَّ الوصول غير ما ذكرناه، أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرِّض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت.

وإشارات الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة، باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حقّ اليقين بزوال اعوجاج البقايا. وأَمَنَتِ اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس.

وإذا صحّت المحبّة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها.

سئل الشبلى عن المحبة، فقال: كأسٌ لها وهج إذا استقرّ فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت.

وقيل: للمحبة ظاهر وباطن: ظاهرها اتباع رضا المحبوب، وباطنها: أن يكون مفتونًا بالحبيب عن كل شىء، ولا يبقى فيه لغيره ولا لنفسه.

فمن الأحوال السنيّة فى المحبَّة الشوق، ولا يكون المحبّ إلا مشتاقًا أبدًا؛ لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له؛ فما من حال يبلغها المحبُّ إلا ويعلم أنَّ ما وراء ذلك أوفَى منها وأتمّ :

حُزنى كحسنك لا لذا أمَدٌ ينهى إليه ولا لذا أمَدُ

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خصَّ بها المحبِّين .

قال أحمد بن الحوارى : دخلت على أبى سليمان الدارنى فوجدته يبكى ، فقلت : ما يبكيك رحمك الله ؟ .

قال : ويحك يا أحمد ، إذا جَنَّ هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم وأشرف الجليل حلّ جلاله عليهم بقول : بعينى مَن تلذَّذ بكلامى واستراح إلى مناجاتى ، وإنّى مطلّع عليهم فى خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم .. يا جبريل ناد فيهم : ما هذا البكاء الذى أراه فيكم .. هل أخبركم مخبرٌ أنَّ حبيبًا يعذّب أحبابه بالنار ؟ ..

كيف يجمل بى أن أعذّب قومًا إذا جنَّ عليهم الليل تملّقوا إلىّ ..

فَبِى حلفتُ إذا وردوا القيامةَ علىَّ أن أسفر لهم عن وجهى ، وأبيحهم رياض قدسى .

وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق ، والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة ظهر الزهد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الواسطى فى قوله تعالى : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[1] قال شوقًا واستهانةً بمن وراءه ﴿قَالَ هُمْ أولاَءِ عَلَى أثَرِى﴾[2] من شوقه إلى مكالمة الله ، ورمى بالألواح لما فاته من وقته .

قال أبو عثمان : الشوق ثمرةُ المحبة ؛ فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه .

وقال أيضا فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ أجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾[3] تقربةً للمشتاقين ، معناه : إنى أعلم أن شوقكم إلىّ غالب ، وأنا أجّلت للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه .

وقال ذون النون : الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقًا إلى ربّه ، ورجاءً للقائه والنظر إليه .

وعندى ، أن الشوق الكائن فى المحبِّين إلى رتب يتوقعونها فى الدنيا غير الشوق الذى يتوقعون به ما بعد الموت ، والله تعالى يكاشف أهل ودّه بعطايا يجدونها علمًا وبطلبونها ذوقًا ، فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقًا .

---

(١) من الآية رقم ٨٤ من سورة طه .

(٢) من الآية رقم ٨٤ من سورة طه .

(٣) آية رقم ٥ من سورة العنكبوت .

وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال الجليل لرسول اللّه ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذَّة المناجاة والمحبة ، فتمتلىء عينه من النقد[1] ، ثم يكاشفه من المنح والعطايا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت .

وأنكر بعضهم مقام الشوق ، وقال إنما يكون الشوق لغائب ، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟

ولهذا سئل الأنطاكيّ عن الشوق ، فقال : إنما يُشتاق إلى الغائب ، وما غبتُ عنه منذ وجدتُه .

وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجهًا .. ؛ لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟ فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقًا ما لم يجد من أنصبة القرب ، فكيف يُمنع حال الشوق والأمر هكذا .. ؟

ووجه آخر : ان الإنسان لابدُّ له من أمور يردّها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حدّ العلم الذى يقتضيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نعنى بالشوق إلا مطالبةً تنبعث من الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب . وهذه المطالبة كائنة فى المحبين ، فالشوق إذن كائن لا وجه لإنكاره .

وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشدّ من شوق البعد والغيبوبة ، فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقًا إلى اللقاء ، ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقًا إلى زوائد ومبار[2] من الحبيب وأفضاله ، وهذا هو الذى أراه وأختاره .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منورَّةٌ بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقًا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلىّ أشهدكم إنّى إليهم أشوق .

وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

---

(١) النقد : لعل المراد بها النظر أو العطاء .

(٢) مبار : جمع مبرة والمبرة البرّ والعطف واللطف .

سئل عطاء الله عن الشوق، فقال: هو احتراق الحشا وتلّهب القلوب وتقطّع الأكباد من البعد بعد القرب .

سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة ؟

فقال : المحبة ، لأن الشوق يتولّد منها ، فلا مشتاق إلا من غَلبه الحب ، فالحب أصل والشوق فرع .

وقال النصراباذى : للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ، ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يُرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس ، وقد سئل الجنيد عن الأنس ، فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

وسئل ذو النون عن الأنس فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

قيل : معناه قول الخليل ﴿أرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى﴾[1] وقول موسى ﴿أرِنِى أنْظُر إلَيْكَ﴾[2] .

وأنشد لرويم :

شغلت قلبى بما لديك فلا	ينفك طولّ الحياة عن فكر
أنستنى منك بالوداد فقد	أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنسٌ يعارضنى	يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يا مدى هممى	فأنت منّى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه، فإن لله عبادًا استأنسوا بالله ، وكانوا فى وحدتهم أشدّ استئناسًا من الناس فى كثرتهم، وأوحش مايكون الناس آنس مايكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش مايكونون .

قال الواسطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها .

وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم ، لأن كل من استأنستَ به سقط عن قلبك تعظيمُه إلا لله تعالى ، فإنك لا تتزايد به أنسًا إلا ازددت منه هيبة وتعظيمًا .

---

(١) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) آية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف .

قالت رابعة : كل مطيع مستأنس : وأنشدت :

ولقد جعلتُكَ فى الفؤاد مُحدِّثى وأبحتُ جِسمى من أراد جُلوسى
فالجسمُ منِّى للجليس مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله تعالى عن محادثة المخلوقين فقد قلّ عملُه وعمى قلبه وضَيَّع عُمره . قيل لبعضهم : من معك فى الدار ؟ قال : الله تعالى معى ، ولا يستوحش من أنس بربّه .

وقال الخرَّاز : الأنس محادثة الروح مع المحبوب فى مجالس القرب .

ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين ، فقال : جَدَّد لهم الودّ فى كل طَرفةٍ بدوام الاتصال . وآواهم فى كنفه بحقائق السكون إليه حتى أنَّت قلوبُهُم وحَنَّت أرواحهم شوقًا . وكان الحب والشوق منهم إشارةً من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لِما بان منه لهم ، ولو أنَّ الحقَّ تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعدّ لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه ، وكان نصيبهم معرفتَهم به وفراغ هممهم عليه ، واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يحسدهم من عبيده العموم ، أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم . وأنشد فى معناه :

كانت لقلبى أهواءٌ مفرَّقة فاستجمعتْ إذ رأتك النفسُ أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركتُ للناس دنياهم ودينَهم شُغلاً بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد يكون من الأنس : الأنس بطاعة الله ، وذكره ، وتلاوة كلامه ، وسائر أبواب القربات . وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ، ولكن ليس هو حال الأنس الذى يكون للمحبين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد ، وكمال التقوى ، وقطع الأسباب والعلائق ، ومحو الخواطر والهواجس .

وحقيقتُه عندى : كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح فى ميادين الفتوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهيبة ، وفى الهيبة اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس .

وهذا الذى وصفناه من أنس الذات ، وهيبة الذات ، يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممرّ الفناء ، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء ؛ لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهر من مطالعة الصفات من الجلال والجمال ، وذلك مقام التلوين .

وما ذكرناه بعد الغناء فى مقام التمكين ، والبقاء من مطالعة الذات .

ومن الأنس : خضوع النفس المطمئنة ، ومن الهيبة : خشوعها .

والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح .

ومنها : القرب :

قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[1] .

وقد ورد : (أقرب ما يكون العبد من ربّه فى سجوده) فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب ؛ لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون .

ويسجد على طرف رداء العظمة ، فيقرب .

قال بعضهم : إنّى لأجد الحضور ، فأقول : يا ألله ، أو يارب ، فأجد ذلك علىّ أثقل من الجبال . قيل : ولِم ؟

قال : لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسًا ينادى جليسه ، وإنما هى إشارات وملاحظات ، ومناغاة ، وملاطفات .

وهذا الذى وصفَه مقام عزيز متحقّق فيه القرب ، ولكنه مشعر بمحو ، ومؤذن بسكر ، يكون لمن غابت نفسه فى نور روحه ؛ لغلبة سكره وقوّة محوه ، فإذا صّحا وأفاق تتخلّص الروح من النفس والنفس من الروح ، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه ، فيقول : يا ألله ، ويا رب بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها .

والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال ، وهذا أتم وأقرب من الأول ؛ لأنه وفّى حق القُرب باستقلال الروح بالفتوح ، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار ، وحَظّ القُرب لا يزال بتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلبك .

وقال أبو يعقوب السوسى : ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبًا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب ، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب ، وقد قال قائلهم :

قد تحققتك فى السرّ ... فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان ... وافترقنا لمعان
إن يكن غيّبَكَ التعظيمَ ... عن الحظ عيانى
فلقد صيّرك الوجد ... من الأحشاء دانى

---

(١) آية رقم ١٩ من سورة العلق .

قال ذو النون : ما ازداد أحدٌ من الله قُربةً إلا إزداد هيبة .

وقال سهل : أدنى مقام من مقامات القرب الحياءُ .

وقال النصراباذى : باتِّباع السنة تُنال المعرفة ، وبأداء الفرائض تنال القربة ، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة .

ومنها : الحياء :

والحياء على الوصف العام والوصف الخاص .

فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله ﷺ فى قوله : (استحيوا من الله حق الحياء) ، قالوا : إنا نستحيى يا رسول الله . قال : (ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء ..) وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال : وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياءً من الله .

أخبرنا أبو زرعة ، عن خلف ، عن أبى عبد الرحمن ، قال : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت أحمد السقطى بن صالح يقول : سمعت محمد بن عبدون يقول : سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال لى سرىّ :

احفظ عنّى ما أقول لك : إن الحياء والأنس يطوفان بالقلب ، فإذا وجدا فيه الزهد والورعَ حَطَّا ، وإلا رحلا .

والحياء : إطراق الروح إجلالاً لعظيم الجلال ، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال ، فإذا اجتمعنا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء .

وأنشد شيخ الإسلام :

أشتاقه فإذا بدا ... أطرقت من إجلاله

لا خيفةً بل هيبةً ... وصيانة لجماله

الموت فى إدباره ... والعيش فى إقباله

وأصدُّ عنه إذا بدا ... وأروم طيف خياله

قال بعض الحكماء : من تكلّم فى الحياء ، ولا يستحى من الله فيما يتكلـم بـه ، فـهو مستدرج .

وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربّك .

وقال ابن عطاء الله : العلم الأكبر الهيبةُ والحيـاء ؛ فـإذا ذهـب عنـه الهيبـة والحيـاء فلا خير فيه .

وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربـع درجـات : علـى الخـوف ، والرجـاء ، والتعظيم ، والحياء . وأشرفهم منزلة من عمل على الحيـاء ، لـمّا أيقـن أن الله تعـالى يـراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين : الإجلالُ والتعظيم دائمًـا عنـد نظـر الله إليهم .

ومنها : الاتصال :

قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار .

وقال بعضهم : الاتصال وصول السرّ إلى مقام الذهول .

وقال بعضهم : الاتصال أن لا يشهد العبدُ غير خالقه ، ولا يتصل بسرّه خاطر لغير صانعه .

وقال سهل بن عبد الله: حُرّكوا بالبلاء فتحركوا، ولو سكنوا اتصلوا.

وقال يحيى بن معاذ الرازى: العمال أربعة: تائب، وزاهد، ومشتاق، وواصل.

فالتـائب محجـوب بتوبتـه، والزاهـد محجـوب بزهـده، والمشـتاق محجـوب بحالـه، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء.

وقال أبو سعيد القرشي: الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدًا، والمتصـل الذى بجهده يتصل، وكلما دنا انقطع.

وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد؛ لكون أحدهما مباداً بالكشـوف، وكـون الآخـر مردودًا إلى الاجتهاد.

وقال أبو يزيد: الواصلون فى ثلاثة أحرف: هممهم لله، وشـغلهم فـى الله، ورجوعـهم إلى الله.

وقال السيارى: الوصول مقام جليل، وذلك أن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرَّب إليه البعيد.

وقال الجنيد: الواصل هو الحاصل عند ربّه.

وقال رويم: أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم، فهو محفوظو القوى، ممنوعون من الخلق أبدًا.

وقال ذو النون: ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد فرجع عنه.

واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ.

وكلُّ من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول، ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة فى التجلّى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة فى الوصول.

ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال.

وهذا تجلى عن طريق الصفات، وهو رتبة فى الوصول.

ومنهم من ترقّى لمقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبًا فى شهوده عن وجوده، وهذا حزب من تجلِّى الذات لخواصّ المقرَّبين، وهذا المقام رتبة فى الوصول.

وفوق هذا حقّ اليقين.

ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لُمح: وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول.

فإذا تحقّقت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بَعْد فى أوّل المنزل فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول.. لا تَقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدىّ، فكيف فى العُمر القصير الدنيوى؟!

ومنها: القبض والبسط:

وهما حالان شريفان قال الله تعالى: ﴿وَاللَّه يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[1].

---

(١) آية ٢٤٥ من سورة البقرة.

وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات القبض والبسط.

ولم أجد كشفًا عن حقيقتهما؛ لأنهم اكتفوا بالإشارة، والإشارة تُقنع الأهل.

وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعلّه يتشوّق إلى ذلك طالب، ويحبُّ بسط القول فيه والله أعلم.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله، ولا يكونان بعده.

ووقتُهما وموسُمهما فى أوائل حال المحبة الخاصة، لا فى نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة.

فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء وقد يجد شبه حال القبض، وشبه حال البسط، ويظن ذلك قبضًا وبسطًا، وليس هو ذلك، وإنما هو هَم يعتريه فيظّنه قبضا، واهتزازٌ نفسىّ ونشاط طبيعى يظنه بسطًا..

والهمُّ والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، ومادامت صفة «الأمَّارة» فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط. والهمَّ: وهج ساجور[1] النفس.

والنشاط: ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع.

فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال، وذا قلب، وذا نفس لوّامة، ويتناوب القبض والبسط فيه بعد ذلك، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبّة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطى: يقبضك عملك ويبسطك فيما له.

وقال النورى: يقبضك بإيّاك، ويبسط لإيّاه.

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط لظهور صفة النفس وغلبته.

والنفس ما دامت لوّامة فتارةً مغلوبة، وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها.

---

(١) سجرت التنور: أو قدته وأحميته، والساجور: خشبة تعلق فى عنق الكلب.

وصاحب القلب تحت حجاب نورانيّ لوجود قلبه، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمانى لوجود نفسه، فإذا ارتقى من القلب، وخرج من حجابه لا يقيدّه الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلّصًا من الوجود النورانى الذى هو القلب ومتحققًا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النورانى الذى هو القلب، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلّص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط.

قال فارس: أولاً القبض، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقع فى الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا.

ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإسراف فى البسط؛ وذلك أن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحًا وفرحًا واستبشارًا، فتسترقُ النفسُ السمَع عند ذلك وتأخذ نصيبها، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسط نشاطًا، فتقابل بالقبض عقوبة.

وكل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها.

ولو تأدّبت النفس، وعدلت، ولم تَجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحبُ القلب القبض. وما دام روحُه وأنسه. ورعايةُ الاعتدال الذى يَسدُّ باب القبض متلقى من قوله تعالى ﴿لِكيْلا تَأْسَوْا عَلَىَ مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفرحُوا بِمَا آتاكُمْ﴾[1] فوارد الفرح مادام موقوفًا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض، سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله تعالى.

وذا لم يلتجئ بالإيواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظًها من الفرح، وهو الفرح بما أتى الممنوع منه، فمن ذلك القبض فى بعض الأحايين، وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض.

وفى النفس، من حركاتها، وصفاتها، وثباتٌ متعددةٌ موجبةٌ للقبض.

ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة؛ لأنهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان، وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب.

---

(١) آية رقم ٢٣ من سورة الحديد.

وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف سببهما.

ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظّ من العلم الذى يُحكم علم الحال ولا علم المقام. ومن أحكم علم الحال والمقام ولا يخفى عليه سبب القبض والبسط، وربمًا يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهمٌ بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك من استقام قلبه.

ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لا تنقدح من جوهرها نارٌ توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها مع أهوية[1] الهوى حتى يظهر منه البسط.

وربما صار لمثل هذا القبض والبسط فى نفسه لا من نفسه، فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة، وما لقلبه قبض ولا بسط؛ لأن القلب متحصنٌ بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط.

ومنها: الفناء والبقاء:

وقد قيل: الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظٌ، بل يفنى عن الأشياء كلّها شغلاً بمن فنى فيه. وقد قال عامر بن عبد الله: لا أبالى امرأة رأيت أم حائطًا.

ويكون محفوظا فيما لله عليه، مصروفًا عن جميع المخالفات، والبقاء يعقبه، وهو أن يفنى عماله ويبقى بما لله تعالى.

وقيل: الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئًا واحدًا، فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته، فكان فانيًا عن المخالفات، باقيًا فى الموافقات.

وعندى أنَّ هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح، وليس من الفناء والبقاء فى شىء!!

ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عبد الله بن عمر أنه سلمّ عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يردّ عليه، فشكاه إلى بعض أصحابه، فقال له: كنا نتراءى الله فى ذلك المكان.

وقيل: الفناء هو الغيبة عن الأشياء، كما كان فناء موسى حين تجلّى ربُّه للجبل.

وقال الخراز: الفناء هو التلاشى بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق.

وقال الجنيد: الفناء استعجام الكلّ عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته.

---

(١) الأهوية بضم الهمزة: الوهدة العميقة.

وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة.

وسئل الخراز: ما علاقة الفانى؟ قال: علامة من ادّعى الفناء ذهابُ حظّه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى.

وقال أبو سعيد الخراز: أهلُ الفناء فى الفناء صحتُّهم أن يصحبهم علم البقاء، وأهل البقاء فى البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء.

واعلم أن أقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة؛ فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح، فهو ثابت بوصف التوبة.

وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا يقتضيه الزهد.

وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق، وكلّ هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه.

ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد، فيغلب كونُ الحق سبحانه وتعالى على كون العبد.

وهو ينقسم إلى فناء ظاهر، وفناء باطن.

فأما الفناء الظاهر: فهو أن يتجلّى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإراداته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق، ثم يأخذ فى المعاملة مع الله بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم فى هذا المقام من الفناء كان يبقى أيامًا لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقبضٌ الله له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحبٌ.

وهذا لعمرى فناء؛ لأنه فنى عن نفسه، وعن الغير، نظرًا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله.

والفناء الباطن: أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس.

وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق.

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى، وقلت له: هل يكون بقاء المتخيِّلات في السرّ ووجود الوسواس من الشرك الخفى؟ وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفىّ، فقال لى:

هذا يكون فى مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفىّ أم لا؟!

ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت أسطوانة فى الجامع، فانزعج لهدَّتها أهل السوق، فدخلوا المسجد، فرأوه فى الصلاة ولم يحسّ بالأسطوانة ووقوعها، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنًا.

ثم قد يتسع دعاؤه حتى لعله يكون متحققًا بالفناء ومعناه روحًا وقلبًا، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل، ويكون من أقسام الفناء: أن يكون فى كلّ فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره، ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه.

فتارك الاختيار منتظر لفعل الحقّ، فان.

وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان.

ومن مَلكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد، لا منتظرًا للفعل ولا منتظرًا للإذن هو باق.

والباقى فى مقام لا يحجبه الحقّ عن الخلق، ولا الخلق عن الحقّ.

والفانى محجوب بالحقّ عن الخلق.

والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال.

والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال، وصار بالله، لا بالأحوال، وخرج من القلب مضار مع مُقلِّبه، لا مع قلبه.

الباب الثانى والستون
فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال
فى اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى بن سليمان إجازة، قال: أخبرنا أبوالفضل حمد بن أحمد، قال: أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى قال: حدثنا محمد بن إبراهيم قال: حدثنا أبو مسلم الكشىّ قال: حدثنا مسور بن عيسى قال حدثنا القاسم بن يحيى، قال: حدثنا ياسين الزيات، عن أبى الزبير، عن جابر عن النبى ﷺ قال: «إن من معادن التقوى تعلّمك — إلى ما قد علمت — علم ما لم تعلم. والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه، وإنما يزهّد الرجلَ فى علم ما لم يعلم قلّةُ الانتفاع بما قد علم»[1].

فمشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى، وتعلّموا العلم لله تعالى، وعملوا بما علموا لموضع تقواهم فعلّمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار، وترسّخ قدمهم فى العلم.

قال أبو سعيد الخراز: أول الفهم لكلام الله العملُ به؛ لأن فيه: العلم: والفهم، والاستنباط.

وأوّلُ الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

وقال أبو بكر الواسطى: الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب، وفى سرّ السرّ، فَعرَّفهم ما عَرَّفَهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يُرد من غيرهم، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات.

فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النّص، فاستخرجوا الدرر والجواهر، ونطقوا بالحكمة.

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ، فيما رواه سفيان بن عيينة، عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أنه قال: «إنَّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرَّة بالله».

---

(١) رواه مسلم والطبرانى.

(٢) آية رقم ٣٧ من سورة ق.

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا أبو بكر بن خلف، قال حدثنا أبو عبد الرحمن، قال: سمعت النصراباذى يقول: سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول: هى أسرار الله تعالى يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة، وهى من الأسرار التى لم يطّلع عليها إلا الخواص.

وقال أبو سعيد الخراز: للعارفين خزائن أودعوها علومًا غريبة وأنْبَاءَ عجيبة يتكلّمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية، وهى من العلم المجهول.

فقوله «بلسان الأبدية وعبارة الأزلية» إشارةٌ إلى أنهم بالله ينطقون، وقد قال تعالى على لسان نبيه ﷺ «ربى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حقّ الخضر ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[1]. فمما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيمًا من بعضهم للبعض، وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها.

قولهم: الجميع.. والتفرقة :

قيل: أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إلهَ إلا هُوَ﴾ فهذا جمع، ثم فرق فقال ﴿وَالْمَلائكَةُ وَأولُوا الْعِلْمِ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿آمَنَّا باللهِ﴾ جمع، ثم فرق بقوله: ﴿وَمَا أنْزِلَ إلَيْنَا﴾[3].

والجمع أصل والتفرقة فرع، فكل جمع بلا تفرقة زندقة، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل.

وقال الجنيد: القرب بالوجد جمع، وغيبته فى البشرية تفرقة.

وقيل: جَمعَهم فى المعرفة، وفَرَّقَهم فى الأحوال.

والجمع اتصال لا يُشاهد صاحبُه إلا الحقَ، فمتى شاهد غيره فما جمع، والتفرقة شهودٌ لمن شاء بالمباينة.

وعباراتهم فى ذلك كثيرة، والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة.

ويقولون فلان فى «عين الجمع» يعنون: استيلاء مراقبة الحق على باطنه؛ فإذا عاد إلى شىء من أعماله عاد إلى التفرقة، فصحة الجمع بالتفرقة، وصحة التفرقة بالجمع،

---

(١) من سورة الكهف: آية رقم ٦٥.

(٢) من آية ١٨ من سورة آل عمران.

(٣) من آية ١٣٦ من سورة البقرة.

فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله، والتفرقة من العلم بأمر الله، ولابدّ منهما جميعًا.

قال المزيّن: الجمع عين الفناء بالله، والتفرقة العبودية متصلٌ بعضها بالبعض.

وقد غلط قوم وادعوا أنهم «في عين الجمع» وأشاروا إلى صِرف التوحيد، وعطلوا الاكتساب، فتزندقوا.

وإنما الجمع حكم الروح، والتفرقة حكم القالب، وما دام هذا التركيب باقيًا فلابدّ من الجمع والتفرقة.

وقال الواسطي: إذا نظرتَ إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت، وإذا كنت قائمًا بغيرك فأنت فانٍ بلا جمع ولا تفرقة.

وقيل: جمعهم بذاته، وفرّقهم في صفاته.

وقد يريدون بالجمع والتفرقة: أنه إذا أثبت لنفسه كسبًا ونظرًا إلى أعماله فهو في التفرقة، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع.

ومجموعُ الإشارات ينبئ أن الكون يفرق، والمكوّن يجمع، فمن أفرد المكون جمع، ومن نظر إلى الكون فرق؛ فالتفرقة عبودية، والجمع توحيد. فإذا أثبت طاعته نظرًا إلى كسبه فرق، فإذا أثبتها بالله جمع، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع.

ويمكن أن يقال: رؤيةُ الأفعال تفرقة، ورؤية الصفات جمع، ورؤية الذات جمع الجمع.

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام، فقال: أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبرٌ من موسى. ثم كُلِّم فكان المكلِّم والمكلَّم هو، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب، وردًّا لجواب، لولا بإياه سمع.

ومعنى هذا: أن الله تعالى منحه قُوةً بتلك القوة سمع، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع.

ثم أنشد القائل متمثلاً :

وبدا لـه من بعد ما اندمل الهوى   برقٌ تألَّق موهنا لمعانُه
يبدو كحاشية الرداء ودونه   صعب الذرى متمنّع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يُطق   نظرًا إليه وردّه أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه   والماء ما سمحت به أجفانُه

ومنها قولهم : التجلى .. والاستتار

قال الجنيد : إنما هو تأديب وتهذيب، وتذويب.

فالتأديب : محل الاستتار، وهو للعوام. والتهذيب للخواصّ، وهو «التجلّى» والتذويب للأولياء، وهو المشاهدة. وحاصل الإشارات فى الاستتار والتجلّى راجع إلى ظهور صفات النفس. (ومنها الاستتار): وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب. (ومنها التجلّى)

ثم التجلى قد يكون بطريق الأفعال، وقد يكون بطريق الصفات، وقد يكون بطريق الذات.

والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم؛ فأما لهم، فلأنهم به يرجعون إلى مصالح النفوس، وأما لغيرهم، فلأنه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم فى جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار.

قال بعضهم: علامة تجلّى الحق للأسرار هو: أن لا يشهد السرُّ ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم، فمن عبّر أو فهم، فهو صاحب استدلال، لا ناظر إجلال.

وقال بعضهم: التجلّى: رفع حجب البشرية، لا أن يتلوّن ذاتَ الحق عزّ وجلّ.

والاستتار: أن تكون البشرية حائلةً بينك وبين شهود الغيب.

ومنها: التجريد والتفريد:

الإشارة منهم فى التجريد والتفريد: أن العبد يتجرَّد عن الأغراض فيما يفعله، لا يأتى بما يأتى به نظرًا إلى الأغراض فى الدنيا والآخرة، بل ما كُوشف به من حقّ العظمة يؤديه حسب جهده: عبودية، وانقيادًا.

والتفريد: أن لا يرى نفسه فيما يأتى به، بل يرى منّة الله عليه.

فالتجريد ينفى الأغيار، والتفريد ينفى نفسه واستغراقه فى رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه.

ومنها: الوجد، والتواجد، والوجود:

فالوجد: ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحًا أو حزنًا، ويغيّره عن هيئته ويتطلّع إلى الله تعالى، وهو فرجةٌ يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى.

والتواجد: استجلاب الوجد بالذكر والفكر.

والوجود: اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان، فلا وجد مع الوجدان، ولا خَبر مع العيان، فالوجد بعرضيَّة الزوال، والوجود ثابت بثبوت الحال، وقد قيل:

قد كان يطربنى وجدى، فأقعدنى عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود
والوجد يُطرب من فى الوجد راحتُه والوجد عن حضور الحق مفقود

ومنها: الغلبة:

والغلبة وجد متلاحق، فالوجد كالبرق يبدو، والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز. فالوجد ينطفئ سريعًا، والغلبة تبقى للأسرار حرزًا منيعًا.

ومنها: المسامرة:

وهى تفرُّد الأرواح بخفىّ مناجاتها ولطيف مناغاتها فى سرّ السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرّد الروح بها، فتتلذّذ بها دون القلب.

ومنها: السكر والصحو:

فالسكر: استيلاء سلطان الحال، والصحو: العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال.

قال محمد بن خفيف: السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب.

وقال الواسطى: مقامات الوجد أربعة: الذهول، ثم الحيرة، ثم السكر، ثم الصحو: كمن سمع بالبحر، ثم دنا منه، ثم دخل فيه، ثم أخذته الأمواج.

فَعَلَى هذا: من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر، ومن عاد كل شىء منه إلى مستقره فهو صاح، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب.

ومنها: المحو والإثبات :

المحو بإزالة أوصاف النفوس. والإثبات: بما أدير عليهم من آثار الحب كئوس.

أو المحو: محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه وَمَا منه. والإثبات: إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به، فهو بالحق، لا بنفسه، بإثبات الحق إياه مستأنفًا بعد أن محاه عن أوصافه.

قال ابن عطاء الله: يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم.

ومنها: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين :

فعلم اليقين: ما كان من طريق النظر والاستدلال.

وعين اليقين : ما كان من طريق الكشوف والنوال.

وحق اليقين: ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال، بورود رائد الوصال.

قال فارس: علم اليقين لا اضطراب فيه، وعين اليقين هو العلم الذى أودعه الله الأسرار، والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علمًا بشبهة، فإذا انضم إليه اليقين كان علمًا بلا شبهة، وحق اليقين: هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين.

قال الجنيد: حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق، كما أخبر الصدِّيق حين قال – لما قال له رسول الله ﷺ «ماذا أبقيت لعيالك؟» قال: الله ورسوله.

وقال بعضهم: علم اليقين حال التفرقة، وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين: جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل: اسم، ورسم، وعلم، وعين، وحق:

فالاسم والرسم للعوام، وعلم اليقين للأولياء، وعين اليقين لخواص الأولياء، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وحقيقة حق اليقين اختصَّ بها نبينا محمد ﷺ.

ومنها: الوقت :

والمراد بالوقت: ما هو غالب على العبد، وأغلب ما على العبد وقته؛ فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع.

وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد، لا بكسبه، فيتصرف فيه فيكون بحكمه، يقال: فلان بحكم الوقت، يعنى مأخوذا عمّا منه بما للحق.

ومنها: الغيبة والشهود:

فالشهود: هو الحضور وقتًا بنعت المراقبة، ووقتًا بوصف المشاهدة، فما دام العبد موصوفًا بالشهود والرعاية فهو حاضر، فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب.

وقد يعنون بالغيبة: الغيبة عن الأشياء بالحق؛ فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعًا إلى مقام الفناء.

ومنها: الذوق، والشرب، والريّ:

فالذوق: إيمانٌ، والشرب: علم، والريّ: حال.

فالذوق لأرباب البواده، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع، والريّ: لأرباب الأحوال.

وذلك: أن الأحوال هي التي تستقر، فما لم يستقر فليس بحال، وإنما هي لوامع وطوالع.

وقيل: الحال: لا تستقر لأنها تحوّل، فإذا استقرت تكون مقامًا.

ومنها: المحاضرة والمكاشفة، والمشاهدة:

فالمحاضرة لأرباب التلوين، والمشاهدة لأرباب التمكين، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر.

فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم، والمكاشفة لأهل العيْن، والمشاهدة لأهل الحق: أي حق اليقين.

ومنها: الطوارق، والبوادى، والباده، والواقع، والقادح، والطوالع واللوامع واللوائح:

وهذه كلها ألفاظ متقاربة المعنى، ويمكن بسط القول فيها، ويكون حاصل ذلك راجعًا إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه.

والمقصود: أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدِّماته، وإذا صحَّ الحالُ استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها.

ومنها: التلوين والتمكين :

فالتلوين لأرباب القلوب، لأنهم تحت حجب القلوب، وللقلوب تخلُّص إلى الصفات، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها؛ فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تَلوْيناتٌ، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات.

وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم[1] الأحوال، وخرقوا حجب القلوب، وباشرت أرواحهم سطوح نور الذات، فارتفع التلوين لعدم التغيّر فى الذات؛ إذْ جلّت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات، فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلّى الذات ارتفع عنهم التلوين، فالتلوين حينئذ يكون فى نفوسهم؛ لأنها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدّسها، والتلوين الواقع فى النفوس لا يخرج صاحبه عن حالة التمكين، لأنَّ جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الإنسانية، وثبوت القدم فى التمكين كشف حقّ الحقيقة.

وليس المعنى بالتمكين: أن لا يكون للعبد تَغَيرُّ فإنه بشر، وإنما المعنىُّ به: أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدًا، ولا يتناقص، بل يزيد.

وصاحب التلوين قد يتناقص الشيء فى حقّه عند ظهور صفات نفسه، وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الأحوال.

ويكون ثبوته على مستقر الإيمان، وتلوينه فى زوائد الأحوال.

ومنها: النفس :

ويقال النفس للمنتهى، والوقت للمبتدى، والحال للمتوسط، فكأنه إشارة منهم إلى أن المتبدئ يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر، والمتوسط صاحب حال غَالَبَ حاله عليه، والمنتهى: صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه، مقيمة، لا تتناوب عليه. وهذه كلها أحوال لأربابها. ولهم منها ذوق وشرب.

والله ينفع ببركتهم. آمين.

---

(١) مشائم جمع مشيمة، والمشيمة غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة، والمشيمة: الغلاف.

الباب الثالث والستون

فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخ الإسلام أبوالنجيب السهروردى قال: أخبرنا الشريف أبوطالب الحسين بن محمد الزينى، قال: أخبرتنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنىّ قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف العزيرى قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارىّ قال: حدثنا الحميدى قال: حدثنا سفيان بن عينية قال: حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارى قال: أخبرنى محمد بن إبراهيم التيمىّ، أنه سمع علقمة بن وقّاص قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»..

النيَّة: أول العمل، وبحسبها يكون العمل.

وأهمُّ ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم: أن يدخل طريق الصوفية، ويتزيَّا بزيهِّم، ويجالس طائفتهم لله تعالى، فإن دخوله فى طريقهم هجرةُ حاله ووقته، وقد ورد «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه» وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ﴾ [١] .

فالمريد ينبغى أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى، فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحقٍ بالقوم بالمنزل، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله، وكلٌ من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتمّ.

أخبرنا أبو زرعة - إجازة - عن ابن خلف، عن أبى عبد الرحمن ، عن ابن أبى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال:

سمعت الجنيد: يقول: أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء.

فالمريد فى أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النيَّة.

وإحكامُ النيَّة: تنزيهها من دواعى الهوى وكلٍّ ما كان للنفس فيه حظّ عاجل، حتى يكون خروجه خالصًا لله تعالى..

---

(١) آية رقم ١٠٠ من سورة النساء.

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية، فمن تمت نيتُه تَمَّ عون الله له، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك..

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه: أخْلص النيَّة فى أعمالك يكفك قليل من العمل، ومن لم يهتد إلى النيَّة بنفسه يصحب من يعلّمه حُسن النية.

قال سهل بن عبد الله التسترى: أوّل ما يؤمر له المريد المبتدئ: التبرى من الحركات المذمومة، ثم النقل إلى الحركات المحمودة، ثم التفرّد لأمر الله تعالى، ثم التوقف فى الرشاد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ويكون الرضا والتسليم مراده، والتفويض والتوكلّ حاله، ثم يمنّ الله بعد هذه بالمعرفة، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة. وهذا مقام حملة العرش، وليس بعده مقام».

هذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية.

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال، ولا يحقق صدقَّه وإخلاصه شىء مثل متابعة أمر الشرع، وقطع النظر عن الخلق؛ فكل الآفات التى دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغر» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق، والخروج منهم، وترك التقيد بعاداتهم.

قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق؛ فإن الله تعالى مع الصادقين، وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ «الصدق يهدى إلى البر».

ولابدّ للمريد من الخروج من المال والجاه، والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس.

وأنفع شىء للمريد معرفةُ النفس، ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجةٌ من طلب الفضول والزيادات، أو عليه من الهوى بقية.

قال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمالُ أمرك: تُصبح لا تهم لله بمعصية، وتمسى ولا تهمُّ لله بمعصية.

فإذا أحكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفيِّ شهواتها ودسائسها وتلبيساتها.

ومن تمسَّك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى.

قال ذو النون: لله تعالى فى أرضه سيف ما وضع على شىء إلا قطع، وهو الصدق.

ونقل فى معنى الصدق: أنَّ عابدًا من بنى إسرائيل راودته ملكة عن نفسه، فقال: اجعلوا لى ماءً فى الخلاء أتنظَّف به، ثم صعد على موضع فى القصر فرمى نفسه، فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدى، فلزمه، ووضعه على الأرض وضعًا رقيقا، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال:

ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى.

وينبغى للمريد أن تكون له فى كل شىء نيّةٌ لله تعالى حتى فى أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله، ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لا تستعصى النفس، وتجيب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص.وإذا دخل فى شىء من رفق النفس، لا لله، بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه، وقد ورد فى الخبر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر، ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة».

وقيل: كان أنس يقول: طيبوا كفىّ بمسكٍ، فإن ثابتًا يصافحنى ويقبل يدى.

وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك إلى الله بنيتِّهم.

فالمريد ينبغى أن يتفقدَّ جميع أحواله وأعماله وأقواله، ولا يسامح نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى..

وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوى، عند كل لقمة، ويقول بلسانه أيضًا: آكل هذه اللقمة لله تعالى. ولا ينفع القول إذا لم تكن النية فى القلب؛ لأن النية عمل القلب وإنما اللسان ترجمان، فما لم تشتمل عليه عزيمة القلب لله لا تكون النية.

ونادى رجل امرأته وكان يسرّح شعره، فقال: هاتى المدرى. اراد «الميل»[1] ليفرق شعره.

فقالت له امرأته: أجىء بالمدرى والمرآة؟ فسكتَ. ثم قال: نعم.

---

(١) الميل: ما يجعل به الكحل فى العين.

فقال له مَن سمعه: سكتَّ وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم، فقال: إنّى قلت لها هات المدرى بنيةٍ.

فلما قالت: المرآة، لم يكن لى فى المرآة نيّة، فتوقفت، حتى هيّأ الله تعالى لى نيةً، فقلت نعم، وكلُّ مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بمهاجره الآلاف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته. وقد قيل: من قلّة الصدق كثرة الخلطاء.

وأنفع ماله لزوم الصمت، وأن لا يطرق سمته كلامُ الناس؛ فإنَّ باطنه يتغيَّر ويتأثر بالأقوال المختلفة.

وكل من لا يعلم كمال زهده فى الدنيا وتمسُّكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدًا، فإن عدم معرفته يفتح عليه خيرًا وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كلَّ نقش.

وربّما استضرَّ المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس، ويستضرّ بفضول النظر أيضًا، وفضول المشى، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة: فينظر ضرورة، حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره، ثم يتقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالرعاية والاحتراز، فإنَّ عِلْم الناس منه بذلك أخَّر عليه من فعله.

ولا يستحقر فضول المشى، فإن كل شىء من قول، وفعل، ونظر، وسماع خرج عن حدّ الضرورة جرَّ إلى الفضول، ثم يجرّ إلى تضييع الأصول.

قال سفيان: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول..

فكلُّ من لا يتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه، وانحلّت شيئًا بعد شىء..

قال سهل بن عبد الله: من لم يعبد الله اختيارًا يعبد الخلق اضطرارًا، وينفتح على العبد أبواب الرُّخص والاتساع ويهلك مع الهالكين.

ولا ينبغى للمبتدئ أن يعرف أحدًا من أرباب الدنيا؛ فإنَّ معرفته لهم سمٌّ قاتل، وقد ورد: «الدنيا مبغوضة الله، فمن تمسّك بحبلٍ منها قادته إلى النار».

وما حبلٌ من حبالها إلاَّ كأبنائها والطالبين لها، والمحبين، فمن عرفهم انجذب إليها من شاء أو أبى!!.

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار، فإنه يدخل عليه منهم أشرُّ ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل للمتعبدين، وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك. وينبغى للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب!!.

ولا ينبغى أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسًا!! فإنا اختبرنا ومارسنا الأمور كلها، وجالسنا الفقراء والصالحين، ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور، مع كونهم أصحاء فى أحوالهم.

فَعلى العبد التمسُّك بكل فريضة وفضيلة؛ فبذلك يثبت قدمه فى بدايته، ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصًا لا يمزجه بشىء من أحوال نفسه ومآربها، ويبكّر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة.

وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة - إذا أمكنه ذلك، فحسن، قال رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة اغتسل للجمعة، ولو اشتريت الماء بعشائك، وما من نبىّ إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة؛ فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين»[١].

ويشاغل بالصلاة والتضرع والدعاء، والتلاوة، وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة، ويجلس معتكفًا فى الجامع إلى أن يصلى فرض العصر، وبقيةُ النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبى ﷺ ، فإنه يرى بركة ذلك فى جميع الأسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة.

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع، لأنه يوم المزيد[٢] لكل صادق.

ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارًا يعتبر به سائر الأسبوع الذى مضى؛ فإنه إذا كان الأسبوع سليمًا يكون يوم الجمعة فيه مزيد من الأنوار والبركات.

وما يجد فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة نفس، وقلة الانشراح فَلِما ضَيَّع فى الأسبوع. يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدًا أن يلبس للناس: أما المرتفع من الثياب، أو ثياب، المتقشفين ليرُى بعين الزهد؛ ففى لبس المرتفع للناس هَوَى، وفى لبس الخشن رياء، فلا يلبس إلاّ لله.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أى يوم الجمعة.

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبًا ، ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس، فَهمَّ أن يخلع ويغيرٍ، ثم أمسك وقال: لبسته بنيَّةٍ لله، فلا أغيّره فألبسه بنيّه للناس. فليعلم العبد ذلك وليعتبره.

ولابد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه، فيحفظ من القرآن من السَّبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر، كيف أمكن. ولا يصغى إلى قول من يقول: ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن! ! فإنه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى.

وإنما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرًا واحدًا ليجتمع الهمُّ فيه.

ومن لازم التلاوة فى الخلوة، وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوْفَى ما يفيده الذكر الواحد؛ فإذا سئم فى بعض الأحايين يُصانع النفس على الذكر مصانعةً، وينزل من التلاوة إلى الذكر فإنه أخفُّ على النفس. وينبغى أن يعلم أن الاعتبار بالقلب، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد؛ فإنه عمل ناقص..

ولا يحقر الوساوس وحديث النفس؛ فإنه مضرٌّ وداء عضال، فيطالب نفسه أن يُصيرّ فى تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه، فكما أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن فى القلب لا يمزجه بحديث النفس.

وإن كان أعجميًا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنة فيشغل باطنة بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس؛ فإنَّ بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة.

قال مالك: قلوب الصدِّيقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة.

فليتمسك المريد بهذه الأصول، ليستعن بدوام الافتقار إلى الله، فبذلك ثبات قدمه.

قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء ، وعلى قَدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله ، فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ، ومفتاح كل علم دقيق فى طريق القوم .

وهذا الافتقار مع كل الأنفاس لا يتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها .

وكل كلمة وحركة خلت من مراجعة الله والافتقار فيها لا تُعقب خيرًا قطعًا ، علمنا ذلك وتحققناه وقال سهل : من انتقل من نَفَس إلى نَفَس من غير ذكر الله فقد ضَيَّع حاله ، وأدنى ما يدخل من ضيَّع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه .

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم : لمن هذه الدار ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال : مالى وهذا السؤال ؟! وهل هذه إلاّ كلمة لا تعنينى ؟! وهل هذا إلا لاستيلاء نفسى وقلة أدبها ؟! وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة .

فبالصدق نالوا ما نالوا ، وبقوة العزائم – عزائم الرجال – بلغوا ما بلغوا .

أخبرنا أبو زرعة-إجازة-قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا عبد الرحمن ، قال سمعت منصورًا يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطىّ يقول : سمعت الجنيد يقول : لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله .

وهذه الجملة يحتاج المبتدئ أن يُحكمها ، والمنتهى عالم بها ، عامل بحقائقها ، فالمبتدئ صادق ، والمنتهى صدّيق .

قال أبو سعيد القرشى : الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس .

وعلامته : أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نورَّ الروح ، وإذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الأذكار .

والصدّيق : الذى استقام ظاهره وباطنه ، يعبد الله بتلوين الأحوال ، ولا يحجبه عن الله وعن الأذكار ولا نوم ولا شراب ولا طعام ، والصدّيق يريد نفسه لله . وأقرب الأحوال إلى النبوّةِ الصدِّيقية .

وقال أبو يزيد : نهايات الصدِّيقين أول درجة الأنبياء .

وأعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب ، مجيبة إلى كلّ ما تجيب إليه القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمرنى بواطنهم صريح العلم ، وانكشفت لهم الآخرة ، كما قال رسول الله ﷺ فى حق أبى بكر – رضى الله عنه : «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر» إشارة منه ﷺ إلى ما كوشف به – من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام

المؤمنين إلا بعد الموت حيث قال: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١] فأرباب النهايات ماتت أهويتُهم وخلت أرواحهم.

قال يحيى بن معاذ: وقد سئل عن وصف العارف، فقال: رجل معهم بائنٌ منهم.

وقال مرَّة: عبد كان فبان.

فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الأجل، جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدى، وبهم يرشد، وبهم يجذب أهل الإرادة، كلامهم دواء، ونظرهم دواء، ظاهرهم محفوظ بالحكم، وباطنهم معمور بالعِلْم.

قال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم، ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله.

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قُربًا، وكلما ازدادوا جاهًا ورفعة ازدادوا تواضعًا وذلّة ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرًا صافيًا، يتناولون الشهوات تارة رفقًا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشىء ويهدى له شىء؛ لأنه مقهور تحت السياسة، مرحوم، ملطوف به، وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيًا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا عروس تطليها ما شطتها، والزاهد فيها يُسخِّم وجهها، وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشتغل بسيده، ولا يلتفت إليها.

واعلم أن المنتهى، مع كمال حاله، لا يستغنى أيضًا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر.

وقد غلط فى هذا خلق!! وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال فى تناول الملاذّ والشهوات.

وهذا خطأ، لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته، ولكن يوقف عن مقام المُزيد وقوم لمَّا رأوا أنَّ هذه الأشياء لا تؤثِّر فيهم قسوةً، ولا تورثهم حجبةً ركنوا إليها،

---

(١) آية ٢٢ من سورة ق.

(٢) آية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

واسترسلوا فيها، وقنعوا بأداء الفرائض، واتسعوا فى المأكل والمشرب، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال، وتقيدّ بنور الحال، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق. ومن تخلّص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر، ويوقف نفسه مقام العبيد، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البّر حتى بإماطة الأذى عن طريق المؤمنين.

ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود فى صور عوامّ المؤمنين من إظهار الإرادة بكل برّ وصلة؛ فيتناول الشهوات وقتًا رفقًا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة؛ لأنها أسيرته. ويمنعها الشهوات وقتًا؛ لأن فى ذلك صلاحها.

واعتبر هذا سواء بحال الصبى، فإنه إن جاوز حدّ الاعتدال من إعطاء المراد وقتًا ومنعه وقتًا انفسد طبعه؛ لأن الجبلّة لابدَّ من قمعها بسياسة العلم، وما دامت الجبلة باقية لابدَّ من سياسة العلم.

وهذا باب غامض دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل، ووقع الركون، وانسدَّ به باب المزيد، فالمنتهى ملك ناصية الاختيار فى الأخذ والترك.

ولابدَّ له من أخذٍ وتركٍ فى الأعمال والحظوظ، ففى الأعمال لابدَّ له من أخذ وترك، فتارةً يأتى بالأعمال كآحاد الصادقين، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقًا بالنفس، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقًا بالنفس، وتارة يتركها افتقادًا للنفس بحسن السياسة، فيكون فى ذلك كله مختارًا؛ فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية، فهو زاهد تارك بالكلية. ومن استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية.

والمنتهى شمل الطرفين؛ فإنه على غاية الاعتدال، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط. فمن ردّت إليه الأقسام فى النهاية، فأخذها زاهدًا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار. وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال.

وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار، فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ما سيق إليه لرؤيته فعل الله مقيدًا بالأخذ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتًا واختياره من اختيار الله، ويأخذ وقتًا واختياره من اختيار الله، وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتى بها وقتًا ويسمح للنفس وقتًا؛ لأنه مختار صحيح فى الاختيار فى الحالين. وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية.

وكل حال يستقرّ ويستقيم يشاكل حال رسول الله ﷺ.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل ولا يقوم الليل كلـه، ويصـوم مـن الشـهر ولا يصوم الشهر كله، غير رمضان، ويتناول الشهوات[١].

ولما قال الرجل إني عزمت أن لا آكل لحما، قال: فإني آكل اللحم وأحبه، ولو سـألت ربي أن يطعمني كل يوم لأطعمني.

وذلك يدلّك على أن رسول الله ﷺ كان مختـارًا فـي ذلـك: إن شـاء أكـل وإن شـاء لم يأكل. وكان يترك الأكل اختيارًا.

وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم: إن رسول الله ﷺ فعل كذا.. يقولـون: كـان رسول الله ﷺ مشرِّعًا.

وهذا إذا قالوه، علـى معنـى أن لا يلزمـهم التأسّـي بـه جـهل مَحْـضٌ، فـإن الرخصـةَ الوقوفُ على حدّ قوله، والعزيمة التأسيّ بفعله.

وقول رسول الله ﷺ لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم.

ثم إنَّ المنتهي يحاكي حالَـه حـالَ رسـول الله ﷺ فـي دعـاء الخلـق إلى الحـق، فكـلُّ ما كان يعتمده رسول الله ﷺ ينبغي أن يعتمده، فكان قيام رسول الله ﷺ وصيامـه الزائـد لا يخلو: إمّا أنه كان ليقتدّى به، وإمَّا أنه كان لمزيد كان يجده بذلك، فإن كـان لِيُقْتَـدى به فالمنتِهي أيضا مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك.

والصحيح الحقُّ أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء، بـل كـان يجـد بذلـك زيادة، وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلّة.

قال الله تعالى خطابًا لـه: ﴿ وَاعْبُـدْ رَبَّـكَ حَتَّـى يَـأتِيَكَ الْيَقِـينُ ﴾[٢] لأنـه بذلـك ازداد استمدادًا من الحضرة الإلَهية وقرع باب الكرم.

والنبي ﷺ مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى، غير مستغن عن ذلك.

ثمَّ في ذلك سرّ غريـب: وذلـك أنَّ رسـول الله ﷺ برابطـة جنسـية النفس كـان يدعـو الخلقَ إلى الحق، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به، وبين نفســه الطـاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف، كما أنَّ بين روحه وأرواحهم رابطةُ التأليف.

---

(١) أي ما تشتهيه نفسه من المشتهيات التي أحلّها الله، والتعبير في جانب رسول الله ﷺ بالشهوات. سبق قلم.

(٢) آية رقم ٩٩ من سورة الحجر.

ورابطةُ التأليف: أنَّ النفوس ألفَت آنفًا، كما أنَّ الأرواح ألفت أولاً.

ولكل روح مع نفسه تأليف خاص، والسكون، والتأليف والامتزاج واقع بين النفوس والأرواح.

وكان رسول الله ﷺ يديم العمل؛ لتصفية نفسه ونفوس الأتباع.

فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة.

وهكذا المنتهى مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى، فلا يتخلّف عن الزيادات والنوافل. ولا يسترسل فى الشهوات واللذات إلا بدلالة تخص النفس، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة.

وكلّ من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لابدَّ له من خلوة صحيحة بالحق، حتى تكون جلوته فى حماية خلوته.

ومَن يتراءى له أن أوقاته كلَّها خلوة، وأنه لا يحجبه شىء، وأن أوقاته بالله، ولله، ولا يرى نقصانًا؛ لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح فى حاله، غير أنه تحت قصور؛ لأنه ما نبّه لسياسة الجبلّة، وما عرف سرَّ تمليك الاختيار وما وقف من البيان على البيضاء النقيّة.

وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه، فقد يسمعها الإنسان ويبنى عليها، والأوْلَى أن يفتقر إلى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يُسمعه الله من ذلك الصواب.

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة، فقال: إذا اجتمعت المتفرقات، واستوت الأحوال والأماكن، وسقطت رؤية التمييز.

ومثل هذا القول يوهم أنه لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها، ولم يفهم منه أنَّ القائل أراد بذلك معنى خاصًا، يعنى أن حظّ المعرفة لا يتغيّر بحال من الأحوال وهذا صحيح؛ لأن حظَّ المعرفة لا يتغيّر ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه، ولكن حظّ المريد يتغيّر ويحتاج إلى التمييز، وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه.

قيل لمحمد بن الفضل: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال: حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلُّها ألاَ وهى الاستقامة، وكل من كان أتمَّ معرفةً كان أتمَّ استقامة؛

فاستقامة أرباب النهاية على التمام، والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محجوب بها عن الأحوال.

وفى التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال.

وفى النهاية لا تحجبه الأعمال عن الأحوال، ولا الأحوال عن الأعمال. وذلك هو الفضل العظيم.

سئل الجنيد عن النهاية فقال: هى الرجوع إلى البداية.

وقد فسرَّ بعضهم قول الجنيد، فقال: معناه أنَّه كان فى ابتداء أمره فى جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم ردّ إلى التحيّر والجهل، وهو كالطفولية: يكون جهل، ثم علم، ثم جهل. قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(١).

وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشدّهم تحيّرًا فيه.

ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكَرناه: أنه يبادىء الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال.

وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ فى طريق المحبوبين تنجذب روحه إلى الحضرة الإلَهية وتستتبع القلب، والقلب يستتبع النفس، والنفس تستتبع القالب، فيكون بكليته قائمًا بالله، ساجدًا بين يدى الله تعالى.

كما قال رسول الله ﷺ : ‹‹سجد لك سوادى وخيالى›› وقال الله تعالى: ﴿وِلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾(٢).

والظلال: القوالب تسجد بسجود الأرواح. وعند ذلك تسرى روح المحبَّة فى جميع أجزائهم وأبعاضهم. فيتلذذون، ويتنعَّمون بذكر الله تعالى، وتلاوة كلامه محبةً وودًّا، فيحبهم الله تعالى ويحببهم إلى خلقه نعمةً منه عليهم وفضلاً، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى - رحمه الله - قال: أخبرنا أبو طالب الزينى، قال: أخبرتنا كريمة المرزوية، قالت: أخبرنا أبو الهيثم الكشميهينى، قال: أخبرنا أبو عبد الله الفريرى، قال: أخبرنا أبو عبد الله البخارى، قال: حدثنى إسحق، قال:

---

(١) من آية ٥ من سورة الحج.

(٢) آية ١٥ من سورة الرعد.

حدثنا عبد الصمد، قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا نادى جبريل: إنّ الله تعالى قد أحبَّ فلانًا، فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلانًا، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول فى الأرض»[1].

وبالله العون والعصمة والتوفيق.

بحمد الله تعالى

الجزء الأخير من كتاب
عوارف المعارف للإمام السهروردى
والحمد لله رب العالمين.
وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) متفق عليه.

فهرس الكتاب

الصفحة

مقدمة ٣
الباب الثانى والعشرون: فى القول فى السماع قبولاً وإيثارًا ٥
الباب الثالث والعشرون: فى القول فى السماع ردًا وإنكارًا ١٩
الباب الرابع والعشرون: فى القول فى السماع ترفعًا واستغناء ٢٤
الباب الخامس والعشرون: فى القول فى السماع تأدبًا واعتناء ٣٠
الباب السادس والعشرون: فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية ٣٧
الباب السابع والعشرون: فى ذكر فتوح الأربعينية ٤٣
الباب الثامن والعشرون: كيفية الدخول فى الأربعينية ٥٠
الباب التاسع والعشرون: أخلاق الصوفية وشرح الخلق ٥٦
الباب الثلاثون: فى تفصيل أخلاق الصوفية ٦٥
الباب الحادى والثلاثون: فى ذكر الأدب ومكانه من التصوف ٩٨
الباب الثانى والثلاثون: الإلهية لأهل القرب ١٠٢
الباب الثالث والثلاثون: فى آداب الطهارة ومقدماتها ١٠٧
الباب الرابع والثلاثون: فى آداب الوضوء وأسراره ١١١
الباب الخامس والثلاثون: فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء ١١٥
الباب السادس والثلاثون: فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها ١١٩
الباب السابع والثلاثون: فى وصف صلاة أهل القرب ١٢٤
الباب الثامن والثلاثون: فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها ١٣٤
الباب التاسع والثلاثون: فى فضل الصوم وحسن أثره ١٤١
الباب الأربعون: اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار ١٤٤
الباب الحادى والأربعون: آداب الصوم ومهامه ١٤٧
الباب الثانى والأربعون: ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة ١٥١
الباب الثالث والأربعون: فى آداب الأكل ١٥٥
الباب الرابع والأربعون: فى ذكر أدبهم فى اللباس وثيابهم ومقاصدهم فيه ١٦٠
الباب الخامس والأربعون: فى ذكر فضل قيام الليل ١٦٧

الصفحة

الباب السادس والأربعون: ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم ١٧٠
الباب السابع والأربعون: فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل ١٧٤
الباب الثامن والأربعون: فى تقسيم قيام الليل ١٧٩
الباب التاسع والأربعون: فى استقبال النهار والأدب فيه والعمل ١٨٣
الباب الخمسون: فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات ١٩٣
الباب الحادى والخمسون: فى آداب المريد فى الشيخ ٢٠٦
الباب الثانى والخمسون: فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلاميذ ٢١٧
الباب الثالث والخمسون: فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر.................. ٢٢٣
الباب الرابع والخمسون: فى أداء حقوق الصحبة والأخوة فى الله تعالى ٢٣١
الباب الخامس والخمسون: فى آداب الصحبة والأخوة.................................. ٢٣٦
الباب السادس والخمسون: فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك ٢٤١
الباب السابع والخمسون: فى معرفة الخواطر وتفضيلها وتمييزها ٢٥٦
الباب الثامن والخمسون: فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما ٢٦٤
الباب التاسع والخمسون: فى الإرشادات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز ٢٦٩
الباب الستون: فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب......................... ٢٨٠
الباب الحادى والستون: فى ذكر الأحوال وشرحها ٢٩٦
الباب الثانى والستون: فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال فى اصطلاح الصوفية ٣١٥
الباب الثالث والستون: فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها ٣٢٣

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٣٣٨٦	
الترقيم الدولى	977-02-5969-1	ISBN

١/٩١/٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)